جامعة اليرموك
كلية الآثار والأنثروبولوجيا
قسم الآثار

قلعة دمشق
" دراسة أثرية ومعمارية "

Damascus Castel
Archaeological and Architectural Study

إعداد: ميسون علي إبداح

إشراف: أ.د صالح خالد ساري

2007

قلعة دمشق

" دراسة أثرية ومعمارية "

Damascus Castle
Archaeological and Architectural Study

إعداد

ميسون علي إبداح

بكالوريوس فنون جميلة – جامعة اليرموك ١٩٩٠

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في

الآثار الإسلامية بكلية الآثار والأنثروبولوجيا

جامعة اليرموك ٢٠٠٧

لجنة المناقشة

أ.د صالح ساري .... مشرفاً ورئيساً

أ.د عبد الجليل عمرو .... عضواً

د. خالد أبو غنيمة .... عضواً

د. محمد مفلح حتاملة .... عضواً

بسم الله الرحمن الرحيم

"وكم أهلكنا من قريةٍ بطرت معيشتها فتلك
مساكنهم لم تسكن من بعدهم وكنا نحن الوارثين"

صدق الله العظيم

سورة القصص، الآية 57

الإهداء:

إلى والدي العزيز، رمز العطاء والمحبة

إلى جميع إخوتي وأخواتي

إلى أساتذتي لمساندتهم الدائمة

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبي الهدى، ومن سار على نهجه واتبع هداه.

أتوجه بخالص الشكر والعرفان إلى الأستاذ الدكتور صالح ساري لما بذله من جهد في إشرافه على هذه الرسالة، وما أبداه من حرص وعناية على أن تخرج هذه الدراسة بالشكل المؤمل لها أن تكون، فله كل التقدير.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لأعضاء لجنة المناقشة: الأستاذ الدكتور عبد الجليل عمرو من الجامعة الأردنية، الدكتور خالد ابو غنيمة، والدكتور محمد حتاملة، على تفضلهم بالموافقة لمناقشة الرسالة.

واوجه شكري الخاص للدكتور خالد أبو غنيمة على ما أمدني به من عون في تسهيل الحصول على إذن من مديرية الآثار السورية لإجراء البحث والدراسة داخل قلعة دمشق. كما أشكر السيد حسين ديباجة الذي قام بتصوير قائمة الصور في الصفحات ع – ف في هذه الرسالة، ما لم يذكر خلاف ذلك. وأشكر كل أسرة كلية الآثار، أساتذة وإداريين، وكل من ساهم في إنجاز هذا البحث من قريب او بعيد. كما أقدم شكري وعرفاني للأستاذ الدكتور بسام أبو جاموس المدير العام لمديرية الآثار السورية على التسهيلات التي قدمها لي في هذه الدراسة داخل قلعة دمشق. كما أشكر المهندسة سوسن خليفة، والسيد حسام حمودة، والسيد صلاح شاكر، من المكتب الهندسي بقلعة دمشق، على ما أمدوني به من يد العون خلال تواجدي في سوريا، سواء بالمخططات، أو المعلومات عن المراحل الترميمية ونتائج الحفريات الخاصة بالقلعة. دون أن أنسى كذلك أن أشكر صديقتي عفة عمارنة على عونها لي في تنسيق وتنقيح هذه الرسالة، برغم ظروفها الصعبة، فلها مني كل الشكر والإحترام.

وأخيرا أسأل الله عز وجل العون الدائم لكتابة البعض عن حضارة أمتنا، وأسأله التوفيق بهذه الدراسة، وعلى الله فاليتوكل المؤمنون.

فهرس المحتويات

قائمة المصطلحات

1) **بارزة:** حجر يبرز عن الجدار لحمل ما فوقه.
2) **بدنة:** اصطلاح استخدمه القدماء للدلالة على قطعة السور الواقعة بين برجين. أما الرقمين داخل الأقواس: فيرمزان للبرجين اللذين يحدان البدنة. وتعني أيضاً العمود المربع المستخدم للتقوية.
3) **برج حامي:** برج رئيسي كبير في الحصن.
4) **جائز:** جسر فوق الأعمدة.
5) **حجر غشيم (Rubble):** دبش أو حجارة مكسرة تستخدم عادة لحشوة الجدران والأقباء.
6) **حنية ركنية:** حنية في زوايا القباب.
7) **دركاه (Dergâh):** كلمة فارسية يقصد بها قاعة وراء الباب، أو دهليز، أو البهو الذي يلي الباب.
8) **رنك:** كلمة فارسية يقصد بها الشعار، ومعناها في الأصل اللون ***(MAYER, Sarscenic Heraldry, 1933, P.97)*** .
9) **روشن خشبي:** ستائر خشبية مزودة بالسقاطات.
10) **روشن:** هي الشرفة الدفاعية الموجودة في أعالي الأبراج والبدنات، ويطلق عليها بالفرنسية Breteche .
11) **زرديات:** مستودعات الدروع كانت تسمى بهذا الإسم لأنها مصنوعة من الزرد.
12) **سروال القبة:** مثلث كروي مزدوج في زاوية القبة.
13) **سفح:** جدار مائل في السور.
14) **سفل:** يعني مكان موجود في الطابق الأرضي بعكس المعلق الذي يرتفع عن مستوى الأرض.
15) **سقاطة:** هي فتحات متجهة إلى أسفل لصب الزيوت المغلية والمقذوفات على الأعداء المهاجمين.
16) **الطارمة:** بناء مشرف في أعلى الحصن، على شكل القبة غالباً.
17) **طبلة:** ستارة من اللبن.
18) **عَضّادة (Jamb Post):** هي كتلة صماء من الحجر المنحوت، وغالباً تطلق على جانب أو كتف المدخل.
19) **عقد طولي:** ذو مقطع نصف دائري أو مدبب.
20) **عقد عاتق:** قوس توزيع العزوم.
21) **غاطس:** خاصة موجودة في بعض المرامي تحدث فيه ميلاً إلى الأسفل نحو الخارج.
22) **غلق انزلاقي:** حاجز من الحديد يغلق به أبواب الحصون وممراتها من الأعلى للأسفل.

23) **قبة منقوصة:** نصف قبة.

24) **قبوة (Vault):** عقد متكرر أفقياً لتغطية حجرة أو ممر طويل. وتتعدد أنواعه وأشكاله، مثل البرميلي (Bavrel)، أو متقاطع (Cross)، أو عقد انبوبي ضيق (Tunnel)، أو ازاج (Vaulted hall): وهي عبارة عن قاعة مغطاة بقبو ضحل.

25) **قوس مركّب أو مدبب:** قوس مؤلف من تلاقي قوسين.

26) **قوس مركب:** المدبب والمؤلف من قوسين متلاقيين.

27) **قولبة (Modeling):** عمل النماذج أو القوالب لصب مادة فيها تأخذ شكل النموذج. وهي في هذا البحث تعني: قوس مدبب ينتهي في الجانبين برأس ملتف حلزوني.

28) **مزاغل (Arrow Slit):** طاقات أو فتحات للمراقبة وإطلاق الرماح.

29) **معزبة:** قسم أو قطاع ضمن قاعة كبيرة.

30) **ممر دفاعي:** عنصر مكمل للبدنات والأبراج، مهمته تأمين الوصول الى المرامي المفتوحة في البدنات، والى طوابق الأبراج.

جدول رقم (1)

الجدول العام للكتابات المنقوشة على مباني القلعة مرتبة حسب التسلسل الزمني

الرقم	الموضوع	المكان	التاريخ والعصر	الملاحظات
1	تجديد برج	القلعة السلجوقية المهدومة	574 – صلاح الدين.	محفوظة في المتحف الوطني.
2	تشييد برج	البرج رقم (4)، الواجهة الجنوبية	605 – الملك العادل.	
3	تشييد برج	البرج رقم (3)، الواجهة الجنوبية	606 – الملك العادل.	
4	تشييد برج	البرج رقم (8)، الواجهة الشرقية	606 – الملك العادل.	
5	تشييد برج	البرج رقم (7)، الواجهة الشرقية	610 – الملك العادل.	
6	تشييد مكان	الواجهة الشمالية للقلعة	614 – الملك العادل.	مفقودة.
7	تشييد مكان	البوابة الشمالية، الباب الداخلي	– – الملك العادل.	
8	تجديد برج	البرج رقم (4)، الواجهة الجنوبية	659 – بيبرس.	
9	تعمير القلعة بعد تحريرها	البدنة (7-8)، الواجهة الخارجية	659 – بيبرس.	
10	تجديد برج	البرج رقم (7)،الواجهة الشرقية	673 – بيبرس.	
11	تجديد برج	البرج رقم (6)، الواجهة الشرقية	676 – بيبرس.	
12	نص	قطع مبعثرة في جدران البرجين (8 و9).	– – بيبرس.	
13	نص	قطع مبعثرة في البرج رقم (11).	– – بيبرس.	
14	تجديد برج	البرج رقم (4) الواجهة الجنوبية.	680 – قلاوون.	

15	عمارة الأقباء	الممر الدفاعي الغربي بجانب البرج رقم (9).	684 – قلاوون.	
16	عمارة الأقباء	على البرج رقم (9).	– – قلاوون.	
17	نص	الممر الدفاعي الجنوبي، الطابق العلوي إلى جوار البرج رقم (1).	– – قلاوون.	ناقصة.
18	تشييد مكان	في الممر الشرقي، خلف البدنة (7– 8)		غير مقروءة كلها.
19	عمارة البدنات	واجهة البدنة (6 – 7) الداخلية.	713 – الناصر محمد.	
20	مرسوم سلطاني	فوق باب القلعة الشرقي.	781 – المنصور علاء الدين علي.	
21	نص تاريخي	فوق باب القلعة الشرقي.	794 – الظاهر برقوق.	
22	ترميم القلعة	باب القلعة الشمالي.	809 – نوروز.	
23	نص	البدنة(11 – 12).	– نوروز.	
24	نص	باب القلعة الشرقي.	– –	غير مقروء
25	مرسوم سلطاني	باب القلعة الشرقي.	825 – الأشرف برسباي.	
26	تجديد برج	البرج رقم (7)، الواجهة الجنوبية.	866 – السلطان خشقدم.	
27	تجديد برج	الواجهة الجنوبية.	– – مملوكي	مقلوبة، فقد نصفها.
28	تجديد برج	البرج رقم (5)، الواجهة الجنوبية.	902 – السلطان محمد بن قايتباي.	
29	تجديد برج	البرج رقم (11)، الواجهة الشمالية.	914 – السلطان الغوري.	
30	تجديد برج	البرج رقم (8)،	915 –	

		الواجهة الشرقية.	الغوري.	
31	تجديد برج	البرج رقم (5)، الواجهة الشرقية.	919 – الغوري.	
32	شطر من كتابة	القاعة (أ) من القصر رقم (17).	– – مملوكي.	مفقودة.
33	نص	البدنة (1– 2)	– – مملوكي.	مشوهة، لم تنشر.
34	شطر من كتابة	البرج رقم (2)	– – مملوكي.	مبعثرة وناقصة ولم تنشر.

قائمة المخططات

قائمة اللوحات

قائمة الصور

قائمة الجداول

الملخص بالعربية

جاء البحث تحت عنوان " قلعة دمشق، دراسة معمارية، أثرية ميدانية "، وقد اشتمل على مقدمة وثلاثة فصول.

تضمنت المقدمة المراحل التاريخية التي مرت بها قلعة دمشق بدءاً من تأسيسها في الفترة السلجوقية، ومروراً بالفترات الأيوبية والمملوكية والعثمانية والفرنسية، وانتهاءاً بالفترة الحالية. وتضمنت تلك الفترات ملخصاً لوضعية القلعة وما طرأ عليها من تغييرات.

ثم استعرضت الدراسات السابقة التي شملت قلعة دمشق، والتي كان معظمها دراسات قديمة تناولت الحديث عن قلعة دمشق في فترة سابقة كانت القلعة مستخدمة بغير وظيفتها التي أسست من أجلها، وذلك في مرحلة ما قبل استلام مديرية الآثار لها وعمل الترميمات اللازمة لأقسامها. ومن الجدير بالذكر بأن مديرية الآثار السورية قامت بإجراء حفريات أثرية كشفت عن إجزاء هامة داخل القلعة، لا زالت قيد التحليل والدراسة.

وقامت الباحثة بوضع قائمة للمصطلحات المعمارية التي تسهل على القارئ فهم الأجزاء المعمارية في قلعة دمشق والتي يتطرق اليها البحث.

أما مضمون البحث، فقد اشتمل على ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: وقد اشتمل على دراسة لأوضاع قلعة دمشق في أربعة عهود تاريخية رئيسية مرت بها، وهي : السلجوقية، الأيوبية، المملوكية، والعثمانية. ومن الجدير بالذكر أن قلعة دمشق سميت في المراجع التي تحدثت عنها بحسب كل عهد مرت به، وكذلك اتبعت الباحثة نفس التسميات للقلعة لتمييزها في كل مرحلة من المراحل.

الفصل الثاني: تناول مبحثين رئيسيين، **أولهما:** دراسة معمارية لقلعة دمشق، تم من خلالها وضع وصف دقيق لمباني القلعة مع تحليل معماري وتاريخي لعناصرها التي شملت المنشآت الدفاعية ومبانيها ذات الصفة المدنية العامة والخاصة. **والمبحث الثاني:** قلعة دمشق وتطور فن العمارة العسكرية (دراسة لهندسة القلعة وعناصرها المعمارية والدفاعية بالمقارنة مع التحصينات المعاصرة).

الفصل الثالث: جاء بعنوان " أعمال الهدم والترميم والبناء في قلعة دمشق"، حيث تم الحديث فيه عن ثلاثة نقاط هي:

- أعمال الهدم والترميم والبناء لقلعة دمشق في العهد المملوكي.
- أعمال الهدم والبناء في العهد العثماني.
- المرحلة الأولى لترميم قلعة دمشق 1984-2006.

ABSTRACT

This study was about Castle of Damascus: Architectural and Archeological study including an introduction and three chapters.

The introduction was a historical overview of phases experienced by the Castle of Damascus since establishment during the Seljuke, Ayyoubid, Memluke, Ottoman and French periods until the current period. The historical period reviewed summarized the status of the Castle and changes occurred.

A literature review was made to prior studies concerned with the Castle of Damascus which were mostly old that studied the castle in previous period during which it was used for purposes other than those firstly intended by its foundation. This period preceded castle management and restorations by the Directorate of Archeology. Noteworthy, the Syrian Directorate of Archeology has initiated archeological excavations which revealed significant parts inside the castle which still under analysis and study.

The researcher developed archeological terms glossary that make it easy for a reader to understand architectural parts in the Castle of Damascus under study.

The research included three chapters:

Chapter One: studied the status of the Castle of Damascus through four major historical periods including the Seljuke, Ayyoubid, Memluke, and Ottoman. Notably, the relevant textbooks, the Castle of Damascus had specific designations appropriate to each period. The researcher, therefore, followed the same designations to differentiate phases from each other.

Chapter two addressed mainly two topics, the first was an architectural study on Castle Damascus that described in detail castle buildings

accompanied with architectural and historical analysis of its elements which included defensive constructions and buildings that had public and private civil character. The second topic was about Castle of Damascus and Development of Military Architecture (Engineering Study of the castle and its defensive and architectural elements in comparison with most recent strongholds).

Chapter three was entitled "Destruction, Restoration, and Building Works in Castle of Damascus" was focused on three points:

- Destruction, restoration, and rebuilding works in Castle of Damascus during the Memluke Period.
- Destruction and rebuilding works in the Ottoman Period.
- First phase of restoration in Castle of Damascus 1984-2006.

المقدمــــة

ما تزال قلعة دمشق قائمة داخل أسوار مدينة دمشق القديمة، محتفظة بالقسم الأعظـم من أسوارها وأبراجها، ولكن الأسواق المحيطة بها اليوم تحجب القلعة عن الأنظار، فلا تكاد تظهر منها إلا أجزاء يسيرة.

تقع القلعة في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة، وتحتل مساحة تقارب أربعة هكتارات.

وتعتبر من أهم المظاهر الحضارية لمدينة دمشق من الناحيتين التاريخية والمعمارية، لا يضاهيها في الأهمية سوى الجامع الأموي.

ولقد كانت طوال قرون عديدة، وخاصة في العهدين الأيوبي والمملوكي، حصن دمشق الحصين ومركز نشاطها السياسي والحربي، فلا يكاد يخلو حدث من أحداث تلك الحقبة مـن خبر عنها، وذكر لما يجري فيها وحولها من أعمـال تتـصل بـشؤون الحـرب والـسياسة والعمران، وغير ذلك من ألوان النشاطات اليومية.

لقد لعبت قلعة دمشق في الفترة الواقعة بين القـرنين الخـامس والعاشـر الهجـريين (الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين) دوراً هاماً ليس في تاريخ مدينة دمشق فحسب، بـل في تاريخ المنطقة العربية. شهدت أحداث الحروب الصليبية[1]، وغـزوات المغـول العديـدة، وعاش فيها سلاطين وحكام، بدءاً من ملوك الأتابكة السلجوقيين، ثم سلاطين الأيوبيين، وبعضاً من المماليك، تلاهم العثمانيين.

وتتحول القلعة بعد الإحتلال العثماني إلى ثكنة، تعتصم بها فـرق الجـيش العثمـاني المتنازعة، لتصبح القلعة بهم مصدر بلاء على المدينة وأهلها. ثم تفقد فـي نهايـة الحـرب العالمية الأولى قيمتها الحربية كليا. وتستخدم في ظل الإنتداب الفرنسي سجناً ومقراً لـبعض عناصر الشرطة. ويستمر حالها كذلك بعد الإستقلال حتى جاء مـشروع اوجـب إخلاءهـا وترميمها، وكشف بعض واجهاتها الخارجية، لإستخدامها في أغراض ثقافية وسياحية، وكذلك لإحلال المتحف الحربي فيها. وبذلك تكون القلعة قد خرجت من عزلتها لتتصل مـن جديـد بالعالم الخارجي وبالناس، لتقص عليهم من تاريخها وذكرياتها، وتمتعهم بأثار عمارتها وفنون تحصينها، كما هو حال القلاع الأخرى المنتشرة في أنحاء العالم.

لفتت قلعة دمشق نظر الباحثة بهندستها وفنون تحصينها وبأبنيتها الحجريـة المتقنـة النحت، والكتابات التاريخية المنقوشة في كل ناحية من أسوارها وأبراجها وأبوابها، التي تؤرخ أعمال البناء والأحداث الهامة. ووجدت في هذه القلعة أثراً من أهم الآثـار المعماريـة التـي خلفتها الحضارة العربية الإسلامية، بل نموذجاً كاملاً من منجزات فنون العمارة العسكرية في القرون الوسطى. فاستهوتها دراستها، وعكفت على مراجعة ما اسـتطاعت مـن المـصادر

[1] بدأت الحروب الصليبية في الشام باحتلال أنطاكية سنة 1098/491.

والمراجع، عربية وأجنبية، مطبوعة ومخطوطة، وجمعت إلى ذلك سلسلة من التحريات قامت بها على أرض القلعة نفسها. فلم تترك قسماً من أقسامها أو عنصراً من عناصرها إلا وحاولت معرفة وظيفته وتاريخه وخصائصه، على أمل التوفيق من الله عز وجل بتقديم دراسة متكاملة عنها.

أن القلعة التي نشاهدها اليوم، يعود الفضل في تشييدها إلى الملك العادل الأيوبي "محمد أبي بكر بن أيوب"، وإنه حين أقدم على بنائها قام بهدم قلعة قديمة كانت في مكانها، وهي القلعة التي ذاعت شهرتها في عهد أخيه صلاح الدين والسلطان نور الدين وكل ملوك الأتابكة من قبله. ولقد أكدت المصادر العربية على أن السلاجقة شيدوا قلعة في دمشق منذ بداية سيطرتهم عليها في 1076/469.

ولذلك فقد اضطرت الباحثة في هذه الدراسة إلى الحديث عن قلعتين لا قلعة واحدة. الأولى زالت وهدمت، والثانية ما تزال باقية. وقد تم تسمية القلعة الأولى اصطلاحاً "القلعة السلجوقية"، والثانية "القلعة الأيوبية"، وذلك نسبة الى بناة كل منهما، لا بالنسبة للعصر الذي عاشته.

لقد شيدت قلعة دمشق الأيوبية التي نشاهدها اليوم في فترة تطورت معها فنون العمارة العسكرية تطوّراً ملحوظاً، وبلغت أوجها من الرقي والمنعة، وكانت القلاع وقتئذٍ الملجأ والملاذ، يعول عليها إلى حد كبير في الدفاع وصد غزوات الأعداء وإفشال أهدافهم. كما كانت الركن الذي لا يستغنى عنه في توطيد حياة آمنة للشعب والحكام على السواء.

ولا يضاهي قلعة دمشق من حيث القوة والحصانة وإتقان البناء سوى تلك الحصون التي شيدها الفرنج في الشرق العربي. ويأتي في طليعتها "قلعة الحصن" و "قلعة المرقب" و"قلعة صهيون (صلاح الدين)". ولكن الإختلاف بين تلك القلاع وبين قلعة دمشق واضح في كثير من النواحي. فالقلاع العربية التي شيدها الأيوبيون كانت حصيلة الفنون العسكرية التي عرفها المسلمون، وما لقيته تلك الفنون من تطوّر في عهود الرومان والبيزنطيين والعرب المسلمين. بينما نجد القلاع التي شيدها الفرنج في بلاد الشام متأثرة بفنون العمارة العسكرية التي كانت سائدة وقتئذٍ في أوروبا، والتي استمدت أصولها من الفنون الرومانية والقوطية، إلا أنها تأثرت إلى حد كبير بالفنون المحلية السائدة في الشرق، ولا سيما تلك التي تخلفت عن البيزنطيين في سورية والأناضول *(KING, 1951, P. 93)*. وبينما نجد دراسات ومؤلفات عديدة عن القلاع الصليبية، فإننا لا نجد عن القلاع العربية دراسات كافية.

إن الأهمية البالغة التي تمتعت بها قلعة دمشق من النواحي التاريخية والمعمارية، وعدم كفاية الدراسات الموضوعة حولها، بالرغم مما تحويه تلك الأبحاث من فوائد وقيم علمية، كانت في طليعة الأسباب المحفزة للباحثة لإختيار قلعة دمشق موضوعاً للدراسة. ولقد بذلت الجهود في أن تكون هذه الدراسة متكاملة تشمل النواحي التاريخية والمعمارية والأثرية.

كما تم الإعتماد في الدراسة المعمارية للقلعة على مخططات حالية تم الحصول عليها من الدائرة الهندسية بقلعة دمشق، إضافة للمخططات المنشورة في أبحاث "سوفاجيه" و "كينغ" و "هانيش". وبذلت الجهود في محاولة استكمال النقص وتصحيح الأخطاء، وإضافة ما أمكن استكشافه من العناصر ضمن الحدود الضيقة المتاحة.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى بعض المعضلات التي واجهت هذه الدراسة وهي:

أولاً: عدم سماح مديرية الآثار للباحثة بتصوير المكتشفات الأثرية في قلعة دمشق التي تم العثور عليها بين عامي 1992 - 2006، وكذلك لم تسمح بإعطاء تفاصيل عنها سوى معلومات بسيطة، لكونها ما زالت قيد الدراسة والترميم.

ثانيا: لقد واجهت الباحثة لدى الحديث عن الوصف المعماري للعناصر المعمارية والزخرفية من فقر اللغة العربية في هذا النوع من المصطلحات. لذا فقد عمدت إلى إحياء ما عثرت عليه مستعملاً في المصادر العربية القديمة، أو إلى اخذ ما صلح في معاجم المصطلحات الفنية الموضوعة حديثاً، فإذا لم تف هذه وتلك بالغرض، فلم يكن أمامها سوى استعمال تعابير تقرب المعنى من الأذهان. وقد أحصت تلك المصطلحات في قائمة وضعتها ببداية هذه الدراسة للرجوع إليها عند اللزوم.

ثالثا: لم أستطع الحصول عل مخططات كافية لجميع أقسام القلعة، وخاصة البدنات بسبب عدم توفرها، لذا لجأت عند الحديث عنها إلى الإشارة للمخطط الرئيسي. كما أن بعض اللوحات والمخططات التوضيحية الخاصة بالموضوع والتي حصلت عليها لم تكن نسخ أصلية، لذا فإني أعتذر فيما لو كان فيها شيء من عدم الوضوح.

أهداف الدراسة

تتلخص مشكلة البحث في نقص الدراسات الأثرية لقلعة دمشق، حيث لم تحظى تلك القلعة بالدراسة الأثرية الواسعة وخصوصاً بعد قيام مديرية الآثار السورية بإجراء بعض الترميمات فيها في محاولة لإعادة القلعة إلى شكلها الأصلي بعد أن تعرضت لإضافات مستحدثة نتيجة الإستخدام المغاير للقلعة عن تلك الوظيفة التي أنشئت من أجلها، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث لتبين أهمية هذا المعلم الأثري والتاريخي في ضوء ما تبيّن من أجزاء معمارية وفنية تم الكشف عنها بعد اتمام المرحلة الأولى من إعادة تأهيل القلعة والتي امتدت في الفترة بين 1984-2006 .

كما تهدف هذه الدراسة إلى النقاط التالية:

1. مراجعة أثرية لقلعة دمشق، وخاصة بعد إتمام مرحلة هامة من مراحل إعادة تأهيل القلعة وهي المرحلة الأولى (1984-2006) وما نتج عنها من إعادة بلورة بنائية لتلك القلعة ساهمت في إعادتها كما كانت من خلال رسم وتنفيذ استراتيجية عامة مبرمجة لعملية إعادة تأهيلها.

2. دراسة أهمية قلعة دمشق الدفاعية وأهمية عناصرها المعمارية وأهمية موقعها في الدفاع عن مدينة دمشق خلال العصور التاريخية التي مرت بها القلعة منذ نشأتها.

3. دراسة عناصر القلعة الزخرفية.

4. دراسة مراحل تطوّر العناصر المعمارية والدفاعية لقلعة دمشق خلال مراحلها التاريخية وما جاءت به من عناصر جديدة على مبنى القلعة.

5. الحفريات الأثرية في قلعة دمشق وأهم نتائجها.

أهمية الدراسة

تحاول الباحثة من خلال هذه الدراسة، توثيق ولفت الإنتباه إلى قلعة دمشق كصرح حضاري هام لعب دوراً في تاريخ العرب القومي، وفي الصراع الطويل مع الطغيان والغزو والأطماع الخارجية، وعلى رأسها غزوات الصليبيين والمغول.

وتهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على دور القلعة الفعال في تقدم الحضارة العربية، ودعمها، وتشجيع الأعمال الفكرية والثقافية والفنية، يوم كانت القلعة دار ملك لسلاطين عظام بيدهم تصريف شؤون المنطقة العربية سياسياً، وعسكرياً، وحضارياً، من أمثال نور الدين، وصلاح الدين، والملك العادل أبي بكر، والظاهر بيبرس، وغيرهم.

كما تحتوي هذه الدراسة تفصيلاً لكل ما يتعلق بشؤون التاريخ والسياسة وشؤون الحرب والأسلحة في ذلك الوقت، وشؤون العمارة والفن، وما احاط بكل ذلك من أحداث. في فترة تعتبر من أهم فترات تاريخ العرب والمسلمين، على مدى تسعة قرون من الزمن.

الدراسات السابقة

قام عدد من الباحثين بإجراء دراسات لقلعة دمشق من النواحي التاريخية والمعمارية، منهم:

1. مساهمة الباحثين الألمانيين (كارل فولتنجر Karl Wulzunger) و(كارل فاتزنجر Carl Watzinger) ، والذين قاما بدراسة موسعة حول تحقيقات مباني مدينة دمشق القديمة، والنظام الهيدروليكي القديم فيهان وتسلسلها الزمني، إضافة لوصفهما المعماري لقلعة دمشق، مع تنظيم مخطط لها كما في الحالة التي تمكنا من مشاهدتها عليها في العام 1917م.

2. مساهمة الباحث (سوبرنهايم Sobernhiem) ، وهو مهندس نمساوي الجنسية عمل على تحقيق 28 نقشا في قلعة دمشق بالتعاون مع الباحثين (ماكس فان بيرشام Max Van Berchem) و(ارنست هيرتزفيلد Ernest Hertzfield) ، وقد نشرت دراسته هذه في العام 1922.

3. مساهمة الباحث الفرنسي (جان سوفاجيه Jean Sauvaget) الذي تعمق في دراسة جذور مدينة دمشق القديمة وبحث عن مخططها العمراني خلال الفترة الرومانية، وافترض وجود حصن يعود لتلك الفترة في مكان القلعة الحالية، كما تحدث عن قصر يقع في الزاوية الجنوبية الغربية لباحتها من خلال مشاهدته لقاعدتي عمودين في ذلك المكان. وقد أعطى عناية كبيرة للتحليل التخطيطي لمدينة دمشق والقلعة، كما تعمّق أيضاً في دراسة المنمنمات الزخرفية والنقشية وتقنيات العمارة العسكرية، وأنجز دراستين هامتين في هذا الإطار نشرتا في العامين 1930 و 1948م.

4. اهتم الباحث البريطاني (د. ج كاثكارت كينغ D.J. Cathcart King) أثناء دراسته لقلعة دمشق بنظامها الدفاعي المتطور وتحليل نتائج ما سبقه من أعمال الباحثين تعلقت بالتسلسل الزمني لبناء القلعة حيث حاول دراسة كل مبنى على حدى إضافة لدراسته السريعة لطاحونة المناخلية وربطها مع القلعة، وأنجز دراسته هذه في العام 1949م.

5. أنجز الباحث السوري د. عبد القادر الريحاوي دراسة لقلعة دمشق في إطار الإعداد لرسالة الدكتوراة في علم التاريخ حيث عالج مختلف مراحلها التاريخية والسياسية والعسكرية عبر العصور التي مرت بها القلعة.

6. توسع الباحث الأمريكي (بول ادوارد Paul Edward) في دراسة النقوش ونمط الكتابة فأضاف إلى النقوش المقروءة قرابة 22 نقشاً أو جزء من نقش، كما استفاد من دراسات أسلافه وحاول إعادة تصوّر القلعة في مراحلها المختلفة عقب الترميمات والتعديلات الأكثر أهمية خلال وجودها، كما قدّم شرحاً مفصلاً لمراحل عمارة القلعة بكافة عناصرها. وأنجز دراسته هذه في إطار الإعداد لنيل شهادة الدكتوراة في علوم الآثار للعام 1986م.

7. ساهم الباحث الألماني (هانس بيتر هانيش Hanspeter Hanich) بين عامي 1986-1991م بإعداد الدراسات التوثيقية المعمارية التفصيلية الخاصة بمباني قلعة دمشق بهدف تأهيلها وإحيائها والوصول إلى مقترح لتوظيف كافة فراغات القلعة، كما وضع مقترح لإعادة إنشاء القلعة السلجوقية، إضافة لذلك إهتم هانيش بدراسات المقارنة مع قلاع سورية مختلفة ومع قلعة القاهرة وبعلبك.

منهجية البحث

المسار الأول:
قام على جمع المصادر والمراجع الأجنبية والعربية، وكذلك الأبحاث والمقالات المنشورة في المجلات المتخصصة القديم منها والجديد، والرسائل الجامعية التي تعرضت لقلعة دمشق. إلى جانب مجموعة المخططات والخرائط القديمة التي توفرت للموضوع، سواء في مكتبة جامعة اليرموك، أو مكتبة جامعة دمشق، أو في مكتبة مديرية الآثار السورية.

المسار الثاني:
اعتمد أساساً على العمل الميداني من خلال عمل زيارات ميدانية لموقع قلعة دمشق، والإقتراب من الوضع الحالي لهذا النظام الدفاعي، ومحاولة مطابقة المعلومات التي تم جمعها عن ذلك المعلم الأثري الهام لتأكيدها وتدعيمها بالنتائج المكتشفة من خلال عمليات الترميم التي تقوم بها المديرية العامة للآثار السورية بالتعاون مع الحكومة الفرنسية الممثلة بالإيفبو (المركز الفرنسي لدراسات الشرق الأدنى)، وكذلك القيام بالتوثيق على آخر صورة معمارية لأجزاء القلعة كما هي عليه حالياً عن طريق التصوير والرفع الأثري والقياسات والإشارة الى مراحل عمليات الترميم التي تجرى للقلعة من أجل إعادة تأهيلها.

المسار الثالث:
تم في هذا المسار تحليل النتائج التي توصلت الباحثة لها وإثبات مدى قوة عناصر قلعة دمشق إبان الفترات التي كانت للقلعة فيها دور عظيم للدفاع عن مدينة دمشق، وكذلك إبراز أهمية العملية الترميمية التي تقوم بها مديرية الآثار السورية من أجل إعادة تلك القلعة الهامة كما كانت في أوجها في العصور الإسلامية السابقة.

الفصل الأول

قلعة دمشق في مراحلها التاريخية

المبحث الأول:
القلعة السلجوقية:

أ- الإطار التاريخي: تاريخ دمشق في عهد الأتابكة ونور الدين (969-1171م):

بدأ تاريخ القلعة السلجوقية مع بداية عهد جديد من عهود دمشق بكل ما كان لذلك العهد من مقوّمات سياسية ودينية وثقافية. فعندما دخل الأمير "اقسيس الخوارزمي" التركي الى دمشق واستولى على السُلطة فيها عام 969 انتهى العهد الفاطمي الذي دام زيادة على مائتي عام وبدأ حكم يرتبط بالسلاجقة، وساد في المنطقة المذهب السني وأصبح الولاء للخلافة العباسية في بغداد، فخطب على المنابر للإمام "المقتدى بالله العباسي" بدلاً من الإمام "المستنصر الفاطمي" *(ابن القلانسي، 1908، ص112)*. وفي عام 1078/471 قام الفاطميون بمحاولة لأخذ دمشق، فاستنجد اقسيس بأمير سلجوقي آخر هو "تتش بن آلب ارسلان" الذي لقب بعد ذلك بتاج الدولة، ولما دخل الأمير السلجوقي تتش دمشق قام بقتل الأقسيس واستولى على السُلطة في دمشق وحلب وجعل من دمشق مقراً لحكمه. وفي عام 1095/488 توفي تتش فخلفه في دمشق ابنه "شمس الملوك دقاق" الذي حكم في الفترة 488-497/ 1095-1103. بعد ان تولى السُلطة "تتش الثاني"واسمه "ظهير الدين طغتكين" جعل المُلك في أسرته التي عُرف أمراؤها بالأتابكة أو أتابكة السلاجقة وراثيا *(ريحاوي، 1996، ص27)*. وفيما يلي أسماء هؤلاء الأتابكة وفترات حكمهم:

1. ظهير الدين طغتكين 497-522 / 1094-1128.
2. تاج الملوك بورى بن طغتكين 522-526 / 1128-1131.
3. شمس الملوك اسماعيل بن بوري 526-529هـ / 1131-1134.
4. شهاب الدين محمود بن بورى 529-533هـ / 1134-1138.
5. جمال الدين محمد بن بورى 533-534هـ / 1138-1139.
6. مجيرالدين ابق بن محمد 534-549هـ / 1139-1154.

(ابن القلانسي، 1908، ص144-327)

اصبحت دمشق في عهد هؤلاء الأتابكة عاصمة دولة صغيرة تشتمل على مناطق دمشق وحوران وجبل الدروز وبعلبك وصور، وتمتد شرقاً الى الفرات وتقف شمالاً عند حماة *(المصدر السابق، ص139، 142،،150، 175، 188، 210)*.

أما علاقة الأتابكة مع جيرانهم لم يكن يسودها السلام والإستقرار، فكانت مهددة غالباً من حكّام الموصل وحلب من آل زنكي، وخاصة في عهد ملكي حلب "عماد الدين زنكي" وابنه "نور الدين محمود". وتحسنت العلاقات بين الدولتين أحياناً وأصبح بينهم مصاهرات وصلات عائلية. وكانت العلاقات تسوء بينهم أحياناً أخرى بسبب الميول التوسعية لملكي حلب المذكورين، مما دفع ملوك دمشق في بعض الأحيان للتحالف مع الفرنج من أجل ردهما والحفاظ على استقلالهم، كما حدث في عام 1113/534 حين احتل عماد الدين بعلبك، وقام بمحاصرة دمشق *(المصدر السابق، ص255)*.

اما علاقاتهم مع جيرانهم الفرنج، ملوك القدس والمنطقة المحتلة فكانت تتأرجح بين الحرب والسلم. وكان الفرنج كلما لمسوا ضعفاً من حكّام دمشق يقومون بالتوغل في الأراضي التابعة لمملكتهم، فيعتدون على القرى والمزارع في حوران والجولان، وينهبون الغلات والمواشي، لذلك أرسل الأتابكة من يردهم واشتبكوا بمعارك ضارية *(المصدر السابق،*

ص255). وتشجع الفرنج مرتين على محاولة احتلال دمشق، ففي المرة الأولى: حين أصبح ثغر بانياس المطل على بحيرة الحولة بأيديهم، وقد كان هذا الثغر حصن دمشق وخط دفاعها الأمامي، في عُهدة الباطنية أو الحشاشين. إلا أن زعيمهم اسماعيل الداعي سلمه للفرنج في عام 1127/522. ولم يمض عام حتى كان الفرنج يعسكرون على بضعة كيلومترات الى الجنوب من دمشق بقيادة "وليام دو بور Wiliam de Bort " أمير طبريا، فخرج عسكر دمشق وصدوهم واضطروهم للجلاء والعودة ***(Runciman, I,1952, P430, 456)***

اما المرة الثانية: فقد تعرّضت دمشق فعلاً لحصار خطير من قبل الحملة الصليبية الثانية. وحوصرت دمشق في عام 1148/543 من جموع يقودها "كونراد الثالث" ملك الألمان و "لويس السابع" ملك فرنسا وعدد آخر من ملوك المنطقة المحتلة، فعسكر بعضهم في داريا، وبعضهم الآخر تقدم الى المزة والربوة، فخرج الشجعان من أهل دمشق والجنود الأتراك يدفعوهم إلى داخل البساتين الكثيفة المحيطة بأسوار المدينة من الجنوب والشرق. وبعد خمسة أيام من الحصار وقع الخلاف بين الفرنج ببعضهم فقاموا بالإنسحاب *(العطار، ج1، 1947، ص19، 53)*. ويرجع المؤرخون الغربيون ذلك الى عدة أسباب: منها خبر وصول "نور الدين محمود بن زنكي" ملك حلب وأخيه "سيف الدين" ملك الموصل إلى حمص، ومنها أن "معين الدين انر" حاكم دمشق قدّم في ذلك الوقت أموالاً لملوك الفرنج المحليين لكي يتخلوا عن الحصار. ويرجح هؤلاء المؤرخون بأن معين الدين كان قد هدد بتسليم دمشق إلى نور الدين إن هم لم يفكوا عن الحصار. وفهم هؤلاء الملوك ما يعنيه هذا التهديد، وأدركوا الخطر الذي سيحدق بإماراتهم إذا ما امتدت سُلطة نور الدين الى دمشق. ذلك أنهم يفضلون ألف مرة البقاء مع جيرانهم حكّام دمشق الضعفاء المسالمين لهم على أن يحل محلهم حاكم قوي مناضل مثل نور الدين الذي أرهب الفرنج بشجاعته ومعاركه الدائمة معهم *(ريحاوي، 1996، ص29-30)*.

وأخذ الناس في دمشق منذ ذلك اليوم يتطلعون الى من سينقذهم من الخطر الصليبي الذي كان يهددهم دائماً. ويرون في نور الدين الزعيم الذي تهفوا اليه النفوس لما يتحلى به من معاني البطولة والعدل وحُسن السيرة والإخلاص للدين والوطن. وتصل إلى نور الدين دعوات من الوجهاء والقادة في دمشق للقدوم وضم دمشق إلى دولته، فيحاول ثم يتراجع خوفاً من تحالف حكّامها مع الفرنج من أجل حماية عرشهم، كما فعلوا في عهد والده عندما حاصر دمشق سنة 1139/534. بعد ذلك وجد نور الدين الفرصة سانحة أمامه في عام 1154/549 فدخل دمشق دون مقاومة. وكان هذا الحدث إيذاناً ببدء عهد جديد ليس لدمشق وحدها بل بالنسبة لمستقبل العالم العربي كله *(المصدر السابق، ص30-31)*.

انتهى بدخول نور الدين دمشق حُكم الأتابكة من أسرة ظهير الدين. وأصبحت دمشق جزءاً من دولة كبيرة، ضمت سورية الداخلية بكاملها. وتمكن نور الدين في عام 1168/564 من الإستيلاء على مصر، حين أرسل جيشاً لإنقاذها من الفرنج بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي. وبعد مضي ثلاث سنوات قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية نهائياً منتهزاً فرصة مرض الخليفة العاضد الذي توفي بعد أيام. وأصبحت مصر والشام دولة واحدة *(المصدر السابق، ص31)*. واشتدت المقاومة للإحتلال الصليبي، وغدت المعارك أكثر جدية وبدأت عمليات تحرير الأراضي المحتلة حصناً بعد حصن ومدينة بعد أخرى. وتوفي نور الدين في قلعة دمشق عام 1173/569. وواصل صلاح الدين تحقيق وحدة الشرق العربي الإسلامي، وتحرير الأراضي المحتلة *(العطار، ج1، 1947، ص197)*.

بعد وفاة نور الدين بويع ابنه الملك الصالح اسماعيل وكان صغيراً، وكان صلاح الدين في ذلك الوقت يحكم مصر كوزير لنور الدين، إلا أن اوصياء الملك الصغير أساؤوا التصرف وأفسدوا العلاقات بين دمشق والقاهرة، مما حفز كبار الأمراء في دمشق لدعوة صلاح الدين لتولي السُلطة، فدخل صلاح الدين دمشق بعد عام واحد من وفاة نور الدين، ومع هذا الحدث التاريخي بدأ قيام دولة الأيوبيين في الشام ومصر التي حظيت بالعزة والمجد والإزدهار، وأعيد اليها مكانتها المفقودة منذ انتهاء العصر الأموي ***(ريحاوي، 1996، ص31-32)***.

ب- بناء القلعة السلجوقية:

تاريخ بناء القلعة:

أظهرت الدراسات التي جرت خلال الحرب العالمية الأولى وجود بقايا أقدم داخل قلعة الملك العادل الأيوبية التي ترجع للقرن الثالث عشر، وتألفت هذه البقايا من أجزاء برجين خلف البرج (5)، وبرج زاوية داخل البرج (7)، وبرج خلف البرج (8)، وأجزاء أخرى من الجدران. كما تم العثور على أساسات تعود إلى القلعة الأقدم أمام البرج (12) وهي مؤلفة من ثلاثة صفوف من الحجر إثنان منها يعودان لجدار واحد بينهما حشوة من الدبش ***(عمران ودبورة، 1998، ص7)***.

يعتقد باحثون كثر بأن هذه البقايا الأقدم تعود لحصن بيزنطي من عهد ديوقلسيان. لقد بنى هؤلاء الباحثون نظريتهم هذه على أساس أن مقاييس الأحجار المستعملة وطريقة نحتها والعناصر الزخرفية الموجودة على بعض الأحجار تعود كلها إلى العصر البيزنطي، وهكذا اقترح الباحثون نظرية تفيد بأن هذه البقايا المعمارية هي بقايا حصن مربع له برج في كل زاوية وبوابة في منتصف كل ضلع، تم توسيع هذا الحصن خلال الفترة البيزنطية والإسلامية المبكرة باتجاه الغرب، كما تم تغيير موقعي البوابتين الواقعتين شمالاً وجنوباً لتعود مرة أخرى في منتصف الضلع.

لا يوجد أي نص تاريخي يدعم هذه الفرضية، فالذكر الوحيد لكلمة حصن ورد أثناء بناء دمشق في فترة الإسكندر، وعرف بإسم "حصن جيرون". ربما كان المقصود بذلك بناء قديم من الفترات الكلاسيكية ***(المصدر السابق، ص8-9)***.

أما بالنسبة للمصادر العربية العديدة فإن خبر بناء القلعة بشكل واضح قد ذكره بعض المؤرخين المتأخرين أمثال ابن شداد في القرن السابع الهجري، وابن كثير في القرن الثامن. أما المؤرخون الأقدم عهداً ممن عاصروا القلعة السلجوقية كابن القلانسي وابن عساكر وابن الأثير، فمنهم من أهمل موضوع بناء القلعة ولم يشر اليه بشيء، ومنهم من أشار اليه بإيجاز كما فعل ابن عساكر عند حديثه عن أبواب دمشق حيث نقل عنه صلاح المنجد قوله عن القلعة: " أحدثت في غربي البلد في دولة الأتراك" ***(المنجد، م 2 ،1954، ص186)***.

وفي ذلك ينقل لنا سامي الدهان عن ابن شداد قوله: " ولم يبق بدمشق دار إمارة الى أن ملكها تاج الدولة تتش سنة احدى وسبعين وأربعمائة (1078م)، فبنى بها قلعة لطيفة جعلها دار إمارة وسكنها... ***(الدهان، ج2، 1956، ص38)***".

ويقول ابن كثير في حوادث عام 469/1076: " وفيها كان ابتداء عمارة قلعة دمشق وذلك أن الملك المعظم اتسز بن اوق الخوارزمي لما انتزع دمشق من العبيديين[2] في السنة

[2] العبيديون هم الفاطميون سموا بذلك نسبة الى مؤسس دولتهم عبيدالله.

الماضية، أسرع في بناء الحصن المنيع بدمشق في هذه السنة، وكان في مكـان القلعـة أحـد أبواب البلد يُعرف بباب الحديد، وهو الباب المقابل لدار رضوان فيها اليوم، داخـل البركـة البرانية منها، وقد ارتفع بعض أبرجتها فلم يتكامل حتى انتزع ملك البلد منه الملك المظفر تاج الملوك تتش بن الب ارسلان السلجوقي، فأكملها وأحسن عمارتها وابتنى بهـا دار رضـوان للملك[3] واستمرت على ذلك البناء في أيام الملك نورالدين بن زنكي ... ***(ابـن كثيـر، ج 12، 1932، ص114)***".

نلاحظ عدم وجود اختلاف كبير بين النصين المتقدمين، ومن هنا نستنتج بـأن بنـاء القلعة اكتمل على يد الأمير السلجوقي "تتش" وهو أول من أقام بها واتخذها دار إمارة، بينمـا كان الأمير "أتسز الخوارزمي" هو أول من وضع المشروع وباشر ببناء بعض الأبراج في عام 1076/469، ولكنه قتل بعد عامين وقبل أن يكتمل بناء أي من تلك الأبراج.

وتعطينا تلك النصوص التاريخية العربية فكرة عن بنية المجتمع الإسلامي فـي تلـك الفترة السلجوقية وعن تاريخ قلعة دمشق، كما تدل على عدم وجود أي قلعة قبل القرن العاشر الميلادي، إذ لم يرد أي ذكر للقلعة منذ دخول العرب إلى دمشق وحتى بناء القلعة الـسلجوقية عام1078م. ولو كانت قد وجدت قلعة في هذا المكان، فلا شك أن أياً من المؤرخين المقيمين في المدينة كان سيذكرها. كما تفيد جميع النصوص التاريخية في وصف القلعة بأنهـا كانـت بناءاً جديداً ولم تكن إعادة لبناء ولا توسعاً.

وقد جرت دراسة على مواد البناء الكلاسيكية التي استخدمت في بناء القلعة، فظهـر بانه قد أعيد استعمالها بدليل وجود قطع من الأعمدة داخل الجدران موضوعة بـشكل أفقـي، وقطع من الزخارف في غير مكانها، مما يدل على أن السلاجقة قد استخدموا قطعاً حجريـة دخيلة أثناء عمارة القلعة ربما أحضروها من أطلال بناء كلاسيكي قديم، كما أن القرب الشديد بين برجين شماليين في القلعة يدل على أنهما كانا برجين لبوابة "باب الحديـد" وهـي بوّابـة المدينة القديمة ***(عمران ودبورة، 1998، ص9- 10)***.

ومرت قلعة دمشق خلال بنائها بعدة مراحل، إذ تم بناء التحصينات والأجزاء الدفاعية أولا، ثم تمت تهيئتها للسكن ببناء الدور السكنية والمباني الحكومية والدينية كمقـر الحـاكم، والجامع والحمّام والمكاتب الإدارية والخزينة والسجن المؤقت. ويخبرنا الباحثون بأن أتسز بن أوق بدأ ببناء القلعة، لكن أعمال البناء استكملت بعده، إذ أقيمت بعض الأبراج في حياته ثـم أكمل تتش بناء القلعة. وتم خلال حُكم تاج الدولة تتش بناء أهم بنيـة سـكنية داخـل القلعـة والمعروفة بدار الرضوان، وكانت تقع مقابل البوّابة الشمالية للقلعة "باب الحديـد" حيـث تـم توزيع غرفها حول فسحة مكشوفة واسعة، احتوت إيوانين: شـمالي وجنـوبي، وفـي عـام 1129/523 تم بناء قبة الورد كجزء من المسكن الملكي ***(المصدر السابق، ص10-11)***.

وقد ساهمت الحملات التي هددت دمشق في إضافة المزيد من المباني على القلعة، وقد تم تجهيزها بترسانة كبيرة لتصنيع الأسلحة وتخزينها، فأصبحت بذلك إحدى أكبر الترسـانات في سورية إذ تم تجميع الأسلحة فيها لتوزيعها على التحصينات الدفاعية في المدينة ***(المصدر السابق، ص11، 12)***.

---

[3] لعل الصحيح هو: (دار للملك رضوان)، ورضوان هو احد أولاد تاج الملوك تتش.

وفي عام 1150/545، تقدّم نور الدين بن زنكي باتجاه دمشق، لكن الأمطار الغزيرة منعته من حصارها، فعاد اليها في الربيع التالي، إلا أنه أجبر على التراجع من جديد بسبب تقدّم جيش صليبي.

وفي عام 1154/549، تحقق حلم نور الدين بن زنكي بدخول دمشق عندما سمحت المدينة لقواته بدخولها، لكن حاكم المدينة السلجوقي مجير الدين تحصّن داخل القلعة مع ضباطه ولم يسلمها إلا بعد أن حصل على الأمان على حياته وممتلكاته.

أقام نور الدين في دمشق، وجعل قلعتها مقراً له، فأصبحت دمشق للمرة الأولى منذ نهاية الفترة الأموية عاصمة لدول إسلامية مترامية الأطراف، وقد انعكس ازدهارها خلال العشرين سنة التالية في فترة حكم نور الدين في زيادة مشاريع العمران،فحصّن نور الدين سور المدينة بجدار مدعم بالأبراج المتقاربة وخندقاً محمياً بسور.

أنشأ نور الدين في القلعة داراً وحمّاماً ومسجداً ومدرسة عُرفت بالنورية الصغرى، ومن الجائز أن تكون الدار هي دار الرضوان أو دار المسرة وأنه قام بترميمها وتحسينها فقط ***(المصدر السابق، ص13).***

بعد زلزال عام 1170/565، انتابت الهواجس نور الدين بخصوص المباني المشيدة بالحجر، فبنى منزلاً صغيراً من الخشب مقابل داره كان ينام فيه وينسحب اليه للصلاة. ومات نور الدين في منزله الخشبي عام 569/ 15 أيار 1173، ودفن فيه قبل أن ينقل جثمانه الى مدرسته النورية الكبرى داخل المدينة ***(المصدر السابق، ص14).***

موقع القلعة وحدودها:

احتلت القلعة الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة، من الممكن أن يكون السبب في هذا الإختيار هو الإعتماد على أسوار المدينة القديمة في الجهتين الغربية والشمالية، وبذلك يمكن الإكتفاء ببناء سورين آخرين لها في الجهتين الشرقية والجنوبية لعزلها عن المدينة كلياً. فقد شاهدها الرحّالة ابن جبير قبل هدمها ووصف لنا وضعها، حيث نقل لنا حسين نصار عن ابن جبير قوله: " ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد، وهي بإزاء باب الفرَج، وعلى مقربة منها خارج البلد في جهة الغرب ميدانان والنهر بينهما ***(نصار، 1955، ص277)***". ونستنتج بحسب قوله بالنسبة لباب الفرَج بأنه ليس من الضروري أن حدود القلعة الشرقية كانت تمتد إلى حدود الباب الذي يتصل بالقلعة ولا يفصله عنها سوى الطاحونة الحصينة.

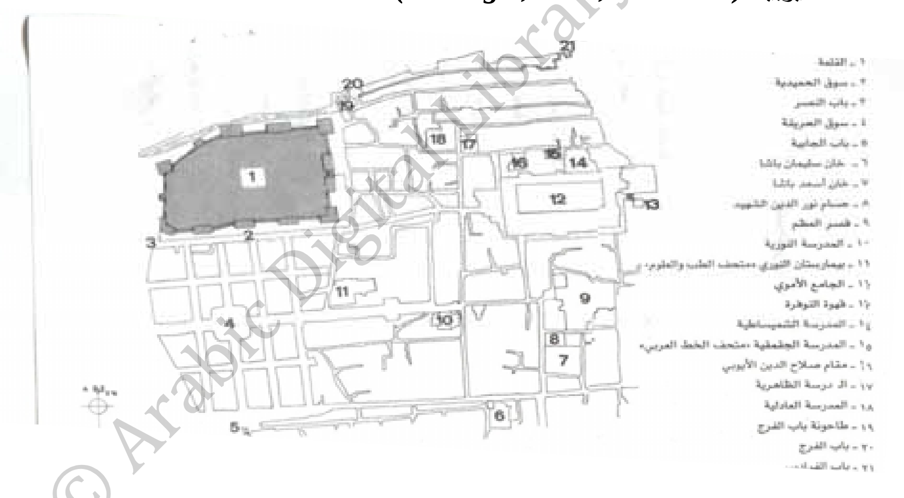
وباب الفرَج لم يكن موجوداً وقت بناء القلعة السلجوقية، حيث بناه نور الدين فيما بعد. ومن الجائز أن القلعة السلجوقية كانت أقل امتداداً من جهة الشرق من القلعة الحالية. حيث يقول المنجد بأن ابن عساكر ذكر من خلال حديثه عن باب الفرَج بأن باباً قد بني وقت بناء القلعة في سور المدينة، وعُرف بباب العمارة، كما ذكر بأنه تم إغلاقه ***(المنجد، م2، 1954، ص186)***. إلا أن أثره موجود في السور.

وقد نقل أبو البقاء هذا الخبر عن ابن عساكر فقال:" ولما جدد الملك العادل أبو بكر بن أيوب القلعة أذهب باب العمارة" *(أبو البقاء، 1341، ص26)*.

ومن هنا نستنتج بأن باب العمارة كان يوجد في السور بين القلعة السلجوقية وبين باب الفرَج. وأن القلعة الأيوبية امتدت نحو الشرق فشملت باب العمارة، لذلك تم إغلاقة، وبالتالي فالقلعة السلجوقية كانت أقل امتداداً في هذه الجهة من القلعة الأيوبية التي حلت محلها فيما بعد.

اما حدود القلعة في باقي الجهات، فلم يوجد أي نص أو دليل يوضح لنا حدودها، من المرجح بأنها كانت ملاصقة بسور المدينة من الجهتين الشمالية والغربية. ولو نأخذ بعين الإعتبار عناصر التحصينات للقلعة الأيوبية والباقي آثارها داخل زاويتها الشمالية الشرقية، فتلك العناصر يمكن أن تعطي الحدود الحقيقية للقلعة السلجوقية في الجهتين الشرقية والشمالية.

وقد عيّن "سوفاجيه" في مخططه العناصر المتبقية لتلك التحصينات القديمة التي تتألف من برج مستطيل صغير في الزاوية الشمالية الشرقية، يتصل به من جهتيه بدنتين: بدنة شمالية تنتهي بباب يحف به برجان مربعان صغيران، وبدنة شرقية تنتهي بباب مشابه. ويُقال أن هذين البابين كانا يتوسطان واجهتي القلعة كما كان مألوف في الحصون الرومانية. وإذا درسنا حدود تلك التحصينات، نلاحظ بأنها أقل امتداداً في هاتين الجهتين بحوالي متر واحد عن حدود القلعة الأيوبية ***(Sauvaget, 1930, P.18 – 21)***.



مخطط رقم (1):موقع القلعة من مدينة دمشق القديمة – نقلاً عن عمران ودبورة–

خندق القلعة:

يدل على وجود ذلك الخندق الذي كان يحيط بالقلعة من جميع الجهات خبر توسعة الخندق الشرقي في زمن الملك العادل الأيوبي في فترة بناء القلعة الأيوبية بوجود عبارة " باب جسر الخندق الشرقي" التي ذكرها ابن القلانسي أثناء حديثه عن الأعمال التي قام بها في القلعة شمس الملوك اسماعيل عام 1132/527 ***(ابن القلانسي، 1908، ص27)***.

ويعود المؤلف فيؤكد لنا بأن القلعة السلجوقية كانت محصّنة بخندق في الخبر الذي يذكره بنفس المرجع عن مقتل الوزير حيدرة رئيس دمشق الذي ضرب عنقه في عام 1153/548 في حمّام القلعة، ومن ثم نصب على حافة الخندق ***(المصدر السابق،ص239)***.

مياه القلعة:

يدخل إلى القلعة نهر بانياس، وهو فرع من بردى، قرب بابها الغربي، ويتفرّع إلى فرعين: الأول يتجه نحو الجنوب ويخرج من تحت سورها الجنوبي، وبذلك يملآن الخندق من جهاته الغربية والجنوبية الشرقية بالمياه، ويوزعان الماء على الحمّامات والدور والمساجد والبرك. وهناك النهر المجدول " العقرباني" الذي يحد القلعة من الشمال، حيث يملأ خندق القلعة الشمالي ثم يدير طاحونة القلعة. وكانت تلك الأنهار تعتبر المصدر الرئيسي لتزويد القلعة بالمياه، بالإضافة إلى مجموعة آبار داخلها يلجأ إليها عند انقطاع مياه بردى بسبب الحصار أو لأسباب أخرى، وبقيت هذه الآبار إلى العهد الأيوبي ***(عمران ودبورة، 1998، ص28-30)***.

هذا التوزيع للمياه سواء كان خاص بالقلعة السلجوقية أم بالقلعة الأيوبية، كان لتحقيق غرضين: تزويد القلعة بالماء النظيف من جهة، وتحصين القلعة بملئ خندقها بالماء من جهة أخرى. فدخول مياه بانياس إلى القلعة وتفرعها إلى فرعين أحدهما يتجه إلى الجنوب والآخر إلى الشرق، كان يهدف إلى ملئ الخندق في جهاته الغربية والجنوبية والشرقية، بينما كان النهر المجدول أو العقرباني المار بمحاذاة السور الشمالي يؤلف حاجزاً طبيعياً في هذه الجهة ***(المصدر السابق، ص31)***.

أبواب القلعة وأسوارها:

للقلعة السلجوقية ثلاثة أبواب هي:

- باب الحديد وهو أشهرها، وكان أحد أبواب سور المدينة من الناحية الشمالية الغربية، وله جسر فوق نهر بردى.
- باب الخندق الشرقي، وهو الباب الرئيسي المفتوح على المدينة، ويقع عند سوق العصرونية[4]. وكان لهذا الباب جسر متحرّك من الخشب يمكن رفعه عند اللزوم.
- باب السر الغربي، ويقع عند جادة السنجقدار، كان يُستخدم لدخول السلاطين والولاة والأمراء وخروجهم.
- أما سور القلعة السلجوقية فقد كان على شكل مستطيل يتوسط أضلاعه أبواب، وفي زواياه الأربع أبراج مربعة كالبرج الباقي في الزاوية الشمالية الشرقية داخل القلعة الحالية، وكانت هذه الأبراج أصغر حجماً من الأبراج الأيوبية، ولم تكن صالحة للسكن على عكس الأيوبية، بل بنيت دور للسكن داخل القلعة.

(المصدر السابق، ص20-23).

المباني العامة والخاصة في القلعة السلجوقية:

يوجد معلومات في بعض المصادر التاريخية تتعلق بدور وحمّامات ومساجد كانت موجودة في القلعة السلجوقية، يمكن تلخيصها كما يلي:

- **دار الرضوان:** وتقع مقابل باب القلعة الشمالي، بناها تتش بن ألب أرسلان لإبنه رضوان، الذي عاش في دمشق وأصبح ملكاً على حلب بعد وفاة أبيه سنة 488هـ. وقد جددها الناصر صلاح الدين الثاني الذي حكم دمشق سنة 648/1250 ***(ابن كثير، ج12، 1932، ص160)***.

---

[4] تم هدم هذا الباب في عام 1984م لكشف ما خفي من سور القلعة وأبراجها.

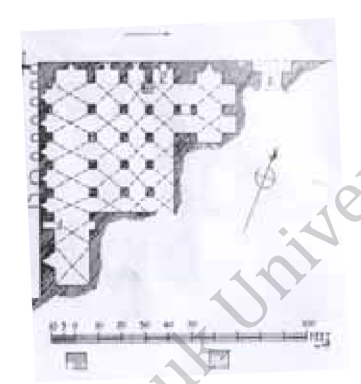
- **دار المسرّة:** أنشأها شمس الملوك إسماعيل عام 1132/527، ويذكر ابـن شـدّاد أن الذي بناها هو نور الدين زنكي، وربما يقصد أنه جددها ورممها في أعقـاب زلـزال عام 1169/565 بعد أن ألحق الزلزال أضراراً بالقلعة، والذي ذكره ابن كثيـر فـي حديثه عن حوادث ذلك العام حيث قال: " حدث زلزال عظيم في الشام وسقطت أسوار دمشق وأكثر قلعتها فجدد نور الدين عمارة أكثر ما وقع ***(المصدر السابق، ص161)***".

- **بيت نور الدين:** وقد بناه من الخشب بجانب داره سنة حدوث الزلزال على دمشق عام 1170/565 ليأمن على نفسه في حال تجدد الزلزال، وكان يبيت ويتعبد فيـه حتـى توفي به ***(العطار، ج2، 1947م، ص211)***.

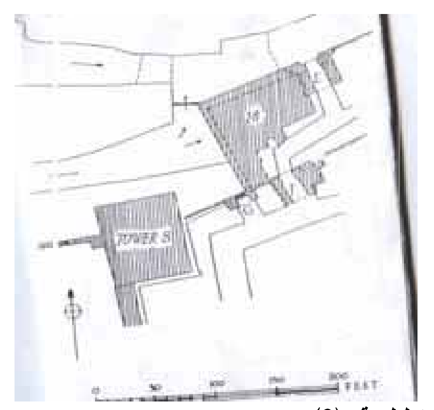
- **الحمّامات:** يذكر المؤرخون في مؤلفاتهم ومنهم ابن القلانسي وجـود حمّـام شـمس الملوك في شمالي القلعة والذي بنـاه عـام 1133/528 ***(ابـن القلانـسي، 1908، ص239)***. وذكره أيضاً ابن عساكر من خلال حديثه عن حمّامـات دمـشق ***(ابـن عساكر، م2، 1954، ص162)***.

- **المساجد:** وأهمها مسجد كبير بناه نور الدين، سمي جامع السلطان، وكانت تقام فيـه صلاة الجمعة، وبنيت به منارة وبركة ماء، وكان يوجد على بابه سبيل ماء. ويـذكر ابن عساكر مساجد أخرى صغيرة في القلعة ، فيقول: "مسجد في الدركاه لطيف سفل إنشاء نور الدين، ومسجد داخل باب القلعة معلق تحت سقاية، ومسجد آخر قبلي القلعة يدعى مسجد الضحاك بن قيس ***(المصدر السابق، ص78)***".

- **طاحونة القلعة:** تحدث عنها ابن عساكر حين كتب عن دار حبيب بن مسلمة الواقعـة على نهر بردى بأنها عند " طاحونة الثقفيين" ***(المصدر السابق، ص140)***، ويعني بها طاحونة القلعة. وكلمة الثقفيين هي اسم لمكان يُعرف بحصن الثقفيين أو قصر الثقفيين، كانت معروفة قبل بناء القلعة، وتمتد داخل باب الفرَج بجانب القلعة. ولا تزال بقايـا تلك الطاحونة ظاهرة في الجهة الشمالية الشرقية من القلعة خارج السور ***(ريحـاوي، 1972، ص36)***.



مخطط رقم (2):
طاحونة باب الفرج(نقلا عن كينغ)



مخطط رقم (3):
موقع طاحونة باب الفرج من قلعة دمشق (نقلا عن كينغ)

الدور السياسي والإجتماعي الذي لعبته القلعة السلجوقية:

أعطت المرحلة التاريخية السلجوقية دوراً هاماً ليس فقط لدمشق وحدها بل لمنطقة الشرق العربي الإسلامي عامة. ولم يكن دور القلعة السلجوقية يقل شأناً عن دور القلعة الأيوبية التي تلتها. فقد كانت قلعة دمشق مقراً لسلطانين عظيمين هما نور الدين وصلاح الدين، فوجد في داخلها كل نشاط سياسي وعسكري واجتماعي ليس في عهدهما فقط بل في عهد كل الملوك والأمراء من سلاجقة وأتابكة. كما حفلت تلك القلعة بأعظم صراع دار بين الشرق والغرب، وعرفت أشد المعارك في الحروب الصليبية، وعرفت حركة توحيد للعالم العربي والدفاع عنه وتهيئة طاقاته لمعارك التحرير وبناء النهضة ***(المصدر السابق، ص39-47)***.

وتعتبر قلعة دمشق في ذلك الوقت مركزاً لكل تلك الحركات والنشاطات المختلفة، فمن داخلها كانت تصدر الأوامر ويخطط للمشاريع العمرانية والثقافية وكذلك الحربية ***(المصدر السابق، ص47)***.

يُجمع المؤرخون بأن بناء قلعة دمشق كان لهدفين هما:

1. أن تكون دار إمارة، أي مقراً للحكم والحكّام. فهنالك فرق بين ظروف حكّام دمشق في العهدين العباسي والفاطمي من حيث أنهم حُكّام قادمين من بغداد والقاهرة تابعين في أمرهم لخلفاء في تلك العاصمتين، فكان أهل دمشق يعتبرونهم غرباء ومؤقتين، وينتظرون قدوم الوقت للخلاص والتحرر منهم، وبين حُكّام دمشق بعد ذلك في عهد السلاجقة والأتابكة مثل نور الدين وصلاح الدين. ومن ملاحظة الإختلاف في الظروف بين الحُكّام في المرحلتين، يتبيّن السبب في وجود قصر الولاة أو دار الإمارة في عهد الحُكّام الفاطميين والعباسيين خارج المدينة، بينما نجد حُكّام الأتابكة والسلاجقة يقيمون مقرّاتهم داخل مدينة دمشق كما كان من قبلهم خلفاء بني أمية[5]. فيظهر قصر الحاكم في الفترة السلجوقية على هيئة قلعة حصينة داخل مدينة دمشق وكان حُكام دمشق في هذه الفترة دائمي الإقامة بدمشق، يتولون فيها الحُكم مدى الحياة

[5] كان بنو أمية يقيمون في "الخضراء" قصر معاوية الواقع إلى الجنوب من الجامع الأموي.

ويتوارثونه، مما يتطلب أن يكونوا على صلة وثيقة بالشعب وأن يعيشوا بينــه. لــذا نلاحظ عدم وجود ثورات ضد الحُكم في هذه الفترة كما كان في الفتــرتين العباســية والفاطمية. ومن الطبيعي أن يُبنى في القلعة كمقر للحاكم عدد من المنشآت والمبــاني العامة والخاصة، كالحمّام والمسجد والمدرسة وقاعة الإجتماعات والدوواوين ومخازن السلاح ودور الأمراء ودار الضيافة ومساكن الحاشية والحرس.

2. اتخاذ بناء القلعة حصناً ومعتقلاً، ويتضح لنا هذا الدور من خلال الدور الحربي الذي لعبته القلعة السلجوقية.

وفيما يلي أبرز النشاطات السياسية والأحداث التي عرفتها القلعة السلجوقية منــذ تــاريخ بنائها في سنة 1076/469 إلى أن هُدمت أجزاؤها الدفاعية فــي عــام 1210/607. وهــي تتلخص كالآتي:

1. كان أوّل من سكن القلعة من الملوك والسلاطين، تاج الدولة "تتش" ثــم ابنــه شــمس الملوك "دقاق"، ثم سائر من حكم دمشق من الأتابكة والملوك. وكان يقيم مع هــؤلاء الحكّام عائلاتهم وخدمهم وحواشيهم ***(عمران ودبورة، 1998، ص28)***.
2. هيأ في القلعة شمس الملوك "دقاق" قاعة يوضع فيها كرسي العرش أطلق عليه اســم "التخت" و "الدست" وهما كلمتان فارسيتان. وقد ذكر هذا "التخت" "والدست" أو العرش ابن القلانسي عندما تكلم عن حوادث عام 1213/507 فقال: " قصد ملك حلب آلــب أرسلان (حفيد تتش) دمشق فاستقبله الأتابك ظهير الدين وأدخله إلى قلعــة الــسلطان وأجلسه في دست عمه شمس الملوك "دقاق"، وقام هو والخواص في خدمتــه" ***(ابــن القلانسي، 1908، ص190)***. وهنالك من المؤرخين من ينسب هذا الدست إلى تــاج الدولة تتش فيقول أبو شامة:" ولما توفي نور الدين أخرجوا ولــده الملــك الــصالح اسماعيل ولما لم يبلغ الحلم، وأجلسوه في الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولــة تتش ***(العطار، 1947، ص230)***".
3. كانت القلعة منذ نشأتها تشهد اجتماعات رسمية للأمور الهامة، وكانت تعقد في "قبــة الورد" الشهيرة، يحضرها القادة والأمراء والأعيان من العرب والأتراك. وكان يجري فيها حفل تقليد الوزارة، وصف هذا الحفل ابن القلانسي حيث قال: " فكــان الــوزير يُستدعى من داره إلى القلعة لتشريفه بالخلع الثمينة ويعود منها بالمواكــب الحافلــة " ***(ابن القلانسي، 1908، ص223)***.
4. كان يُعتقل السياسيون والشخصيات الخطيرة في قلعة دمشق. منهم الميــر مجاهــد الدين "بزان" صاحب قلعة صرخد، وهو من الشخصيات الهامة في عهد الأتابكة ونور الدين، توفي سنة 1160/555، وله مدرستان تنسبان اليه ***(العطار، 1947، ص223، 226، 227)***. كذلك اعتقل فيها الوزير هبة الله الأصفهاني في عام 1108/502 مــن قبل الأتابك ظهير الدين ***(ابن القلانسي، 1908، ص163)***. كما كانت تنفذ في القلعــة أحكام الإعدام بالمعتقلين والشخصيات السياسية. كما كان صلاح الدين يعتقــل فيهــا أسرى الفرنج من الملوك والفرسان ***(ابن كثير، ج12، 1932، ص302)***.
5. حفلت القلعة في أيام نور الدين بنشاط ديني ملموس. فبنى فيها جامعا كبيرا، وجعل فيها مدرسة ***(ابن القلانسي، 1908، ص268)***. ونقلت العطار عن أبي شامة حديثــه عن النشاط الديني والثقافي في أيام نور الدين حيث قال:" واظب نور الدين على عقد مجالس الوعّاظ ونصب الكراسي لهم في القلعة للإنذار والإتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب

الدين النيسابوري" *(العطار، 1947، ص1-11)*. كما بدأت في عهد نور الدين عادة ضرب الطبل وقت الفجر وذلك لإيقاظ النيام للصلاة *(ابن كثير، ج12، 1932، ص279)*. وفي عهد الملك الفضل ابن صلاح الدين كان يُعقد في القلعة مجالس مناظرة بين الفقهاء بحضور نائب القلعة *(المصدر السابق، ج13 ،1932، ص71)*.

وهكذا نلاحظ بأن قلعة دمشق كانت تستقطب مختلف النشاطات، وشكلت في عهد نور الدين دار مملكة متكاملة. فقد عبّر ابن القلانسي عنها حين تحدّث عن أهمية القلعة في عهد نور الدين فقال: " وأمر مع ذلك بزينة قلعته ودار مملكته بحيث حلّى أسوارها بالآلات الحربية من الجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق الإفرنجية والقنطاريات والأعلام والمنجنيقات والطبور والبوقات وأنواع الملاهي المختلفة مدة سبعة أيام" *(ابن القلانسي، 1908، ص338)*.

المبحث الثاني:
القلعة الأيوبية:

أ- الإطار التاريخي (تاريخ القلعة منذ بنائها وحتى نهاية العهد الأيوبي 567-649هـ / 1171- 1250م):

بعد مضي شهرين على موت نور الدين، مات أماالريك القائد الصليبي المعروف بإسم "مري"، وأدت هاتان الوفاتان إلى تغييرات جذرية في الوضع السياسي في شرق المتوسط، فقد فتح موت قائدي الدولتين الإسلامية والمسيحية الطريق في المنطقة أمام صلاح الدين الأيوبي، فتقدّم من مصر باتجاه دمشق *(عمران ودبورة، 1998، ص15)*.

ترك نور الدين وريثا عمره أحد عشر عاما، هو "الصالح اسماعيل"، فتنافست دمشق وحلب على الوصاية عليه، وعندما ربحتها حلب، طلبت دمشق الحماية العسكرية من صلاح الدين، وفتحت له أبوابها. لكن أحد قوّادها رفض التسليم واعتصم بالقلعة. واستمرت المفاوضات حتى سلمها بعد الإتفاق على شروط التسليم *(المصدر السابق، ص15-16)*.

أصبحت دمشق منذ تلك اللحظة مقر صلاح الدين الرئيسي، ومركز عملياته حتى وفاته بعد أربعة عشر عاما.وقد لعبت القلعة دوراً أساسياً في حروب صلاح الدين كمركز للتموين والترسانة. فبدأ عمله بعد وصوله الى السلطة مباشرة، في تحصين دفاعاتها *(المصدر السابق، ص16)*.

وبعد وفاة صلاح الدين، بويع ابنه الأكبر الأفضل بن علي، لكنه دخل في صراع مع ضباط والده وأخيه العزيز عثمان حاكم مصر، مما أجبره على الإستعانه بعمه العادل حاكم الجزيرة. وعندما دخل العادل إلى دمشق، تزايد نفوذه فكان الرابح الأكبر من ذلك الصراع بين الأخوين، وأصبح سيد الأيوبيين دون منازع. كما كان في وضع ممتاز للتعامل مع الحملة الصليبية الجديدة المؤلفة من القوّات الجرمانية عام 1197/594 *(المصدر السابق، ص16)*.

وفي عام 1199/595، حاصر الأفضل دمشق ودخلها على أثر خيانة، لكنه رد على أعقابه. وبعد ستة أشهر انتهى الحصار على أثر وصول ابن العادل بالتعزيزات من حران، وانسحب الأفضل إلى مصر، لكن العادل لاحقه وهزمه ودخل القاهرة. وأصبح الحاكم الأوحد للإمبراطورية الأيوبية *(عمران ودبورة، 1998، ص17)*.

ب- بناء القلعة:

تم الإعتماد في دراسة القلعة الأيوبية والتعرف على مخططها وأوضاعها في العهد الأيوبي بالإضافة للمصادر التاريخية، على النصوص التاريخية والكتابات المنقوشة التي تمكنت الباحثة من جمعها ودراستها.

تبين من خلال الإطار التاريخي للقلعة في الفترة الأيوبية بأن العادل تسلم الحُكم بعد أخيه صلاح الدين عام 1199/596، وقام بهدم القلعة السلجوقية وإشادة قلعة حديثة مكانها وفق

مخطط جديد وفن معماري متطوّر ينسجم مع تطوّر الفن العسكري ومتطلباته المحدثة في ذلك الوقت، فجاءت القلعة الجديدة منيعة وقوية من حيث ضخامة الأبراج وطراز البناء والمساحة التي بلغت أكثر من 3 هكتار، وبشكل شبه مستطيل أبعاده 225×240م طولا، و 120×165م عرضاً، وذلك استعداداً للحرب مع الصليبيين بعد ان انتهت مدة الهدنة المتفق عليها معهم *(العطار، 1947، ص24)*.

واتجهت خطة الملك العادل الى استبدال سور القلعة القديم بسور حديث ومتين ومزوّد بأبراج أكثر حصانة. واتضح كذلك أن الملك العادل لم يهدم كل شيء في القلعة القديمة، بل احتفظ ببعض المباني ودور السكن والدواوين التي كانت داخلها، وقام بتشييد أسوار وأبراج القلعة الجديدة. ثم بدأ في حفر الخنادق وإكمال المخطط المرسوم بالتدريج. وقد ساهم في مهمة البناء أبناءه وكبار الأمراء الأيوبيين، فاختص كل منهم ببناء جانب من سور القلعة، أو برج من أبراجها *(المصدر السابق، ص24-25)*. كما أسهم في أعمال البناء أهل دمشق على اختلاف طبقاتهم وأحيائهم، وعمل فيها الفقهاء والصوفية *(المصدر السابق، ص26)*. وفي النص التالي قول ابن شداد عن بناء القلعة في عهد الملك العادل: " ولما ملك العادل دمشق هدم قلعتها ووزع بناءها على أمرائه وجعلها اثني عشر برجا، كل برج منها في قدر القلعة، وحفر لها خندقاً وأجرى اليه الماء، فعمرت أحسن عمارة من أموال من وزعت عليهم من الأمراء *(الدهان، 1956، ص39)*".

قام العادل بداية ببناء الأجزاء الدفاعية الخارجية للقلعة، ووسع خندقها من الشرق بعد هدم البيوت والدكاكين المجاورة للقلعة، واستمر ذلك 13 عاماً، ثم وسّع الخندق الغربي سنة 1216/613 وهو خندق باب السر، وبنى في قسمها الغربي قصراً اتخذ مقراً لحُكام دمشق، وبنى داراً سميت بالكاملية. وبعد وفاته تابع خلفاؤه بناء باقي تحصينات القلعة، فبنيت الطارمة وبنيت الدور والقصور ومسجد أبي الدرداء والبحرة، وجددت دار المسرة، كما بُنيت قبة دار رضوان *(المصدر السابق، ص42)*.

بناء برج الزاوية الجنوبية الغربية (البرج رقم 1):

تذكر عزة العطار نقلاً عن أبي شامة في النص التالي تاريخ البدء ببناء القلعة الأيوبية:

"ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة (1202م). وفيها شرع بعمارة سور دمشق، وابتدئ ببرج الزاوية الغربي القبلي المجاور لباب النصر *(العطار، 1947، ص32)*". وباب النصر هنا هو باب المدينة الغربي المجاور للقلعة، ومكانه عند سوق الحميدية، وقد هُدم سنة 1863/1280 *(قساطلي، 1879، ص112)*.

بناء برج الزاوية الجنوبية الشرقية (البرج رقم 5):

وفي سنة 1207/604 كان البدئ ببناء برج الزاوية الجنوبية الشرقية. ذكرت ذلك عزة العطار نقلاً عن أبي شامة الذي قال بأنه يقع مقابل المدرسة القيمازية التي بناها الأمير صارم الدين قايماز النجمي بجانب القلعة ويفصل بينهما الخندق والطريق. وبجانبها من جهة الشرق دار الأمير صارم الدين التي حولّها الملك الأشرف إلى مدرسة عُرفت بدار الحديث الأشرفية في محلة العصرونية الى الشرق من البرج وقد تهدّم ذلك البرج فيما بعد *(العطار، ج2، 1947، ص64)*.

بناء برج في السور الجنوبي (البرج رقم 4).

في عام 1208/605 تم بناء البرج الذي يلي البرج رقم 5 ، وهنالك كتابة بخط الثلث **الكتابة رقم (2)**[6] ،تتكوّن من خمسة أسطر بخط الثلث منقوشة على واجهة البرج الجنوبية تؤرخ ذلك البرج وهي ضمن لوحة ذات إطار، قياسها 90×30سم ونصها كالتالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا البرج المبارك مولانا السلطان الملك العادل سيف الدنيا والدين وسلطان جيوش المسلمين قامع الكفرة والمشركين جامع كلمة الإيمان قامع عبدة الأوثان ناشر العدول والإحسان حامي الحرمين الشريفين أبو بكر بن أيوب ابن شادي خليل أمير المؤمنين ادام الله ايامه وذلك في سنة خمس وستماية صلى الله عليه وسلم". وترتفع عن سطح الأرض بحدود 7م.

بناء برج الزاوية الشمالية الشرقية (البرج رقم 8):

وفي سنة 1209/606 تم بناء برج الزاوية الشمالية الشرقية ***(المصدر السابق، ص67)***، ويحتوي هذا البرج على كتابة منقوشة بخط نسخي أيوبي**(كتابة رقم 4)**[7] ضمن إطار حجري جميل في الواجهة الشرقية للبرج مكوّنة من ستة أسطر، تحتوي التالي:

" الذين ان مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور".

"بسم الله الرحمن الرحيم امر بعمارة هذا البرج المبارك مولانا السلطان الملك العادل سيف الدنيا والدين سلطان جيوش المسلمين حامي الحرمين
الشريفين ابو بكر بن ايوب بتوليه العبد الفقير ابراهيم وذلك في سنة ست وستماية[8]".
وقد أشرف على بنائه نائب دمشق ابراهيم بن موسى.

بناء البرج الأوسط في السور الجنوبي (البرج رقم 3):

في نفس العام، أي في سنة 1209/606، كان بناء البرج الأوسط في الواجهة الجنوبية، وقد احتوى هذا البرج على كتابة مكوّنة من ثلاثة أسطر بخط الثلث الأيوبي **(كتابة رقم 3)**[9] تقع في الجدار الجنوبي للبرج، وترتفع عن مستوى الأرض حوالي 7م، وتشير الكتابة إلى باني البرج " الملك المنصور محمد بن عمر" ملك حماة المتوفي سنة 1220/617 ***(المصدر السابق،ص67-68)***. وهذه الكتابة هي:

---

[6] Sobernheim, 1922, op. cit, N°1, P.15.

[7] والي دمشق في ايام العادل، ويلقب بالمعتمد ومبارز الدين، عزله المعظم عيسى سنة 617هـ/1220م، وتوفي سنة 1226/623. ***(العطار، 1947،ص150)***.

[8] Sobernheim, 1922, op. cit, N°3, P30.
Repertiore, 1937, op. cit, T.X.N° 3650, P.36

[9] Sobernheim, 1922, op. cit, N°2
Repertiore, 1935, op. cit, T.X.N° 3651, P.37

" بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله. أمر بعمارة هذا البرج المبارك مولانا السلطان الملك العادل المجاهد المرابط المظفر المؤيد المنصور سيف الدنيا وا
لدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين ملك الديار المصرية والشامية والاخلاطية ابو بكر بن شادي خليل امير المؤمنين ادام الله سلطانه
وبنى هذا البرج العبد الفقير غلى رحمة الله تعالى الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن ايوب اعز الله نصره بتولي نائبه أبي الغنائم بن عبد الرحمن بن سيف الغرسي الملكي المنصوري سنة ست وستماية ".

بناء برج الباب الشرقي (البرج رقم 7):

تم بناؤه سنة 1213/610، وذلك استناداً إلى كتابة مكوّنة من سبعة أسطر بخط النسخ منقوشة على الجدار الشرقي للبرج **(كتابة رقم 5)** [10] ضمن إطار 80×90سم ،*(المصدر السابق، ص68)*. وتتضمن الكتابة ما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم امر بعمارة هذا البرج
المبارك مولانا السلطان الملك العادل
المظفر المؤيد المنصور سيف الدنيا والدين سلطا
ن الاسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين حا
مي الحرمين الشريفين ابا بكر بن ايوب خليل امير المؤمنين
اعز الله نصره وذلك في سنة عشر وستمائة بتولي
الأمير مبارز الدين ابراهيم بن موسى ادام الله ايامه".

بناء الواجهة الشمالية:

في سنة 1216/614 بنيت الواجهة الشمالية، كما توحي الكتابة المفقودة **(كتابة رقم 6)** [11] حالياً التي كان قد نقل نصها المستشرق "فان برشيم" في عام 1894، وكان قد وجدها على الجدار الشمالي للقلعة (البدنة 11-12). وتتألف الكتابة من ثلاثة أسطر وهي:

" بسم الله الرحمن الرحيم امر بعمارة هذا المكان المبارك مولانا
الملك العادل سيف الدنيا والدين سلطان للاسلام خليل امير
المؤمنين عز نصره بتولي ابراهيم بن موسى وسنقر الـ... احمد بن آقوش رحمه الله سنة
أربع عشر وستمايئة ".

وهناك كتابة غير مؤرخة**(كتابة رقم 7)** [12] على باب القلعة الشمالي المواجه لباحة القلعة تشير إلى بنائها في عهد العادل أيضاً. وهي منقوشة على إطار نافذة مستديرة في أعلى الباب ومضمونها:

[10] Sobernheim, 1922, op. cit, N°4 , P.5
Repertiore, 1938, op. cit, T.X.N° 3727, P.89.

[11] Sobernheim, 1922, op. cit, N°5, P.20
Repertiore, 1941, op. cit, T.X.N°3808, P.144

[12] Sobernheim, 1922, op. cit, N°6, P.8

" بسم الله الرحمن الرحيم امر بعمارة هذا المكان مولانا السلطان الملك العادل سيف الدنيا والدين ابو بكر بن ايوب ".
ويُلاحظ وجود زخارف وكتابة بخط عادي في زوايا النافذة ورد فيها عبارة " لا اله الا الله محمد رسول الله " *(المصدر السابق، ص68)*.

توسعة الخندق:

استمر في بادئ الأمر استخدام الخندق القديم للقلعة الجديدة، ثم تم توسيعه بما يتناسب مع ضخامة البناء الجديد. وقد تم ذلك على مراحل كالتالي:

- المرحلة الأولى: كانت في عام 1214/611، حيث تم توسيع الخندق من الشرق، كما روى أبو شامة، حيث قال:" وفيها هُدمت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة لتوسيع الخندق، ومن جملة ما هُدم حمّام فايماز وحوانيت تقابل المار من جهة دار الحديث إلى القلعة *(العطار، 1947، ص87)*.
- المرحلة الثانية: كانت في عام 1216/613، وتم فيها توسعة الخندق الغربي (خندق باب السر)، وفي ذلك يقول أبو شامة:" شرع في تحرير خندق باب السر وهو المقابل لدار الطعم العتيقة المجاورة لنهر بانياس، وكان المعظم[13] وعسكره ينقلون التراب نحو الميدان الأخضر، وكان أخوه الصالح اسماعيل مع من انضم اليه من العسكر ينقلون التراب يوماً والمعظم يوما. وعمل فيه الفقهاء والصوفية ولم يبق أحد من أهل البلد، كل يوم تعمل فيه طائفة *(المصدر السابق، ص92)*. وقد كان باب السر يتوسط الواجهة الغربية للقلعة، أما دار الطعم العتيقة فتقع على نهر بانياس وقد تحولت فيما بعد إلى اصطبل، عرفت بإصطبل السلطان *(دهمان، 1949، ص89)*.

المباني والمنشآت الأخرى:

مما سبق، نستنتج بأن أسوار القلعة الأيوبية وأبراجها بنيت في حياة الملك العادل، وخلال الفترة الواقعة بين عامي 1202/599 – 1217/614، واستغرق بناؤها 15 عاماً. وقد استمرت أعمال البناء بعد وفاة الملك العادل، وكانت ذات صفة مدنية. وأشهر تلك المباني هي: الطارمة، الدور والقصور، مسجد أبي الدرداء، البحرة، تجديد دار المسرة ودار الرضوان *(المصدر السابق، 92)*.

الطارمة:

هي عبارة عن قاعة كانت على الأغلب في أعلى برج باب الحديد (البرج رقم 10)، الذي يتوسط الواجهة الشمالية، وكانت تلك الطارمة مشرفة على المدينة. وينقل لنا جعفر الحسني عن النعيمي قوله: "ان المعظم بنى الطارمة التي على باب الحديد *(الحسني، 1948، ص584)*". نلاحظ أن النص لم يوضح طبيعة تلك الطارمة، ولا مكانها بشكل دقيق. إلا أن أبا شامة ذكرها حين كتب عن أحداث سنة 1221/618 وقت اجتماع الأشرف موسى بن العادل حاكم الجزيرة بأخية المعظم عيسى حاكم دمشق الذي جاء مع جيشه لمؤازرة أخيهما الملك الكامل بمصر وصد الصليبيين الذين كانوا يحاصرون دمياط. فتنقل لنا عزة العطار عن أبو شامة قوله:" وعرض الأشرف العساكر تحت قلعة دمشق، وكان هو وأخوه المعظم في الطارمة بقلعة دمشق، والعساكر تمر اميرا بعد أمير..." *(العطار، 1947، ص129)*.

---

[13] المعظم هنا، يقصد به المعظم عيسى بن الملك العادل.

ينسب ابن شدّاد للإشراف على عدة أعمال عمرانية *(المنجد، ج2، 1956، ص39)*، الأشرف موسى بن العادل الذي حكم دمشق سنة 1228/626، ومنها هدمه **لدار المسرة**، حيث قام الأشرف بهدمها وتجديدها ، وهي الدار التي بناها شمس الملوك اسماعيل ورممها نور الدين، كما ذكر في الحديث عن القلعة السجوقية. أما **البحرة**، فينسب ابن شداد بناءها للملك الأشرف ، والتي تم كشف بقاياها أثناء تنقيبات البعثة الوطنية (1992). كما جدد[14] الأشرف كذلك **مسجد أبي الدرداء** وزخرفه كما يقول ابن كثير *(ابن كثير، ج13، 1932، ص148)*.

ولما أخذ الملك الكامل محمد بن العادل دمشق سنة 1237/635 بنى داراً في القلعة عُرفت **بالدار الكاملية** *(الدهان، 1956، ص39)*.

أما الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل الذي تولى دمشق عام 636هـ/1238م، فتنسب اليه أعمال معمارية نقلها الدهان عن ابن شدّاد منها **الدركاة** و **باب المدينة (باب القلعة الشرقي)**، فيقول: " بنى بها برجاً من شرقيها كان قد تهدم وبنى دركاة لباب المدينة[15] *(المصدر السابق، ص39)*".

وأخيراً فقد نسب ابن شدّاد إلى الناصر صلاح الدين آخر ملوك الأيوبيين تجديد **دار الرضوان**. فيقول: " وكان قد وقع روشنها، وحسّنها وعمل بها قبة مرتفعة *(المصدر السابق، ص39)*". ودار الرضوان كما يبدو من الدور التي بقيت من القلعة السلجوقية، بناها تتش مؤسس دولة السلاجقة لإبنه رضوان.

ج- كيفية حلول القلعة الأيوبية محل القلعة السلجوقية:

يتبادر إلى الذهن سؤال عن كيفية إزالة القلعة القديمة وإقامة قلعة جديدة مكانها. هل قام العادل بهدم القلعة القديمة كلياً ثم بدأ ببناء قلعة جديدة مكانها؟ وهل بقيت دمشق دون قلعة إلى أن تم بناء القلعة الجديدة؟ يرى " كينغ " في ذلك رأياً هاماً إذ يقول: " يبدو أن التحصينات في القلعة الجديدة قد أقيمت متقدمة قليلاً عن الخط الدفاعي في القلعة القديمة. وذلك أن السلطان العادل كان يحرص على إحاطة القلعة القديمة بخط دفاعي جديد يحل محل القلعة القديمة قبل أن تهدم. وبذلك يتجنب حالة البقاء بأبراج نصف مبنية فيما لو أقدم على هدم القلعة. وأن فكرة إحاطة التحصينات السابقة بتحصينات جديدة عُرفت أيضاً في مشاريع العادل الأخرى، في القاهرة مثلاً، حيث جرى توسيع خمسة أبراج مستديرة من عهد صلاح الدين، وكذلك في عجلون والصبيبة.. الخ *(KING, 1951, P.63)*. ويقول أيضاً: " ولكن لهذه الطريقة عيوبها، فالتحصينات الجديدة في هذه الحالة يجب أن تقام أساساتها على الخندق القديم، كما أن المباني السكنية يجب إما أن تلتحم بعناصر القلعة القديمة كما هو الحال في الزاوية الشمالية الشرقية من السور، وإما أن تقام بعد هدم الجدران القديمة كما يُشاهَد ذلك في الجهة الجنوبية، حيث تتصل في مكان واحد على الأقل التحصينات بالمباني الداخلية دون نظام غالباً *(المصدر السابق، P.64)*.

---

[14] نفهم من عبارة "جدد المسجد" أن المسجد كان موجوداً من قبل، لكن لم يسمع بوجود مسجد ينسب إلى أبي الدرداء في عداد مساجد القلعة السلجوقية، بل يمكن أن نرى داراً تنسب إلى أبي الدرداء.

[15] باب المدينة: هو على الأرجح، باب القلعة الشرقي لأنه الباب الذي يفتح إلى داخل المدينة دون غيره.

ويتابع: ومن ناحية اخرى فإن بناة القلعة الجديدة بشروعهم في إقامة خط دفاعي كامل كان موجوداً من قبل، مكنهم من بناء التحصينات الجديدة على مراحل، أي قطعة قطعة. وهذا يدعو للقول أنهم بدلاً من ان يبدأوا العمل في كامل القلعة من الأساس وحتى الإرتفاع المطلوب، عمدوا إلى إتمام قطاع من التحصينات قبل أن يبدأوا ببناء ما يليه. الواقع أن هذا هو الذي حدث. فالكتابات التي تنسب إلى العادل تمتد على فترة طويلة هي تسع سنوات (1208–1217م). وكذلك أسهم أولاد أخيه في بناء أقسام مختلفة من القلعة *(المصدر السابق، P.64)*". ويقول أيضاً: ومع أن الأبراج فيها نسبة كبيرة من الوحدة تفرض بناءها وفق مواصفات ثابتة، فإن هناك بعض الفروق الظاهرة في التفاصيل. ويضيف قائلاً: ليس لنا أن نعجب من طريقة البناء المجزّأة هذه لأن كثيراً من الحصون المماثلة يكشف تاريخها المعقد سلسلة من الأساليب المتباينة، بينما استطاع العادل ان يحقق في قلعته الكبيرة مخطط واحد مترابط *(المصدر السابق، P.68)*.

يمكن من خلال رأي "كينغ" استخلاص ثلاثة نقاط هامة هي:

1. أدى إقامة الخط الدفاعي الجديد أمام الخط الدفاعي القديم إلى توسيع محيط القلعة على حساب خندق القلعة السلجوقية، لأن القلعة السلجوقية كانت محاطة بخندق. ولعل ذلك كان السبب في قيام العادل بعد ذلك بتوسيع خندق القلعة.

2. بقاء عناصر من السور القديم دون هدم لا تزال موجودة في الزاوية الشمالية الشرقية، وعند باب القلعة الشمالي، وخلف الباب الشرقي. كما أن العادل لم يهدم كل شيء في القلعة، بل احتفظ ببعض المباني من دور وحمامات ومساجد استمر ذكرها بعد بناء القلعة الأيوبية، كدار المسرة التي بناها نور الدين، ودار الرضوان التي بناها تتش، ومسجد أبي الدرداء.

3. إن خطة البناء المرحلية هذه أيدتها التواريخ المختلفة المنقوشة على الأبراج وكذلك النصوص التاريخية التي تشير إلى أن مسؤولية البناء توزعها العادل وأولاده، والأمراء الأيوبيون. فقام كل منهم ببناء برج. وهذا يفسّر عدم اتصال البناء بين برج الزاوية الجنوبية الشرقية وبين البدنة الملاصقة له في الجدار الشرقي (البدنة 5 – 6) فهما منفصلتان كلياً من الأعلى إلى الأسفل، مما يدل على أن كلا من الجزأين: البدنة والبرج، بني كل منهما مستقلاً عن الآخر.

د- حدود القلعة الأيوبية ومحيطها الخارجي:

تقع القلعة في الزاوية الشمالية الغربية من مدينة دمشق القديمة، بين باب الفرج من الشرق وباب النصر من الجنوب الذي يشغله حالياً مدخل سوق الحميدية، وتبلغ أبعاد القلعة حوالي 150م شمال جنوب، و230م شرق غرب، ويتعامد الجداران الشرقي والشمالي الذي يمتد بشكل مستقيم لمسافة تبلغ ثلثي طوله قبل أن ينحرف ليلاقي الجدار الغربي الذي ينقص طوله بمقدار الثلث عن الجدار الشرقي. وقد تم بناء القلعة في هذا المكان لتستفيد من الخواص الجغرافية والإستراتيجية المحدودة للموقع، فجانبان فقط منها معرضان للغزو الخارجي، كما

أن المصادر المائية هي أغزر ما يمكن في هذا المكان، فيحدها نهر العقرباني[16] من الشمال، في حين يدخلها نهر بانياس جنوب برج رقم (3)، ويتفرع في طريقه على بعد حوالي 50م من الجدار الغربي ليتجه أحد الفرعين جنوباً ويغادر القلعة شرقاً من تحت البدنة (1– 12). ويستمر الآخر شرقاً حتى يغادرها قرب البوابة الشرقية. وقد استعملت هذه المصادر المائية لملئ الخنادق حول القلعة عند إغلاق بوابات طاحونة باب الفرج الواقعة شمال شرق القلعة، كما أنها كانت المصدر الرئيسي لتزويد القلعة بالمياه بالإضافة إلى مجموعة الآبار داخلها ***(عمران ودبورة، 1998، ص47 – 50).***

هـ- مخطط القلعة:

يمكن دراسة مخطط القلعة الأيوبية من آثارها الباقية التي يرجع معظمها إلى عهد القلعة الأول (عهد الملك العادل الأيوبي)، مما يساعد على تكوين مخططها بشكل شبه تام، وقد نشر هذا المخطط في كل من دراسات سوفاجيه وسوبرنهايم وكينغ.***(المصدر السابق، ص52).***

قبل البحث في مخطط القلعة الأيوبية، وبعد إلقاء نظرة على بعض النصوص التاريخية التي تمدنا ببعض المعلومات عن مخطط القلعة الأصلي من الملاحظ ما يلي:
المعلومات في هذا المضمون قليلة جداً، والشيء الهام فيها هو ما يتعلق بعدد الأبراج والأبواب. فبينما اعتقد سوفاجيه وكينك بأن عدد أبراجها 13 برجاً، يحددها ابن شداد بأنها 12 برجاً ***(الدهان، 1956، ص39).***

أبواب القلعة:

اجمعت المصادر على وجود ثلاثة أبواب، الأول في الجهة الشمالية يصل القلعة بخارج المدينة مباشرة، والثاني في الشرق يفتح على المدينة وهو المدخل الرسمي، والثالث من الناحية الغربية ***(عمران ودبورة، 1998، ص66).***

وهنالك بابان آخران أطلق عليهما ابن شداد اسم (باب السر)، وأبواب السر هي التي تؤدي إلى الخندق، ويتم اجتيازها بواسطة جسور معلقة. ويقول ابن شداد:" ولهذه القلعة في زماننا (عهد الظاهر بيبرس)، أربعة أبواب: باب الحديد، وباب جهة المدينة، وباب يخرج منه إلى باب النصر وإلى باب السعادة (يقصد به الباب الجنوبي)، وباب من جهة الغرب يخرج منه عساكر السماق، ومنه يركب السلطان، ولها ثلاثة أبواب سر في الخنادق ***(الدهان، 1956، ص40)***".

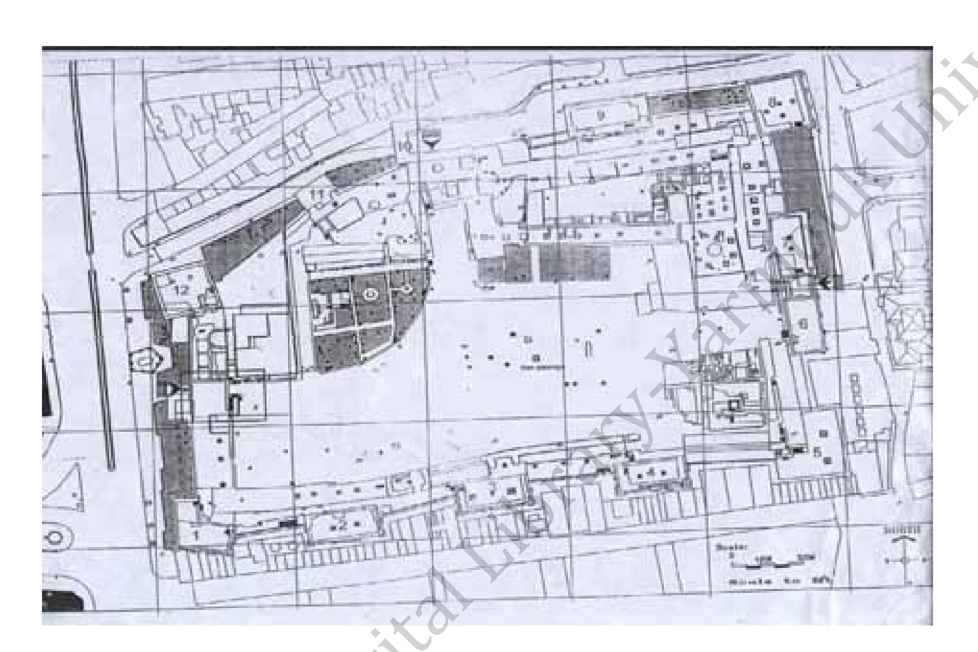
ويطلق أبو البقاء على الباب الغربي اسم باب السر، فيقول: " سمي بذلك لأن الأتراك (يقصد المماليك) ينزلون منه سراً ويطلعون منه على جسر من خشب ...الخ ***(أبو البقاء، 1341، ص26)***".

كما يذكر ابن كثير باب السر في البداية والنهاية فيقول:" وحملوا إلى القلعة من باب السر مقابل دار السعادة.***(ابن كثير، ج14، 1932،ص207).***

---

[16] نهر العقرباني: هو عبارة عن قناة متفرعة من نهر بردى.

إذن نستنتج بأن قلعة دمشق كان لها في العهد المملوكي أي في أيام ابن كثير وأبي البقاء بابان للسر أحدهما في جدارها الجنوبي والآخر في الجدار الغربي. ومن الجدير بالذكر أن البعثة الوطنية كانت قد كشفت عن باب السر الغربي في عام 2005، **(مقابلة شخصية، المكتب الهندسي، قلعة دمشق)**.



مخطط رقم (4): مسقط أسطح لقلعة دمشق يبين مداخل القلعة(مقياس رسم 1:200)
(المكتب الهندسي/ قلعة دمشق)

وحين نتأمل مخطط القلعة اليوم نلاحظ بأن لها شكلاً مستطيلاً غير منتظم، ففيه واجهتان طويلتان احداهما في الشمال، والأخرى في الجنوب، وواجهتان قصيرتان أحداهما في الشرق والثانية في الغرب نلاحظ بأنها أقصر من مقابلتها الشرقية. ونلاحظ كذلك بأن الأضلاع ليست مستقيمة، فالواجهة الشرقية محدبة قليلاً نحو الخارج، والجنوبية نصفها الغربي يبرز عن النصف الشرقي باتجاه الجنوب. اما الواجهة الشمالية فهي مستقيمة في قسمها الشرقي حتى باب الحديد ثم تنحرف إلى الداخل مشكلة قوساً يمتد من باب الحديد إلى برج الزاوية الشمالية الغربية الذي يتقدم كثيراً نحو الجنوب عند البرج المقابل في الزاوية الشمالية الشرقية ***(عمران و دبورة، 1998، ص2)***.

ويفسر ابن شدّاد هذا الوضع في مخطط القلعة عندما يتحدث عن بناء قلعة دمشق على قطاعات حيث يذكر لنا بأن كل أمير من امراء الملك العادل استقل ببناء واحد منها ***(الدهان، 1956، ص39)***.

ويرى "كينغ" بأن بناء القلعة لم يحدث دفعة واحدة، بل كانوا يهدمون قطعة من القلعة القديمة ثم يقومون بتجديدها، ثم يهدمون قطعة أخرى وتجدد وهكذا ***(KING, ;1951, P.62)***.

وبناء على ذلك فإنه ليس للقلعة طول وعرض ثابتان، فطولها يتراوح بين 240 و 225م، وعرضها يتراوح بين 165 و 120م. وهكذا فإن مساحتها التقريبية تبلغ حوالي (33176م²).

أبراج القلعة :

يتوزع على سور قلعة دمشق حالياً 12 برجاً. وقد رأى كل من سوفاجيه و كنغ بأنها كانت 13 برجاً إلا أن البرج الثالث عشر قد ضاعت معالمه. وهنا نلاحظ الإختلاف بين رأيهما ورأي المؤرخ العربي ابن شدّاد الذي أخبرنا بأنها 12 برجاً.

وبما أن الواجهتين الشرقية والجنوبية لم تتغير معالمهما، فإن أنظارنا يجب أن تتجه إلى الجبهتين الشمالية والغربية لحل هذه المشكلة. وهنا يضع الريحاوي لنا فرضيتين هما:

الفرضية الأولى:

تقوم على أن الجبهة الغربية كانت كما هي الآن، ليس فيها من الأبراج سوى برجي الزاويتين الشمالية والجنوبية، اي أن الباب الغربي كان مفتوحاً في البدنة، ويؤيد ذلك أن هذا الباب لم يكن بحاجة لبرج يحميه لأنه من أبواب السر، فهو لا يستعمل دائماً وغير متصل بالخارج بجسر ثابت بل بجسر خشبي معلق. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المسافة بين برجي الزاوية قصيرة بالنسبة للجبهة الشرقية المقابلة فهي لا تستوجب قيام برج ثالث عليها ***(ريحاوي، 1979، ص78)***.

الفرضية الثانية:

في حال وجود برج عند الباب الغربي يجب أن نحذف برجاً من أبراج الجهة الشمالية لكي يصبح عدد أبراج القلعة اثنتي عشر برجاً. وهذا يستدعي أن يكون واحداً من الأبراج قد تم بناؤه بعد ابن شداد ***(المصدر السابق، ص78)***.

وفعلاً فإننا نلاحظ بأن البرج رقم(11) صغير جداً بالنسبة لأبراج القلعة، كما أن هندسته ومواد بنائه ليس فيها من الأصل الأيوبي اي أثر. إلا أن الكتابة المنقوشة على واجهته الشمالية تشير إلى تجديده في عهد الغوري، وهذا لا يتعارض مع القول بإحداثه بعد ابن شدّاد ثم تعرض البرج للهدم وجدد في عهد الغوري، آخر سلاطين المماليك، فهو إذن غير أصيل.

أما بالنسبة **لهندسة الأبراج** فيقسمها الريحاوي إلى ثلاثة أنواع ***(المصدر السابق، ص79)*** هي:

- **الأبراج المربعة:** مثل برجي الزاويتين الشماليتين.
- **الأبراج ذات الزاوية القائمة ويشبهان الحرف L:** مثل برجي الزاويتين الجنوبيتين.
- **الأبراج المستطيلة ذات الطول ضعف العرض تقريباً:** كبقية الأبراج.

وجميع الأبراج تبرز عن السور وتكاد تقع كلياً خارج خط البدنات .

ز- الخندق والمياه:

لقد تبين بأن القلعة السلجوقية كانت مزودة بخندق، وكان ذلك الخندق يُملأ بالماء من نهر بانياس الذي يدخل القلعة من الناحية الغربية، ومن نهر العقرباني الجاري بمحاذاة سورها الشمالي. وبعد بناء القلعة الأيوبية، عمل العادل على توسيع هذا الخندق من الجهتين الشرقية والغربية *(عمران/دبورة، 1998، ص48)*.

وقد وصف لنا أبو البقاء حالة الخندق في عهده (القرن التاسع الهجري) عندما تكلم عن الباب الغربي فيقول:" وتحته الخندق الدائر بالقلعة ينيف عمقه على مائة ذراع بالعملة[17]، به يتخزن الماء وينبت البوص[18] وغير ذلك، وهو غير خندق المدينة *(أبو البقاء، 1341، ص26)*".

وينقلان لنا المنجد وزكي قول العمري: "يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة وإذا دعت الحاجة أطلق إلى جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعمها *(المنجد وزكي، ج4، 1957، ص93)*".

تعطينا تلك النصوص فكرة عن أهمية خندق القلعة الذي جرى توسيعه في أعقاب تشييد القلعة الأيوبية، ويبدو أنه ازداد اتساعاً عن حدوده السابقة وخاصة في الجهتين الشرقية والغربية، مما استوجب هدم أبنية كانت تحيط بخندق القلعة القديم، فأصبح أكثر عمقاً وأكثر عرضاً.

لا أحد يعلم مدى صحة القياس الذي أعطاه لنا أبو البقاء لعمل الخندق لأن مئة ذراع تعادل نحو 65م، وتعتبر في غير حدود المعقول. ويوجد فرق كبير بين هذا الرقم والرقم الذي أعطاه الرحالة الفرنسي "دارفيو D'ARVIEUX " الذي قدّر عمق الخندق بحوالي 6م ***(D'ARVIEUX, 1735, V.II, P.68)***، وهناك احتمال أن يكون الخندق قد ردم بعض الشيء وأصبح في أيام "دارفيو" في القرن السابع عشر (1660) أقل عمقاً مما كان عليه في أيام أبي البقاء (القرن الخامس عشر).

أما عرض الخندق فلا يوجد من المؤرخين العرب من يشير إلى قياسه، والقياس الوحيد الموجود له هو قياس الرحالة الفرنسي "دارفيو" الذي حدد عرضه بحوالي 20م *(المصدر السابق، p.68)*.

وقد نقل المنجد عن الحسن البوريني بأنه ذكر الخندق الجنوبي للقلعة في كتابه تراجم الأعيان عندما تكلم عن بناء المدرسة الأحمدية، فقال: "إن الوالي شمسي باشا بنى خانقاها قبالة قلعة دمشق، من جانبها القبلي، ملاصقة للخندق.. *(المنجد، 1959، ص88)*.

مما سبق يمكننا استنتاج ثلاثة مميزات هامة للقلعة الأيوبية:

1. جاء بناء القلعة داخل المدينة وعلى مستوى سطح الأرض وليس على تل يؤمن حمايتها كما هي العادة في بناء القلاع. وهي من احسن القلاع الأيوبية التي ظلت في

---

[17] جاء في الموسوعة الإسلامية أن ذراع العملة كذراع الهندسة يعادل 65.6 سم (Hinz: Ency. N. E. ,II , p.238).

[18] البوص: القصب.

حالة معمارية جيدة رغم مرور سبعة قرون ونصف على بنائها بشكلها الحالي. وقد لاحظ المؤرخون القدماء هذه الصفة للقلعة ووصفوها بالمرجلة[19] *(المنجد، ع3، 1957، ص118)*. ومن الطبيعي أن لا يكون لبناء القلعة الأيوبية خيار آخر في موقعها، لأنهم أقاموها في مكان القلعة السلجوقية وصارت تحل محلها. وربما جاءت بهذا الوضع بسبب خلو دمشق داخل أسوارها من المرتفع الطبيعي الذي يمكن أن تقام عليه القلعة كما هو الحال في معظم المدن السورية كحلب وأنطاكية وحمص وحماة وأفاميا.

كما أن من أهم أسباب وجود القلاع داخل المدن هو استخدامها مقراً لحاكم المدينة وجاليته، فهي تعزلهم عن السكان، ويجدون داخل أسوارها ملجأ يحميهم في أيام الثورات والإضطرابات، بينما تنحصر وظيفة أسوار المدينة في صد العدوان الخارجي وحماية السكان *(ريحاوي، مجلد 19، 1969، ص35)*.

2. إن حجم أبراجها كبير مقارنة مع أبراج القلعة السلجوقية أو أبراج القلاع المعاصرة لها، مع وجود مرام للسهام في كل طابق من طوابق الأبراج. ومن هنا نستنتج أن مهندسي القلعة الأيوبية قد عوّضوا حرمان قلعة دمشق عن المرتفع الطبيعي بإعطائها ميزات بديلة لم توجد بالقلاع الأخرى المحصنة بالمرتفعات، فاتضحت هذه الميزات في ضخامة البناء وقوته بشكل عام، وفي ارتفاع الأبراج، وسماكة الجدران، وضخامة الحجارة وطريقة نحتها، وكثرة المرامي والرواشن. وقد لاحظ القدماء تلك الميزات الخاصة، فقال ابن شدّاد واصفاً أبراج القلعة:" كل برج قدر قلعة *(الدهان، 1956، ص39)*. ويقول أبو البقاء واصفاً القلعة: " ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها فإنها قدر مدينة *(أبو البقاء، 1341، ص60)*". وكذلك لاحظ الرحالون وعلماء الآثار الغرب ما في قلعة دمشق من صفات مميزة فوصفها "بوكوك Pocoke" الذي زار دمشق سنة 1738 بأنها مدينة صغيرة ***(Pocoke, V.II ,1745 , P.120)***. أما "كينغ" فقد ذكر بأنها تمتاز بالقوة والصلابة الفائقة ***(King, 1951, P.58)***. كما لاحظ سوفاجيه بأنها من دون القلاع الأخرى، بقيت محتفظة بشكلها الأصلي الذي يرجع إلى زمن بنائها في القرن الثالث عشر ***(Sauvaget, 1930, P.38)***.

3. وجود ممر مسقوف يدور حول كامل محيطها الداخلي، وهذا يسمح بالدوران حول محيط القلعة دون أية عوائق، إضافة إلى وجود الأدراج التي تساعد على التحرك السريع بين طوابق الأبراج *(المصدر السابق، P.39)*.

ط- وظيفة القلعة ونشاطها السياسي والإجتماعي:

لعبت القلعة الأيوبية نفس الدور الذي لعبته القلعة السلجوقية سابقاً، فكانت وظيفتها العسكرية والحربية أكثر بروزاً ووضوحاً من سابقتها القلعة السلجوقية بسبب ما اتصف به بناؤها الأيوبي الجديد من القوة والمناعة، وبسبب ما تعرضت له القلعة الأيوبية من

---

[19] **المرجلة**: هو تعبير يطلق عادةً على الراكب إذا نزل عن فرسه ووقف على رجليه أي (ترجل)، ذلك أنهم اعتادوا أن يروا القلاع والحصون تبنى فوق المرتفعات والتلال، سواء كانت داخل المدن كقلاع حلب وحمص وحماة والقاهرة، أم كانت خارج المدن كقلعة شيزر، المضيق، الحصن، المرقب، صهيون، وغيرها (ريحاوي، 1979، ص88).

الحصارات العديدة، وهذا ما أعطى لها دوراً خاصاً في المقاومة يختلف عن دور المدينة. فمثل هذا الدور لم تلعبه القلعة السلجوقية من قبل. فكانت قلعة دمشق تعتبر مقراً فعلياً لسلاطين بني أيوب وملوكهم. يقيمون فيها مع أسرهم، ومنها يحكمون دولة عظيمة تتسع أحياناً لتشمل جميع أنحاء الدولة الأيوبية في مصر والشام والجزيرة وأرمينيا، وخاصة في أيام العادل، وتتقلص أحياناً لتقتصر على ولاية دمشق. وبسبب إقامة السلاطين والملوك في القلعة فقد كانت تتوفر فيها كل حاجات الملوك اليومية، وتمارس فيها النشاطات الإجتماعية والإدارية والسياسية. أقام فيها الملك العادل وأولاده: المعظم عيسى، والأشرف موسى، والكامل محمد، ونعموا جميعهم بقصورها وحمّاماتها ومساجدها، وفيها توفوا جميعاً، وكانوا يدفنون فيها لبضع سنين ثم ينقل جثمانهم منها إلى مدافن خاصة تشاد لهم في المدينة. فالملك العادل بعد أن توفي ودفن بالقلعة مدة أربع سنوات، نقل من مدفنه بالقلعة إلى تربته بالمدرسة العادلية الكبرى. وكان هذا التقليد قد ساد في القلعة السلجوقية قبل الأيوبيين*(ريحاوي، 1979، ص89-90)*.

ويذكر لنا أبو شامة عادة دفن الملوك عند الأيوبيين في القلعة فيقول:" توفي العادل خارج دمشق في قرية عالقين فنقل في محفة إلى القلعة فدفن فيها وعمل له العزاء ثلاثة أيام داخل القلعة في الإيوان الشمالي[20]*(حلمي ومصطفى، 1962، ص112)*".

وفي خبر وفاة الملك الكامل محمد يذكر المؤرخون الدار التي توفي فيها صلاح الدين وعرفت "بدار القصبة"، فيذكر ابن كثير أن الكامل توفي في بيت صغير من دار القصبة، وهو البيت الذي توفي فيه عمه الناصر صلاح الدين، وقد دفن بالقلعة حتى نقل إلى مدفنه بالحائط الشمالي من الجامع *(ابن كثير، ج13، 1932، ص149)*.

أما بالنسبة لبعض أنواع النشاطات السياسية والإجتماعية التي عرفتها قلعة دمشق في العهد الأيوبي فيذكر لنا العمري بعضها *(المنجد، ع3، 1957، ص120)*:

- موكب وصول رسل دار الخلافة العباسية سنة 1207/604 ومعهم الهدايا للملك العادل وأولاده وكبار رجال دولته، ودخول الموكب من القصر[21] إلى القلعة من باب الحديد.
- كانت تجري (تحت القلعة) استعراضات الجيوش، يستعرضها الملوك وهم في أعالي القلعة في سرادقاتهم.
- كانت تجري فيها الإحتفالات الهامة كالإحتفالات الدينية في ليالي رمضان.
- كان الأيوبيون ينزلون ضيوفهم في القلعة، فعلى سبيل المثال حين زار الأشرف موسى أخاه الكامل محمد صاحب مصر أنزله القلعة، وتحوّل هو إلى دار السعادة. كما أنزل الجواد يونس حفيد الملك العادل الذي حكم دمشق بين سنتي 1237/635 و 1238/636 الشيخ جمال الدين الحصيري عنده بالقلعة بدار المسرة.
- استخدمت القلعة أيضاً معتقلاً وسجناً للشخصيات السياسية والأسرى، وكان فيها سجن يطلق عليه إسم سجن الحيات.

ي- دور القلعة الحربي وحالات الحصار:

تعرضت دمشق خلال العهد الأيوبي إلى خمس مرات للحصار والهجوم عليها من الخارج في الفترة ما بين 1228 - 1245م. أربع منها كانت بسبب الصراع على دمشق بين الأمراء

---

[20] يقصد به "أبو شامة": الإيوان الشمالي لدار المسرة.

[21] القصر: قرية شمالي شرق دمشق، على الطريق المؤدي إلى حمص. تبعد عن دمشق مسافة 17كم، فيها آثار خان من عهد صلاح الدين، ادخل ضمن مبنى مستشفى أمراض عقلية (زكار، 1973، ص35)

الأيوبيين، وكان فتح القلعة يتم خلالها دون عنف أو انتقام. أما الحصار الخامس فكان أخطرها، ففيه استولى التتار على دمشق في 17 ربيع الأول سنة 1259/658 دون قتال بناء على فرمان صادر عن ملكهم هولاكو بالأمان لأهل دمشق وما حولها. ولكن نائب قلعة دمشق رفض التسليم واعتصم بها، فحاصرها التتار وضربوها بالمنجنيقات وخربوا قسماً كبيراً منها، ثم استولوا عليها وكان من قبل التتار الذين ضربوا القلعة وهدموا منها أجزاء كثيرة. وفيما يلي تفاصيل الحصار الخامس وهو حصار سنة 1259/658 من قبل التتار نقلتها لنا عزة العطار على لسان أبي شامة، حيث يصف أبو شامة تلك الأحداث فيقول: " وقد كانت قلعة دمشق امتنع بها الوالي والنقيب في جمع كثير بها فاحتيج إلى حصارها فجاءها من التتار خلق كثير، وصلوا يوم الأحد ثاني عشر جمادي الأولى، فباتوا تلك الليلة حتى قطعوا من الأخشاب ما احتاجوا إليه، وكانوا استصحبوا معهم المجانيق، تجرها الخيل وهم ركاب عليها، وقدموا قبل ذلك أسلحة تجرها البقر على العجل، وأصبحوا يوم الإثنين يجمعون الحجارة لرمي المجانيق فأخربوا حيطاناً كثيرة وأخذوا الحجارة من أساسها، وأخربوا طرقاً من القنوات بسبب الحجارة وهيؤوها للرمي، ونصبت المجانيق في ليلة الثلاثاء وكانت أكثر من عشرين منجنيقاً وأصبحوا يرمون بها رمياً متتابعاً كالمطر فأخرب كثير من القلعة من غربها فما أمنوا[22] حتى طلبوا الأمان فأومنوا، وخرجوا منها، ونهب ما في القلعة واحرق فيها مواضع كثيرة وهدم من أبراجها أعاليها ***(العطار، 1947، ص204)***".

نستنتج من النص السابق المعلومات التالية:

1. اكتفى التتار بضرب واجهة القلعة الغربية ونصب المنجنيقات العشرين في مواجهتها دون غيرها من واجهات القلعة، ولعل السبب في ذلك أن تلك الجهة كانت مكشوفة للعدو مما جعلها أسهل للتناول. فمن المعلوم أن الواجهتين الجنوبية والشرقية كانتا محميتان بأزقة المدينة ومبانيها، أما الواجهة الشمالية فيبدو أن مجاري المياه (نهر بردى وفرعه النهر المجدول) قد حالت دون اقتراب المنجنيقات من أسوار القلعة.

2. لم تقاوم القلعة الحصار طويلاً، وكان استسلامها نتيجة تهدم الجهة الغربية للقلعة بسبب قذائف المنجنيقات العشرين، فلم يعد ينفع الإستمرار في الدفاع مما أدى إلى يأس القوات المدافعة واضطرارهم للتسليم.

3. بعد سقوط القلعة، قام التتار بحرق أماكن فيها من المحتمل ان تكون تلك الأماكن هي قصور ومستودعات كانت في الداخل. أما الأسوار والأبراج فقد اكتفوا بهدم أعاليها[23]. وكان ذلك كافياً لإضعاف مقاومة القوات المدافعة عن القلعة إلى حد كبير. ولعل هذه الضربة كانت السبب في عدم وجود شيء من الأصل الأيوبي القديم لأي من أسوار الجهة الغربية وأبراجها، بينما الجهات الأخرى وخصوصاً الجنوبية والشرقية ما زالتا بحالة جيدة كما كانتا في العهد الأيوبي تقريباً، لم يجر عليها سوى ترميمات طفيفة في العهد المملوكي.

[22] يقصد (حامية القلعة).
[23] المقصود بذلك: الستائر والشرافات وبعض الرواشن.

المبحث الثالث (القلعة المملوكية):

أ- الإطار التاريخي (لمحة عن تاريخ دمشق في العهد المملوكي):

انتهى العهد الأيوبي في الشام إثر عدوان المغول الذي قاده هولاكو وسقوط دمشق بأيديهم سنة 1259/658، وبذلك زال حكم الأيوبيين من الشام نهائيا[24]. وبقي التتار في دمشق أشهر معدودات (من 22 جمادى الآخرة إلى 27 رمضان من عام 658هـ)، حيث طردوا منها اثر معركة عين جالوت المشهورة التي خاضها المماليك بقيادة السلطان سيف الدين قطز. ودخل المماليك في أثرها دمشق. وأصبحت الشام بكاملها ولايات تحت سيادة المماليك، منذ ذلك التاريخ من عام 1259 وحتى عام 1519 *(ريحاوي، 1996، ص33-34)*.

حظيت دمشق في عهد المماليك بمكان مرموق، وأصبحت بمثابة العاصمة الثانية للدولة، يقيم فيها السلاطين من وقت لآخر، ويتخذونها مركزاً لعملياتهم العسكرية ضد الصليبيين والمغول، الأمر الذي حفظ لدمشق مركزها السياسي والحربي في أيام نور الدين وصلاح الدين الأيوبي *(المصدر السابق، ص34-35)*.

ويذكر لنا صلاح المنجد نقلاً عن ابن فضل الله العمري في قطعة من مخطوطة مسالك الأبصار، بأنه كان يوجد في دمشق وظائف ودواوين ومؤسسات، مهيأة لتقوم مقام عاصمة السلطان عند اللزوم. عبر عن ذلك العمري بقوله:" وبدمشق كل ما في مصر من الوظائف وليس هذا في بقية بلاد الشام. مثل قضاء القضاة من المذاهب الأربعة، وقاضي العسكر، وخزانة تخرج منها الإنفاقات والخلع وخزائن السلاح وزردخانات[25]، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة حتى لو حضر السلطان جريدة[26] وجد بها ممن كل الوظائف القائمة بدولته *(المنجد، مجلد3، 1957، ص120)*.

واعتبرت ولاية دمشق في العصر المملوكي من أكبر نيابات الدولة وأهمها، وقد أطلق عليها اسم "نيابة الشام ". وامتدت حدودها في ذلك العصر بحيث وصلت إلى الفرات عند الرحبة[27] وجعبر شرقاً، وإلى الرستن شمالاً، وإلى حدود غزة جنوبا. وكانت نيابة الشام تضم: دمشق، القدس، بيسان، غزة، اللد، الرملة، نابلس، عجلون، حوران، جبل عامل، بيروت، صيدا، حمص، السلمية، تدمر، الرحبة، وجعبر. ولكن أحياناً كانتا القدس وغزة تخرجان عنها، فيكون لكل منهما نائب خاص. وكان والي دمشق من اكبر الولاة، يجري اختياره من بين رجال الدولة المرموقين. وكانت توكل إليه مهمة الإشراف على سائر ولايات الشام الأخرى كحلب، حماة، طرابلس، وصفد، كما كان يكلف باعمال عسكرية واسعة النطاق للقضاء على العصيان أو للوقوف في وجه عدو خارجي، وذلك بما خصت به دمشق وقلعتها من القوات والمعدات ومصانع السلاح والذخيرة *(ريحاوي، 1996، ص35-36)*.

---

[24] بقيت حماة في أيدي الأيوبيين، وحكمها في ظل دولة المماليك ملوك من أسرة شاهنشاه بن أيوب، اشتهر منهم المنصور محمد الذي استمر حكمه حتى عام 683هـ/1284م وابنه المظفر محمود (توفي سنة 698هـ/1298م)، ثم أخذت حماة من الأيوبيين في بداية القرن الثامن، ثم عادت اليهم في عهد أبي الفداء اسماعيل سنة 710هـ/1310م وقضى على الأيوبيين نهائيا عند عزل ابنه الأفضل محمد سنة 742هـ/1341م *(العطار، 1947، ص159)*.1

[25] مستودعات الدروع كانت تسمى أيضا بالزرديات لأنها مصنوعة من الزرد *(ريحاوي، 1979، ص99)* .

[26] جريدة: الحملة المسرعة المتخففة من أثقالها ومعداتها *(معلوف، 1912، ص112)* .

[27] كانت موجودة عند بلدة الميادين الحالية الواقعة على الفرات، وإلى جوارها توجد اليوم قلعة الرحبة *(ريحاوي، 1979، ص99)*.

ويضيف الريحاوي بأن دمشق عاشت في حكم المماليك فترة زمنية بلغت 264 عاماً، وقد قسم المؤرخون تلك الفترة إلى مرحلتين *(المصدر السابق، ص36-37)*:

- الأولى: دور المماليك البحرية (الأتراك)، وامتدت ما بين 1259/658 و 1382/784.
- الثانية: دور المماليك الشراكسة أو الجراكسة، وامتدت ما بين 1382/784 و 1516/922.

وقد عرفت الفترة الأولى من العهد المملوكي سلاطين عظماء أمثال الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وابنه الناصر محمد، جاهدوا في سبيل طرد الغزاة وتوسيع رقعة الدولة وإعطائها القوة والمنعة، وحظيت البلاد في عهدهم بالأمن والإستقرار وازدهرت المشاريع العمرانية والصناعات، ونشطت التجارة والثقافة *(المصدر السابق، ص37)*.

ويذكر محمد مصطفى نقلاً عن ابن إياس، بأنه في أواخر القرن الثامن كثرت حركات العصيان والمؤامرات بين أمراء المماليك، وتسلم أمور الحكم صعاليك المماليك ممن ليس له مكانة ولا هيبة ولا تدبير أو سياسة، فكان منهم من هو دون سن البلوغ أمثال أولاد الناصر محمد بن قلاوون الذين كانوا يساقون إلى السلطنة ثم يتم خلعهم عن الحكم أو يقتلون *(مصطفى، ج1، 1951، ص176-201)*.

إلا أنه شذ عنهم عدد قليل من السلاطين ممن اتيح لهم أن يحكموا مدة كافية، فقد قاموا ببعض الإصلاحات والمشاريع العمرانية، ومن هؤلاء السلاطين ثلاثة حكموا مدة 15 عاماً وهم: الأشرف برسباي 825-841هـ *(المصدر السابق، ج2، ص23)*، والظاهر جقمق 842-857هـ *(المصدر السابق، ص34)*، والأشرف قايتباي 872-901هـ *(المصدر السابق، ص297)*.

وانعكست آثار الفوضى والعصيان والتنافس بين الأمراء على المناصب وأوضاع البلاد، وكانت دمشق في أكثر الأحيان ملجأ للعصاة والمتآمرين والطامعين في الحكم، فألحقت تلك الأحداث فيها الأذى والتأخر *(مصطفى، ج1، 1951، ص335)*.

ووقعت فريسة للتتار بعد أن تخلى عنها المماليك. ودخل تيمورلنك دمشق في عام 1401/803، فنهب كل خيراتها وأموالها وسبى النساء، وقتل الكثير من رجالها بعد أن أذاقهم ألوان العذاب، إلا أنه أبقى منهم كل صاحب مهنة أو فن ليأخذه إلى عاصمته سمرقند. ثم أشعل ناراً في المدينة ظلت تأكلها 3 أيام. بعدها خيّم الظلام على خرائب وأطلال خاوية ليس فيها سوى الجثث والكلاب، وأطفال دون الخامسة هائمين على وجوههم *(ريحاوي، 1996، ص37-38)*.

وعاد المماليك إلى دمشق بعد رحيل تيمورلنك، فعملوا على إزالة آثار الكارثة، ورفع الأنقاض، وراح السلاطين يحثون لنواب على الإعمار. فدبت الحياة في المدينة شيئاً فشيئاً، ولاحت مظاهر الإزدهار *(المصدر السابق ص38)*. ولكن العصر تغير بعد ذلك، فدب الفساد والوهن مرة اخرى في أوصال الدولة المملوكية، وكثرت المجاعات والأوبئة، وتفشت الفوضى وكثرت تعديات البدو، وشلت حياة المدن والقرى، وشغلت الدولة بالحروب مع جيرانها ملوك العجم والأتراك العثمانيين، مما كلفها الكثير من الخسائر المادية والبشرية. وانتهت دولة

المماليك على يد العثمانيين سنة 1516/922 في معركة مرج دابق حيث تشتت فيهـا جـيش المماليك، وفتح الطريق أمام السلطان سليم العثماني ليضم الشام ومصر إلى سلطانه بـسهولة ويسر دون مقاومة تذكر *(مصطفى، ج3، 1951، ص195-198)*.

ب- دور القلعة السياسي:

عاشت القلعة أهم أدوار حياتها في العهد المملوكي بسبب طول مدة حكـم المماليـك والتي امتدت في الفترة بين 1259/658 و 1516/922.

لم تبق دمشق هي العاصمة للدولة الإسلامية كما كانت في السابق، وأصبحت القاهرة هي العاصمة، ولكن بقي لدمشق مكانتها الخاصة، وتميزت كنيابة من نيابات الدولة على سائر النيابات *(ريحاوي، 1996، ص34)*، فكان طبيعياً أن يكون لقلعتها أيضا شأناً خاصـاً، فهـي قلعة السلطان ورمز سلطنته في حضوره وفي غيابه، فإن حضر إلى دمشق لأمر من الأمور، اتخذ من القلعة دار ملك وسلطان وكأنه في مقر حُكمه في قلعة القاهرة. فكان يجد فيها سرير الملك جاهزاً في قاعة خاصة، ويجد كل ما يُسهّل له أمور الحُكم. فتنتقل بوصوله إلـى قلعـة دمشق كل ألوان النشاطات والإحتفالات السلطانية، أما في غيابه فكان للسلطان نائب خاص في القلعة، مستقل عن نائب السلطنة في دمشق، فكان هذا الأخير يقيم خارج القلعة في دار السعادة *(المصدر السابق، ص34)*.

وقد لاحظ القلقشندي هذا الوضع الخاص فوصفه بما يلي: " ولهذه القلعة نائب بمفردها غير نائب دمشق يحفظها للسلطان، ولا يمكّن أحداً من طلوعها من النائب وغيره. وإذا دخـل السلطان دمشق، نزل بها. وبها تخت ملك كغيرها من ديار الملك *(القلقـشندي، ج4، 1913، ص93)*".

مما سبق نستنتج أن قلعة دمشق كانت مستقلة بشكل عام، وكان لها كيانها الخـاص، وكان نواب دمشق في الأحوال الطبيعية يحترمون هذا الإستقلال الإداري للقلعة.
ولتوضيح دور القلعة السياسي يجب دراسته من ثلاثة وجوه، الأول يتعلق بعلاقـة القلعـة بالسلطان، والثاني يتعلق بعلاقتها بنائب السلطنة في دمشق، والثالث يتعلق بعلاقتهـا بنائـب القلعة.

أولاً: القلعة والسلطان:
تتجلى أهمية علاقة قلعة دمشق بالسلطان في الفترة المملوكية من خلال الأحداث التالية:

- كان الظاهر بيبرس في بداية عصر المماليك يتردد كثيراً على الشام وقد جعـل مـن دمشق عاصمة ثانية، يقيم فيها أشهراً، يجهز الجيوش ويقود الحمـلات إمـا لحـرب الفرنج في الساحل، أو لحرب الإسماعيلية والإستيلاء على قلاعهم في جبال العلويين في الشام، أو لمحاربة الأرمن في بلاد سيس (أرمينيا الصغرى) الواقعة على الحـدود الشمالية في الأناضول والتي كانت تعرف بالثغور والعواصم. وأحيانا لطرد التتار من الأطراف الشرقية من البلاد. فكان الظاهر ينزل في قلعة دمشق، وهذا ما جعله يهـتم بترميمها وتشييد القاعات الملكية فيها. حتى بعد أن تم بناء قصره الأبلق، فقـد بقـي يتردد بينه وبين القلعة، وقت إقامته في دمشق *(ريحاوي، 1996، ص90)*. ويـذكر مصطفى زيادة نقلاً عن المقريزي، بأن الظاهر بيبرس لم يكن يمض عام من أعـوام

حُكمه(676/658هـ) دون ان يأتي إلى دمشق مرة أو أكثر. فكان كثير التنقل والسفر من أجل الجهاد والفتح والتحرير، والإطلاع على أحوال الدولة أكثر من أي سلطان مملوكي آخر. وشاءت الأقدار أن يتوفى في دمشق، وكان وقتئذ بالأبلق، فاتفق الأمراء على كتم خبر وفاته وحُمل جثمانه في تابوت ورفعوه إلى قلعة دمشق من السور، ووضعوه في بيت من بيوتها إلى أن تمكنوا من استدعاء ابنه السعيد إلى دمشق وتجديد البيعة له. بعد ذلك أعلنوا خبر الوفاة وتم نقل جثمانه إلى تربته في المدرسة الظاهرية *(زيادة، السلوك، 1934، ص221)*.

وبقيت القلعة مقراً لسلاطين المماليك بعد الظاهر بيبرس، ينزلون فيها عند حضورهم للشام.

كما تبرز خصائص القلعة السلطانية من خلال مراسم واحتفالات السلطنة، فقد تقلد السلطنة في قلعة دمشق عدد من السلاطين، منهم:

1- السلطان الظاهر ططر (1421/824):

وكان قد جاء مع السلطان الطفل (المظفر أحمد) بن المؤيد شيخ للقضاء على عصيان نائب دمشق الأمير جقمق، فلما انتصر على جقمق، خلع السلطان الصغير وعيّن نفسه سلطاناً، ويصف لنا ابن كثير احتفال التولية فيقول: " ولبس ططر خلعة السلطنة من قصر قلعة دمشق وركب بشعار السلطنة وأبهة المُلك، وحضر الخليفة والقضاة بقلعة دمشق وبايعوه بالسلطنة بحضرة الملأ من الأمراء والخاصكية ... واستمر بقلعة دمشق وعمل الخدمة السلطانية بها وخلع على الخليفة والقضاة وعلى أعيان الأمراء *(ابن تغرى بردى، ج14، 1952، ص198-201)*".

2- سلطنة الملك العادل طومان باي في دمشق سنة 1500/906:

حيث حضر طومان باي إلى دمشق بجيش كبير للقضاء على عصيان نائبها (قصروه) فاستقبله قصروه بموكب حافل واتفق معه على توليه السلطنة. وينقل لنا محمد دهمان وصف ابن طولون للإحتفال فيقول: " وركب الجميع من القصر[28]، وبيد طومان باي طبر كبير[29] والنائبيده عصا، ودخل الكل من باب السر إلى القلعة، وصعد المؤيد طومان في الحال إلى طارمة القلعة وأظهر الترس السلطاني فاشتهر أنه السلطان الملك المؤيد .... وحضر القضاة الأربعة وأظهروا له البيعة. وفي صبيحة يوم السبت، حضر القضاة والأمراء وألبس السلطان الأسود الخليفتي وجلس على كرسي الملك بقلعة دمشق وجلس عليه معه القضاة فقط والأتابكي قصروه فمن دونه وقوف إلى جانب الكرسي وقدّامه، فبايعه القضاة.... ونقل السلطان لقبه من (المؤيّد) إلى (العادل) ونقش له بذلك على أركان داخل القلعة وفي دار الضرب وغير ذلك *(دهمان، 1964، ص122)*".

ونستنتج من النص السابق أن من بين علامات السلطنة " الطبر" و "الترس السلطاني" . كما كان هنالك أيضاً علامات سلطانية موجودة في القلعة لمثل تلك المناسبات ورد ذكرها عند ابن كثير في حدث وقع سنة 1346/747 بمناسبة عزل السلطان المظفر حاجي في القاهرة، وقد رفض نائب السلطنة في دمشق أن يخضع لذلك الإجراء. وفي ذلك يقول ابن

---

[28] القصر: يعني به القصر الأبلق.

[29] الطبر: لفظة فارسية معناها الفأس، وهو من العلائم السلطانية، ويحمله عادةً رجل من خواص السلطان عند ركوبه في المواكب.*(القلقشندي، ج5، 1915، ص458)*.

كثير: " وعندئذ اجتمع أمراء الجيش تحت القلعة وأحضروا منها سنجقين سلطانيين اصفرين، وضربوا الطبول حربيا، واجتمعوا كلهم تحت السنجق السلطاني وساروا إلى النائب في الطيلخانات والبوقات ملبسين لامة الحرب *(ابن كثير، ج14، 1932، ص222)*".

ومن مظاهر تبعية القلعة للسلطان أيضاً، ما فرض على نائب السلطنة في دمشق من أداء واجب الخضوع للسلطان قبل استلامه منصبه، أمام القلعة وأصبح ذلك تقليداً متبعاً. ويصف لنا أبو البقاء الإحتفال الخاص بذلك التقليد الدال على صفة القلعة ومكانتها السلطانية فيقول " واصطلح في آخر دولة ابن قلاوون[30] أن من يولي نيابة دمشق أن يصلي عند الباب ركعتين مستقبل القبلة بحيث يبقى الباب على يساره ويقف اجناد القلعة وأرباب الوظائف والأتراك في منازلهم حسب العادة متحملين السلاح، إلى أن يفرغ من صلاته ودعائه، فإن أربد به شر قبض عليه، ودخلوا به من ذلك الباب، ويقفلون الجسر بينهم وبين أعوانه، فإن الجسر بلوالب يحيل بينهم، وإن أربد به خير ركب في عزة ووجوه الدولة في خدمته إلى أن ينزل دار العدل التي أنشأها المرحوم نور الدين الشهيد، وهي التي تسمى اليوم دار السعادة *(ابو البقاء، 1341، ص26)*". الباب المشار اليه في النص هو باب القلعة الغربي ويُعرف بباب السر، لأنه الوحيد الذي يكون على يسار الشخص الواقف باتجاه القبلة.

ويروي ابن كثير خبر ولاية الأمير سيف الدين يلبغا نيابة السلطنة سنة 1345/746، فيقول: " فنزل عند باب السر، وقبّل العتبة على العادة، ثم مشى إلى دار السعادة *(ابن كثير، ج14، 1932، ص217)*". نلاحظ هنا من خلال النص بأن العبارة التي استخدمها ابن كثير تعتبر دليلاً قوياً على الخضوع، وتأكيداً لمكانة القلعة في كونها ترمز للسلطان.

كما يروي محمد دهمان ما يرويه المؤرخ ابن طولون من خبر ولاية قايتباي الحمزاوي سنة 1454/859، فيقول: " فلما وصل تحت القلعة سار على العادة ثم قصد دار السعادة. فلما وصل إلى باب السر فتح له ووضعت أوائل دهليز الخشب التي هي أوائل جسر الخشب المعلق على الخندق، فنزل ودخله وصلى خلفه على الخشب التي هي أوائل الجسر الأخذ إلى داخل القلعة ركعتين بحضرة الدولة وأهل القلعة، ثم عاد وخرج منه وركب ودخل دار السعادة ونزل بها على العادة *(دهمان، 1964، ص54)*".

ويقدّم لنا ابن طولون تفاصيل أكثر عن هذه العادة كما يصف نائب السلطنة بالطيش لأنة شذ وصعد إلى الطارمة، وهي خاصة بالسلطان كما سبق وذكرنا، فيقول: " إن كرتباي الأحمر حين تولى النيابة سنة 1497/903 دخل دمشق مدخلاً حافلاً، وكان معه نائب حلب ونائب غزة فساروا على العادة تحت القلعة سبع مرات، ثم أتى النائب المذكور إلى باب السر فصلى على العادة، ثم دخل القلعة، ثم صعد إلى الطارمة، وأظهر نفسه للناس فتبين لهم أنه طائش خفيف، ثم نزل وركب من باب السر المذكور إلى دار العدل فقرئ تقليده على العادة *(المصدر السابق، ص85)*".

ومن هنا نتبين أن تقاليد الإحتفال تختلف عندما يكون السلطان موجوداً في القلعة، فعند ذلك لا لزوم لأن يبدي النائب خضوعه للسلطان بتقبيل عتبة قلعته أو صلاة ركعتين على بابها، ففي حال وجود السلطان يقدّم النائب آيات الخضوع داخل القلعة أمام حضرة السلطان. كما يوضح لنا ذلك ابن طولون في روايته التالية:

[30] السلطان المقصود هنا هو الناصر بن محمد بن المنصور قلاوون الذي حكم حتى عام 744هـ/1343م.

" حينما تولى طومان باي السلطنة في دمشق سنة 1500/906 وأقام بقلعتها، استدعى نائب حلب ليوليه نيابة دمشق. فدخل هذا النائب على السلطان من باب النصر[31] إلى أن أتى باب القلعة الشرقي، فلما وصل إلى الحضرة قبل له الأرض وسلم عليه على العادة ثم رجع من حيث أتى *(المصدر السابق، ص123)*".

ثانيا: القلعة ونائب السلطنة:

تبين من خلال الفقرة السابقة الخصائص السلطانية للقلعة وتبعيتها للسلطان، وقد ترتب على ذلك أن يكون لها نائب خاص وأن تكون مستقلة في جميع شؤونها عن نائب دمشق. وقد توطد هذا الإستقلال مع مرور الزمن وخاصة منذ أن تنبه السلاطين إلى أهمية القلعة في مراقبة نائب السلطنة في دمشق ومنعه من التمرد والعصيان وبخاصة بعد أن استخدمها عدد من النواب في تحقيق أطماعهم في الإستقلال عن القاهرة أو ادعاء السلطنة.

ونلاحظ بعض الغموض والتناقض أحيانا بين المصادر في بداية العهد المملوكي حول هذا الموضوع، حتى يبدو لنا أحياناً أن وجود نائب خاص للقلعة لم يكن ملزماً في البداية. ويتضح ذلك فيما يلي:

- نقلت جاكلين سوبلة ما ذكره "ابن الصقاعي"في مؤلفه تراجم " تالي كتاب وفيات الأعيان" بأن السلطان قطز حين دخل دمشق بعد معركة عين جالوت سنة 1259/658 جعل فيها الأمير عز الدين سنجر الحلبي نائباً، وأمر بعمارة القلعة وولى الأمير عز الدين أيبك الزراد لعمارة القلعة *(سوبلة، 1974، ص129)*.
- ويذكر "ابن كثير" في "البداية والنهاية" بأنه عندما تولى السلطان الظاهر بيبرس وقضى على إستقلال سنجر الحلبي في دمشق سنة 1260/659، وعيّن الأمير علم الدين ايدكين البندقداري نائباً على دمشق، تضاربت المعلومات حول نيابة القلعة. فإبن كثير يروي الخبر ونفهم منه أن ايدكين كان نائباً على دمشق وقلعتها. فيقول: " فأخذها[32] وسكن قلعتها نيابة عن الظاهر *(ابن كثير، ج13، 1932، ص230)*".
- بينما يقول ابن الصقاعي عندما تحدّث عن ايدكين المذكور: " عيّن نائباً في دمشق حين تولى الظاهر السلطنة وأقام بدار السعادة، وأقام طيبرس الوزيري بقلعة دمشق *(سوبلة، 1974، ص17)*" ويضيف في ترجمة طيبرس: " لما تملك الظاهر أرسله إلى الشام بصحبة الأمير ايدكين، النائب بدمشق، يقيم بقلعة دمشق نائباً، فأقام مدةً يسيرة ونقل إلى النيابة[33] ولم يخرج من القلعة *(المصدر السابق، ص93)*".

ورواية "ابن الصقاعي" تبدو أقرب إلى الدقة من رواية ابن كثير لأنه عاصر الأشخاص الذين تحدّث عنهم، لأنه توفي سنة 726هـ.

ولم تظهر وظيفة نائب القلعة بوضوح إلا في عام 1279/678، وذلك عندما تتحدث عن خبر عزل الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس والقبض على نائب دمشق عز الدين ايدمر.

[31] المقصود بباب النصر هنا (باب المدينة الغربي).
[32] يقصد "دمشق."
[33] يقصد "نيابة دمشق"

حيث ذكر ابن كثير في هذا الخبر عبارة : "وسجن في قلعة دمشق عند نائبها علم الدين سنجر الدواداري *(ابن كثير، ج13، ص288)*".

لذلك نستنتج بأنه منذ ذلك التاريخ اصبح استقلال القلعة واضحا، فليس لنائب مدينة دمشق عليها سُلطة، فهي رمز للسلطان ولها حرمة ولا يجوز لنواب دمشق انتهاكها. وفعلاً فإن نائب السلطنة لم يكن يمد سلطانه إلى القلعة إلا حين ينوي العصيان أو يدّعي السلطنة.

ثالثاً: نائب القلعة:

لاحظنا بأن وظيفة نائب القلعة كانت موجودة منذ البداية (العهد السلجوقي)، أما في العهد المملوكي فقد اكتنف هذه الوظيفة بعض الغموض والتناقض في بدايته، إلى أن ترسخت تلك الوظيفة بيد الظاهر بيبرس واصبح وجود نائب للسلطنة يتولى أمور قلعة دمشق أمر تقليدي.

ومما يلفت النظر في الأخبار التي ترويها المصادر بأن السلطان في العهد المملوكي كان يقوم بتعيين نائبين اثنين في نفس الوقت. وذلك من خلال خبرين:

- **الأول:** يرويه ابن كثير، ويرجع لعام 1300/700 في فترة ولاية "آقوش الأفرم" على دمشق، حيث جاء مرسوم من السلطان يأمر بأن تكون نيابة القلعة بالمشاركة بين "ارجواش" والأمير "سيف الدين اقبغا"، فيتولى أمور القلعة "أرجواش" يوما، والأمير سيف الدين اقبغا اليوم التالي *(ابن كثير، ج14، 1932، ص16)*".

- **والثاني:** يرويه مصطفى زيادة عن المقريزي، ويرجع لعام 1312/712، كما يلي: "وفيها[34] استقر في نيابة قلعة دمشق عز الدين الجمالي عوضاً عن بلبان البدري، ثم كتب بأن يكون بلبان شريكاً له، فباشرا جميعا *(زيادة، ج2، 1934، ص120)*".

ويلفت النظر أيضاً في أواخر العهد المملوكي، ظهور وظيفة "نقيب القلعة" إلى جانب نائب القلعة، وكان نقيب القلعة يتم تعيينه من قبل السلطان. إلا اني لم أستطع العثور على تاريخ البدء بهذا المنصب، فقد جاء في أحداث سنة 1499/905 في الخبر الذي أوردهمحمد دهمان عن ابن طولون عن عصيان نائب السلطنة قصروه ومحاولاته الإستيلاء على القلعة *(دهمان، 1964، ص103-109)*.

كما تكرر في المصادر ذكر النقيب إلى جانب النائب، مما يدلنا على أنهما وظيفتا منفصلتان. وربما كان النقيب ينوب عن نائب القلعة في حالة تغيبة عن القلعة لظرف من الظروف.

ج- دور القلعة الحربي:

واجهت قلعة دمشق عدداً من حالات الحصار خلال غزوات المغول، وحركات العصيان المتعددة، وأحداث الصراع القائم بين السلطان ونواب السلطنة، أو بين هؤلاء ونوّاب القلعة. فكيف واجهت القلعة تلك المواقف، وقامت بدورها كحصن دفاعي:

---

[34] يقصد سنة 1312/712.

1- رأينا بأن أول تجربة مرت بها القلعة في الفترة الملوكية كانت سنة 1259/658، عندما حاصرها التتار واستولوا عليها وهدموا مواضع منها *(سويلة، 1974، ص90)*. وقد حوصرت القلعة للمرة الثانية من قبل التتار أيضاً، كان ذلك في عام 1299/699، وكانت الغزوة المشهورة بموقعة "قازان" التي انكسر فيها المماليك بقيادة السلطان الناصر وذلك في معركة قرب السلمية (شرقي حماة)، ورجع السلطان والمماليك في أثرها إلى مصر وتركوا دمشق لأهلها يدافعون عنها، ثم حصل علماء دمشق على الأمان من جيش قازان، إلا أن نائب قلعة دمشق في ذلك الوقت والذي كان يُدعى "ارجواش" رفض الإستسلام، وقام بتحصين القلعة، وأحرق ما حولها من المباني حتى لا يستخدمها التتار في ضرب القلعة *(المصدر السابق، ص91)*. عند ذلك عمد التتار إلى محاصرة القلعة ووضعوا المجانيق في صحن الجامع الأموي، وعيّنوا حرساً في مشاهد الجامع لحراسة المجانيق، فأرسل نائب الجامع القلعية[35] إلى الجامع وقاموا بكسر المجانيق ورجعوا مصطحبين معهم عدداً من جماعة التتار كأسرى حرب *(ابن كثير، ج9، 1932، ص140)*[36]. وقد حاول نائب القلعة أن يعقد صلحاً مع الأمير سيف الدين قبجق، فلم يستجب لدعوته وبقي على ثباته ثم أرسل من ينادي بقدوم العساكر المصرية، وأدى ذلك إلى انسحاب التتار من المدينة، وعندها وضع نائب القلعة يده على المدينة وأغلق أبوابها وأمر الناس بأن يحملوا السلاح ويبيتوا على الأسوار *(المصدر السابق ج14، ص6-7)*. وأنذر من يبيت في داره بالشنق، ويعبر ابن كثير عن ذلك الموقف بقوله: " كان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام، فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام *(المصدر السابق، ص7)*.

2- والموقف الحربي الآخر الذي وقفته القلعة في العهد المملوكي كان في عام 1401/803 عندما هاجمها التتار بقيادة "تيمورلنك" الغزوه التي تقدم الحديث عنها. ونصف هنا حالة الحصار والدور الذي لعبته القلعة وأسلحتها في هذه المعركة، وفيما يلي تلخيص ذلك عن ابن تغري بردى *(ابن تغري بردى، ج12، 1952، ص227-246)* الذي كان بالنسبة لوالده كأمير من أمراء المماليك وكنائب للسلطنة في دمشق في تلك الأحداث:

كانت القلعة قبل وصول التتار قد استعدت للحصار ونصبت المجانيق في أعاليها، بينما نصبت المكاحل على أسوار المدينة. وبعد هرب جيش المماليك ولجوء تيمورلنك الى الحيلة في الإستيلاء على مدينة دمشق بقيت القلعة صامدة، وحاصرها تيمورلنك مدة تسعة وعشرين يوماً، قام خلالها برميها بالمدافع. وبنى مقابلها قلعة من خشب، وحين صعد إليها التتار ليقاتلوا أهل القلعة من أعلاها، رموا عليها أهل القلعة نفطاً فأحرقوها عن آخرها، فأقام التتار قلعة ثانية أعظم من الأولى وصعدوا اليها وقاتلوا حماة القلعة *(المصدر السابق ص245)*. ثم يئس المدافعون من وصول النجدة اليهم فاستسلموا. ويعلق ابن تغري بردى على حادثة استسلام القلعة بقوله: " هذا وليس بالقلعة من المقاتلة إلا نفر قليل دون الأربعين نفراً، لا شلت يداهم، هؤلاء هم الرجال الشجعان رحمهم الله *(المصدر السابق، ص246)*".

---

35 القلعية: حرس القلعة.

36 بينما يروي ابن حجر العسقلاني هذا الخبر بشكل مغاير فيقول: " التتار صعدوا فوق سطح دار السعادة ورموا القلعة بالنشاب، فرمى عليهم أرجواش النفط *(العسقلاني، ج2، 1932، ص170)*".

ولما فتح العثمانيون دمشق في عام 1516/922 لم يكن للقلعة دور يذكر، فقد استسلمت المدينة بعد مقتل السلطان الغوري وهزيمة المماليك في معركة مرج دابق شمالي حلب. وكذلك استسلمت القلعة، فخرج نائبها إلى القائد العثماني "يونس باشا" الذي وصل قبل وصول السلطان سليم، واتفق معه على بقائه في منصبه بالقلعة لحين حضور السلطان العثماني سليم إلى القلعة حيث خرج نائب القلعة المملوكي ومعه مفاتيحها، ويقول في ذلك محمد دهمان نقلاً عن ابن طولون: " قبض عليه وعلى جماعته، ووجههم إلى استانبول مرسم عليهم[37] *(دهمان، 1964، ص219)*.

أما دور القلعة في حركات العصيان والثورات ضد السلطان فقد كان محدوداً، فقد مر فيها كما ذكرنا سابقاً عدد من حالات العصيان والثورات التي قام بها بعض نواب السلطنة أمثال سنجر الحلبي، سنقر الأشقر، بيدمر، تنم، قصروه، وغيرهم من الأمراء العصاة الخارجين على السلطان. فكان يجري خلال تلك الفتن تحصين للقلعة وقفل أبوابها وإعدادها للمقاومة، واستخدام ما كان معروفاً من الأسلحة في ذلك الوقت.

ومن أهم حالات الحصار التي واجهتها دمشق وقلعتها من جراء الفتن الداخلية هو ما حدث في عام 1412/815 عندما خرج الناصر فرج إلى الشام ليتمكن من العصاة من أمراء المماليك بزعامة نوروزو وشيخ المحمودي، فلم يتمكن منهم وهرب إلى دمشق وتحصّن بها، وحصّن اسوارها وقلعتها، ودارت معارك ضارية حول أسوار المدينة والقلعة. وصفها ابن تغري بردى بشكل مفصل فيقول: " إن السلطان حصّن القلعة بالمجانيق والمدافع الكبار وأتقن تحصين القلعة بحيث أنه لم يبق سبيل للتوصل إليها بوجه من الوجوه. *(ابن تغري بردى، ج12، 1952،ص144، 145)*".

وبعد سقوط المدينة، يقول في ذلك: " طلع السلطان إلى القلعة والتجأ بها وقد أشحنها، وأحاط أعداؤه بالقلعة، فرمى عليهم من اعلاها بالمدافع والسهام *(المصدر السابق، ص196)*".

العمليات الحربية وفنون القتال:

1- **إغلاق أبواب القلعة:** كانت أول بادرة من بوادر الحصار إغلاق أبواب القلعة وخاصة بابها الشرقي المفتوح على المدينة. وكان لهذا الباب باب صغير مفتوح في الباب الأصلي الكبير يسمى "خوخة". ويذكر لنا ابن كثير في حديثه عن حوادث سنة 1291/696 عن ثورة الجيش على الملك العادل كتبغا ما يلي: " فأغلق باب القلعة الذي يلي المدينة، ودخل الصاحب شهاب الدين المحتسب اليها من ناحية الخوخة *(ابن كثير، ج13، 1932، ص348)*". كما يذكر في حوادث سنة 1357/762 خبر استيلاء نائب السلطنة بيدمر على القلعة فيقول: " فأغلقت القلعة بابها المسلوك الذي عند دار الحديث[38] *(المصدر السابق ج14، ص280)*". وكانت الأبواب الخارجية (الشمالي والغربي) المؤدية إلى خارج المدينة مزوّدة بجسور معلقة ترفع عند الحصار. أما أبواب القلعة المؤدية لداخل المدينة فكانت مزوّدة بسلاسل حديدية توضع في مقدمة الجسر الثابت لتمنع الدخول إلى القلعة عند إغلاق أبوابها. فقد ذكر ابن كثير خبراً في حوادث سنة 1361/763 قال فيه: " بعد العشاء وقبل دقة

[37] يقصد بأمر من السلطان أو بمرسوم منه.
[38] يقصد به الباب الشرقي.

القلعة[39]، دخل فارس من ناحية باب الفرج إلى ناحية باب القلعة الجواني. ومن ناحية الباب المذكور سلسلة، ومن ناحية باب النصر أخرى جددتا لئلا يمر راكب على باب القلعة. فساق على الأخرى فقطعها ثم ساق على الأخرى فقطعها، وخرج من باب النصر *(المصدر السابق، ص295)*". نلاحظ هنا من عبارة (جددتا) بأن السلسلتين كانتا أداتين قديمتين لتحصين أبواب القلعة. وبالإضافة إلى إغلاق أبواب القلعة فقد كانت تغلق أيضاً أبواب المدينة المجاورة لها كباب الفرج وباب النصر.

2- **نقل المؤن إلى القلعة:** كان الأمير الثائر المستولي على القلعة يجلب اليها المؤن والأطعمة والغلات والأمتعة. وقد أشار ابن طولون إلى واحد من أصناف هذه المؤن المدخرة في القلعة من أجل الحصار وسمّاه (القاورما) المصنوع من لحم البقر *(دهمان، 1964، ص118)*.

3- **استخدام الأسلحة والذخائر:** مر عند الحديث عن حوادث الحصار ذكر بعض أنواع الأسلحة التي كانت تستخدم في ذلك الوقت مثل المنجنيق، المكحلة، السهام الخطائية، قوارير النفط، النشاب، والمدافع. ويجب أن نشير هنا إلى المنجنيق بأنه سلاح كان يستخدم في الهجوم والدفاع. فكان المحاصرون يضربون القلعة من الخارج بالمجانيق، والمدافعون عن القلعة كذلك يستخدمون المجانيق المنصوبة على الأبراج. وقد كانت تنصب على الأبراج في حالات الحصار والحروب. وظل استخدام المجانيق شائعاً حتى منتصف القرن التاسع الهجري، بالرغم من استعمال المكاحل (المدافع). وكانت ذخيرة المجانيق هي الأحجار، وقد قدّم لنا ابن كثير وصفاً لأحد مجانيق القلعة وحجارته، فيقول في خبر ارسال هذا المنجنيق من قلعة دمشق سنة 1342/743 لحصار قلعة الكرك التي تحصّن بها السلطان أحمد بن المنصور قلاوون: " وبرز المنجنيق من القلعة[40] إلى قبلي جامع القبيبات[41] فنصب هناك وخرج الناس للتفرج عليه، ورمي به ... وفي هذا الشهر نصب المنجنيق الكبير على باب الميدان الأخضر[42]، وطول أكتافه ثمانية عشر ذراعاً، وطول سهمه سبعة وعشرون ذراعاً، وخرج الناس للفرجة عليه، ورمي به يوم السبت حجراً زنته ستين رطلاً، فبلغ إلى مقابلة القصر[43] من الميدان الكبير *(ابن كثير، ج14، 1932، ص203-207)*".

---

[39] سيأتي الحديث عن دقة القلعة بالتفصيل لاحقا.

[40] أي قلعة دمشق.

[41] القبيبات محلة جنوبي دمشق في الميدان الفوقاني، أما جامع القبيبات فربما قصد به المسجد الكريمي الذي يدعى اليوم مسجد الدقاق.

[42] الميدان الأخضر، المرج الممتد على ضفاف بردى من غربي القلعة إلى موقع التكية السليمانية.

[43] يقصد به القصر الأبلق.



صورة رقم (1):احدى القذائف الحجرية التي تم العثور عليها داخل قلعة دمشق (المتحف الوطني).

ثم ظهر سلاح جديد سمي المكحلة والمدفع الذي تم استخدامه في حصار تيمورلنك لدمشق وهو سلاح ناري. ولعل اسمه جاء من تشبيهه بإناء الكحل. يقول فيه القلقشندي: " مكاحل البارود وهي المدافع التي يرمى عنها بالنفط وحالها مختلف، فبعضها يرمي عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر، وبعضها يرمى عنه ببندق[44] من حديد من وزنة عشرة أرطال بالمصري أي ما يزيد على مائة رطل، وقد رأيت بالإسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان[45] بها مدفعاً قد صنع من نحاس ورصاص وقيد بأطراف الحديد رمي عنه بالميدان ببندقة من حديد عظيمة محماة.. الخ ***(القلقشندي، ج2، 1913، ص137)***".

وبينما نلاحظ أن المكحلة هي المدفع عند القلقشندي، وقنابلها تسمى البندق، فإن المؤرخين الآخرين يسمون قنبلة المكحلة بالمدفع كما يتضح من الأخبار التالية:

ينقل عدنان درويش عن ابن قاضي شهبة في حوادث سنة 1389/792 قوله: " ورموا بمدافع حجارة قتلت بعض الناس على السور، ورموا أيضاً بمدافع حديد سقط منها مدفع وزنه رطلان ***(درويش، 1975، ص132)***".

وأطلق ابن تغري بردى في حوادث سنة 812هـ على هذا السلاح اسم مكاحل النفط، ومدافع النفط ***(ابن تغري بردى، ج13، 1952، ص83، 85، 134)***.

ويروي محمد مصطفى عن ابن اياس خبر صنع مكحلة سنة 908، فيقول: " وأحضروا عدة قناطير نحاس وشرع في سبك مكحلتين كبار، وفرغ من المكحلة وركبها ورمى بها أول حجر... ورموا بالمكحلة على مدرسة السلطان حسن فخرق المدفع شباك المدرسة ***(مصطفى، ج2، 1951، ص324)***".

---

[44] البندق: كلمة فارسية تطلق في الأصل على ثمرة البندق المعروفة، وأطلق اسمها على البندق الذي ينطلق من أسلحة مختلفة، وقد استعملت بهذا المعنى منذ القدم. استخدمت في العصر العباسي. كان ابن منقذ يصطاد عصفوراً ببندقة ***(حتي، 1930، ص222)***.

[45] حكم بين عامي 764 و 778 هـ / 1362 و 1376م.

وبقي السلاح الجديد عند ابن اياس يسمى المكحلة حتى آخر الفترة المملوكية، وقد جاء في وصف الإستعداد لحرب العثمانيين سنة 923هـ ما يلي: "... مكاحل ورماة يرمون بالبندق والرصاص من المكاحل *(المصدر السابق ج3، ص80)*.

وعند بداية ظهور سلاح المكحلة أطلق على ذخيرته اسم المدفع والمدافع وكانت على شكل كرات من الحجر أو الحديد مختلفة الأحجام، يمكن مشاهدة نماذج لها من الحجر والحديد في بعض القلاع القديمة، كقلعة حلب مثلاً. ثم أخذت لفظة المدفع تطلق على السلاح بدلاً من المكحلة، وسميت الذخيرة بالبندق وكانت على شكل كرات من الحديد أو الرصاص باختلاف الأحجام، واستخدمت أيضاً أسهم النفط كذخيرة للمكاحل. والبندقية التي جاءت فيما بعد كسلاح صغير كانت تسمى في ذلك الوقت بالمكحلة أيضاً. ويرى من تعمّق في دراسة الأسلحة بأن النفط يقصد به البارود، لذا فقد كان المقصود بمكاحل النفط هو مدافع البارود *(ريحاوي، 1969، ص25)*.

وأخيراً متى ظهر استخدام المكاحل في أسلحة الحصار عند المماليك؟ تبين بأنها استخدمت في القرن (الثامن الهجري) أي القرن (الرابع عشر الميلادي)، وقد نقل محمد مصطفى ما أشار به ابن اياس لإستخدام تلك المكاحل عندما تحدث عن خبر تحصين قلعة دمشق ضد ثورة "يلبغا اروس" في عام 1352/753، فيقول في ذلك: " ان نائب قلعة دمشق حصّن القلعة تحصيناً عظيماً، وركبت عليها المكاحل بالمدافع *(مصطفى، ج1، 1951، ص196)*. أما ابن كثير فيروي لنا ذلك كما يلي: " وقد حصّن القلعة وسترها وأرصد فيها الرجال والعدد، وهيأ فيها بعض المجانيق فوق الأبرجة *(ابن كثير، ج14، 1932، ص244)*".

يوجد اختلاف بين المؤرخين في رواية حادث الرمي من قلعة دمشق على نائب السلطنة (جانم مصبغة) سنة 1460/865، فقد رواه ابن اياس كما يلي: " أرسل السلطان الى نائب قلعة الشام مراسيم بأن يُقبض على جانم، فرمى عليه بالمدافع وهو جالس في دار السعادة فهرب *(مصطفى، ج2، 1951، ص72)*".

بينما رواه محمد دهمان عن ابن طولون بشكل مختلف، فيما يتعلق بالسلاح المستخدم، فيقول: " فلم يشعر نائب السلطنة إلا وقد أمر نائب القلعة بالرمي عليه... وقد تعلقت النار من السهام الخطائية[46] في دار السعادة والإصطبل *(دهمان، 1964، ص59-60)*".

كما يحدثنا ابن طولون أيضاً عن سلاح آخر استخدمه نائب السلطنة قصروة عند عصيانه واستيلائه على قلعة دمشق سنة 1499/905، وسماه (الكفيات) ويقول في ذلك: " أكثر قصروة العبيد السودان الذين وكلهم النائب بالقلعة من إطلاق النار بالكفيات على جوانبها ليظهر ابهة أخذة القلعة". والكفية عبارة عن مكحلة أو مدفع صغير يحمل باليد ويقبض عليها باليد لذلك سميت بالكفيات *(المصدر السابق، ص118)*".

ثم أطلق على هذا النوع من السلاح في العهد العثماني اسم قربينا و طبنجة[47]، وكلاهما بندقيات قصيرة *(ريحاوي، 1969، ص27)*.

---

[46] (السهام الخطائية): نسبة إلى شعب أو بلاد الخطا وهم جيل من الترك القريبين من بلاد الصين اخترعوا هذا النوع من السلاح *(دهمان، الحاشية2، 1964، ص60)*.

[47] قربينا: تسمية أصلها فرنسي (Carabine)، أما طبنجة: فهي تسمية تركية.

4- **الستائر الإضافية:** يكثر ذكر الستائر الإضافية في حالات الحصار كأحد وسائل الدفاع. ولا يقصد بها طبعاً تلك الستائر الحجرية التي تتوج أبراج القلعة وأسوارها فهذه جزء ثابت من تحصينات القلعة، وإنما هي كما يبدو عبارة عن ستائر خشبية إضافية تركب في اعالي الأبراج والأسوار، وترفع بعد انتهاء حالة الحصار، فهي تزيد من قوة القلعة وقدرتها الدفاعية، لأنها تستوعب عدداً إضافياً من المقاتلين رماة النبال *(المصدر السابق، ص27)*.

ويرجع أقدم استخدام للستائر الإضافية بحسب المصادر إلى عام 699هـ، وذلك بمناسبة الإستعداد ضد هجمات التتار أيام حملة قازان على دمشق، فيقول ابن كثير: " ووضعت الستائر على القلعة *(ابن كثير، ج14، 1932، ص6)*". وبعد خروج التتار من دمشق يقول: " ورفعت الستائر عن القلعة *(المصدر السابق، ص12)*". وفي المناسبة نفسها نجد عند ابن تغري بردى تعبيراً عن هذا الإستعداد فيقول: " وقلعة دمشق مغلقة وعليها الستائر والطوارق، فكلم الأمراء نائب القلعة في ترك ذلك المكان. فلما كان يوم السبت أزال "أرجواش" نائب القلعة الطوارق والستائر من على القلعة *(ابن تغري بردى، ج8، 1952، ص130)*".

وفي عام 1352/753 استعملت الستائر الإضافية خلال الحصار الذي ضربه على دمشق نائبا طرابلس وحلب. ويذكر لنا ابن كثير تلك الحادثة فيقول: " وحصن نائب القلعة القلعة وسترها وأرصد فيها الرجال والرماة*(ابن كثير، ج14، 1932، ص244)*".

ويذكر لنا ابن كثير أيضاً الستائر من خلال روايته عن تمرد نائب السلطنة "بيدمر" سنة 762هـ واستيلائه على القلعة، فيقول: " واهتم في عمل ستائر القلعة، الستائر تعمل فوق الأبراج *(المصدر السابق، ص280)*".

من خلال النصوص المتقدمة يتأكد لنا بأن الستائر الوارد ذكرها هنا هي ستائر إضافية حتماً وكانت تستخدم مؤقتاً في حالات الحصار، وأنها كانت توضع في أعالي الأبراج والأسوار.

لاحظ سوفاجيه وجود مجموعة من الثقوب المنتظمة ذات الشكل المربع ضلعه (10سم) في الستائر الحجرية القائمة فوق أبراج الواجهة الجنوبية، وبخاصة البرج رقم (3)، الذي ما يزال يحتفظ بستائره الحجرية. ويقول بأن مقاييسها الصغيرة لا تسمح بأن نعتبرها من آثار الصقائل التي استخدمت أثناء بناء القلعة، والفرضية الوحيدة لتفسير وظيفتها هي أنها تتعلق بستائر خشبية (HOURDAGE) تحملها جسور مركبة في الثقوب المشار اليها، ويدخل اليها الرماة من بين الفجوات الموجودة بين الشرفات ***(SAUVAGET, 1930, p70)***.

د. النشاط الإجتماعي في القلعة:

كان للقلعة في العهد المملوكي حياتها الخاصة، كما كان لها دورها في النشاط العام، وفي أحداث المدينة، تتأثر بها وتؤثر فيها، وتشارك الناس في حياتهم في الأفراح والأحزان، فهي لهم أحيانا ملجأ وسكن وأحياناً مصدر شر ومتاعب. وفيما يلي ملخص عن حياة القلعة الخاصة وعن نشاطها العام:

كما كان لقلعة دمشق سكانها ومنهم نائب القلعة ونقيبها، وفيها الجند الذين كانوا يسمون "بالقلعية" أو "القلعيون"، وفيها من الموظفين: كتّاب وفقهاء ومدرسون وخطيب الجمعة. وكان للقلعة مؤسساتها الخاصة: كالديوان، الجامع، المدرسة، ودار الضرب. وكان فيها طاحون وحوانيت لبيع البضائع وحواصل ومستودعات، ودور سكن، وقصر، وحمّام *(دهمان، ج1، 1962، ص363)*. وربما كان فيها بيمارستان لمعالجة المرضى من أهل القلعة بدليل وجود أطباء كانوا يعملون فيها[48]. وفيها صندوق خزنة للسلطان وهي خزنة خاصة لها مواردها ونفقاتها. كما كان للقلعة أملاك خاصة بها وأراضي زراعية من أجل توفير المؤن وغيره، تخزن في حواصلها من أجل الحصار. كما ينقل دهمان عن ابن طولون خبر سرقة قصدير السلطان، المخزون في أحد أبراج القلعة في عام 916هـ *(المصدر السابق، ص364)*.

ومن وظائف القلعة أيضا اتخاذها سجناً ومعتقلاً للمجرمين السياسيين وأسرى الحرب. وكانت تخصص بعض الأبراج لتلك الغاية. ومن أسماء تلك المعتقلات والسجون "برج الخيالة" أو "سجن الخيالة" *(محمد، 1964، ص50) (ابن تغري بردي، ج14، 1952، ص161)*، وبرج الحمام الذي اعتقل فيه بعض الأمراء المماليك الثائرين الذين اعتقلهم السلطان الناصر فرج سنة 1399/802 ثم ذبحوا فيه *(مصطفى، ج1، 1951، ص324)*. وقد ذكر ابن كثير سجن القرماني في حوادث سنة 1325/726 *(ابن كثير، ج14، 1932، ص123)*.

وكان هناك دقة للطبول في القلعة مشهورة في كل ليلة للتوقيت، تعرف بطلوع الثلثين. وصف لنا أبو البقاء تلك العادة في أيامه (القرن التاسع الهجري) فقال: "وهو عبارة عن ثلاثة طبول متفرقة بأعلى القلعة يضربون الثلث الأول، كل واحد منهم ضربة، وفي الثلث الثاني من الليل يضرب كل واحد منهم ضربتين، وفي الثلث الأخير من الليل يطلع المؤذن على منارة العروس بالجامع الأموي، ويعلق لهم قنديل الإشارة، فيضرب كل واحد منهم ثلاث ضربات *(أبو البقاء، 1341، ص60)*".

ويصف القلقشندي هذه العادة بشكل مختلف (والقلقشندي متقدم من حيث الزمن عن أبي البقاء) فيقول: " وقد أخبرني بعض أهالي المملكة أن بالقلعة طبلاً مرتباً لإستعلام أوقات الليل، إذ أذن العشاء الآخرة ضرب عليه عند كل أربع درج ضربتين، إلى انقضاء الثلث الثاني، فإذا دخل الثلث الثالث ضرب عليه عند مضي كل أربع درج ثلاث ضربات إلى أن يؤذن الصبح. قال وهكذا شأن سائر القلاع بالممالك الشامية *(القلقشندي، ج4، 1913، ص108)*".

ويطلق ابن كثير على هذه العادة اسم "دقة القلعة". فيقول في حوادث سنة 1361/763: " بعد العشاء وقبل دقة القلعة دخل فارس من ناحية باب الفرج إلى ناحية باب القلعة الجوانية *(ابن كثير، ج14، 1932، ص215)*".

ومن نشاطات القلعة الأخرى انزال ضيوف السلطان بها، فكان بعض ضيوف الدولة الرسميين من أمراء ونواب سلطنة ينزلون في القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس، بينما

---

[48] ذكر ابن أبي اصيبعة، بأن الطبيب ابو الفرج ابن القف المتوفي سنة 1286/685 خدم قلعة دمشق (ابن اصيبعة، *ج2، 1882، ص273)*.

كان بعضهم ينزل في القلعة. نأتي فيما يلي على أمثلة من الضيوف الذين كانوا ينزلون في القلعة *(ابن تغري بردى، ج7، 1952، ص144)*.

وكان المميزين من العلماء وكبار رجال الدولة والموظفين يترددون إلى القلعة بدلاً من ترددهم إلى باب السعادة في الأحوال العادية، وذلك عندما يكون السلطان مقيماً في القلعة، أو عندما يرجع أمر القلعة لنائب السلطنة، أو عندما يصبح أمر المدينة بيد نائب القلعة. وكانت صلة القلعة بالمدينة أيام السلم عن طريق بابها الشرقي، فهو الباب الرئيسي المسلوك في العهد المملوكي. بينما لم يأتي ذكر الباب الشمالي "باب الحديد" في ذلك العهد. أما باب السر الغربي فقد كان يستخدم عند وصول السلطان، وعند وصول نائب السلطنة الجديد إلى دمشق حيث كان يصلي عنده ركعتين. أما باب السر الجنوبي المقابل لدار السعادة، فكان يفتح بشكل خاص حين يضع نائب السلطنة يده على القلعة، فيدخل منه ويخرج لقربه من دار السعادة المقر الرسمي لنواب دمشق *(ريحاوي، 1979، ص141)*.

وكان أهل دمشق يجدون في أي حركة أو تغيير في أوضاع القلعة مدعاة للقلق. وسرعان ما يدب الفزع في النفوس لدى إغلاق أبواب القلعة، فيستنتجون من تلك الظاهرة وجود إضطرابات في الدولة *(المصدر السابق، ص141)*.

وكانت القلعة تفتح أبوابها عادةً في أيام الحروب والحصار للاجئين من سكان القرى المحيطة بدمشق أو الهاربين من وجه الغزاة، ويطلق المؤرخون على هؤلاء اللاجئين اسم "الجفال". فعندما وصل السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) إلى دمشق عائداً من معركة شقحب[49] التي انتصر فيها على التتار سنة 1302/702، لم يتمكن من النزول في القلعة بسبب امتلائها باللاجئين، فيقول ابن كثير: " ونزل السلطان في القصر الأبلق، ثم تحوّل إلى القلعة بعد إخراج الجفال منها *(ابن كثير، ج14 ، 1932، ، ص7)*".

---

[49] موقع معروف جنوبي دمشق يبعد عنها حوالي 30كم .

المبحث الرابع:
القلعة العثمانية:

أ- الإطار التاريخي (لمحة عن أحوال دمشق في العهد العثماني في الفترة بين 922-1337هـ / 1516-1918م):

في عام 1516/922، هزم جيش السلطان سليم قوات المماليك قرب حلب، فقرر سكان دمشق فتح أبوابها أمامه بعد تراجع حامية المماليك، وخرج "علي باي" حاكم القلعة وسلم السلطان مفاتيحها، فدخل السلطان منتصرا إلى دمشق، وعيّن "جانبرد الغزالي" نائباً على المدينة. لكن جانبرد أعلن العصيان على أثر موت السلطان سليم، وحاصر القلعة، ونصب المدافع قرب المدرسة العادلية مقابل الواجهة الشرقية للقلعة. وبدأ بقصفها لإلهاء حاميتها ريثما تتمكن مجموعة من جنوده بقيادة المعمار "أحمد بن العطار" من الدوران إلى الجهة الأخرى، والدخول عبر نافذة أو مرمى على مستوى الأرض في البرج رقم (3)، فانهارت مقاومة القلعة وسلمت له. وبدأ حكمه بمحاولة التوسع في سوريا.

وفي عام 1746/1159، احتل أسعد باشا العظم نائب دمشق القلعة، ووجه مدافعها باتجاه سوق ساروجة حيث يسكن الإنكشارية، وقصفه حتى سوّاه بالأرض.

وفي عام 1752/1166، سقط برج البوابة الشمالية، وكذلك أجزاء من البدنتين (4 - 5) و (5 - 6)، وبعد زلزال عام 1759/1173 سقط الجدار الغربي بأكمله حتى امتلأ نهر بانياس بالردم. كما تهدم الكثير من مباني القلعة الداخلية، وسقط البرج رقم (7) على منطقة المناخلية. وعندما وصلت أخبار الزلزال للسلطان مصطفى الثالث أرسل بعثة إلى دمشق للقيام بمهمة إعادة بناء المدينة المتضررة ومن ضمنها قلعة دمشق. وانتهت أعمال إصلاح القلعة عام 1761/1174.

ومنذ عام 1787/1201، أصبحت دمشق مسرحاً للثورات والحملات، وكانت القلعة دائماً جزءاً أساسياً في الصراع، فتم قصفها، كما استخدمت كملجأ. لكنها سرعان ما فقدت دورها كمركز حربي. إلا أن جدرانها الخارجية حافظت على مظهرها المهيب على الرغم من دمار مبانيها الداخلية.

ب- دور القلعة السياسي:

تغيرت وظيفة القلعة وقلت أهميتها بالنسبة لما كانت عليه في عهد المماليك، وضعفت كذلك تبعيتها للسلطان، فلم تعد عبارة " قلعة السلطان" مألوفة بالنسبة للعهد العثماني، كما لم يعد نائبها نائباً للسلطان وممثلاً له يتولى القلعة بإسمه *(المنجد، 1949، ص86)*.

وأصبحت قلعة دمشق في العهد العثماني ثكنة للجند ومصدر شر على السكان. فلم تعد تلعب دوراً مهماً في الدفاع عن المدينة وأهلها ولم تعد الحصن الذي يلجأ اليه السكان في أيام الغزو الخارجي باستثناء مرة واحدة لجأ فيها سكان الضواحي للقلعة، وذلك حين تعرضت لغزو الدروز المتنفذين في البقاع سنة 1748/1161. حيث أمنت دمشق بانضمامها تحت لواء الإمبراطورية العثمانية القوية من أي عدوان خارجي، ولكنها لم تأمن تعرضها للحصار

والعدوان من قبل الثائرين والأمراء المحليين في المنطقة في فترات الفوضى والإضطراب *(معلوف، 1912، ص141).*

وبينما كان الناس في العهد المملوكي يطلقون على قلعة دمشق لقب " القلعة المنصورة " وينظرون اليها نظرة الإجلال ويعتبرونها سندهم وملجأهم، اصبحت في العهد العثماني تعني تعبيراً يختلف عن ذلك كل الإختلاف. ويعبر عن ذلك الوضع كرد علي بقوله: "والقلاع آية البلاء على الرعب ولا ينتفع بها إلا الوالي أو المتغلب" *(كرد علي، 1969، ص50).*

أما لقب "نائب القلعة"، فأصبح يقل استعماله شيئاً فشيئاً إلى أن اختفى نهائياً. حتى إذا انتهى القرن السادس عشر لم يعد لهذا اللقب أي ذكر، وحل محله لقب "أغا القلعة" وهو ينتمي إلى طائفة الجند الذين يتولون القلعة. وهم أحياناً من "الإنكشارية" وأحياناً من "القبوقول" أو "الدالاتية". وكان بين جند القلعة في القرن التاسع عشر طائفة تسمى "السكمان[50]". وكان آغا القلعة يسمى أيضاً "السكمان باشي" *(رافق، 1968، ص73، 75، 80).*

وهكذا تحول وضع نائب القلعة من نائب للسلطان مستقل كل الإستقلال عن الوالي في العهد المملوكي إلى موظف صغير يخرج في موكب الباشا، يستقبل الوالي الجديد أو يودع الوالي القديم. ولأول مرة يعين نائب للقلعة من أهالي الشام، وذلك في سنة 1831/1247 حين ثار أهل دمشق على الوالي سليم باشا واستولوا على القلعة وأخرجوه منها.ويصف لنا تلك الحادثة مؤلف مجهول من كتّاب الحكومة في سرايا دمشق عاصر فترة ابراهيم باشا فيقول: "وتقلد الحكم أولاد البلد، ووضعوا آغتين في القلعة، واحد اسمه " علي آغا عرمان (من الجند) والثاني "أبو خليل الدقاق" (من أهالي الميدان)، ووضعوا عندهم نحو مايتين نفر" *(مؤلف مجهول، بدون تاريخ، ص33).*

وعندما دخل ابراهيم باشا إلى دمشق جعل معسكره في القابون، ولكنه عندما غادر دمشق لمحاربة العثمانيين في الشمال ترك جيشاً عدده أربعة آلاف وجعل إقامته في القلعة *(المصدر السابق، ص56).*

وأطلق على نائب القلعة في عهد ابراهيم باشا لقب " ماسك القلعة " وكان يدعى وقتئذ الميرلواء عمر بك *(المصدر السابق، ص85).* وقبل أن يرحل ابراهيم باشا عن دمشق سنة 1840م، عيّن عليها متسلماً من أهالي البلد انتخبه أعيان دمشق. وتسلم القلعة رجل يدعى "عبد القادر آغا خطاب" من أهالي البلد *(المصدر السابق، ص234).*

ونلاحظ في بداية العهد العثماني نوعاً من الإستقلال في السلطة للقلعة ونائبها عن الوالي العثماني، ثم يبدأ نفوذ الوالي على القلعة يزداد، فنراه تارة يتصرف بها ويستخدمها كيف يشاء، وتارة أخرى نراها حرباً عليه حين يثور عليه أمراء الجند المقيمون في القلعة. ويتضح هذا الحال من خلال الأحداث التالية:

1- عندما ثار "جانبرد الغزالي" على الدولة بعد وفاة السلطان سليم الأول، وأعلن نفسه سلطاناً على الشام، وضع يده على القلعة، وقبض على نائبها وحاميتها من الأتراك العثمانيين، وعمل على تحصينها، وصار يتنقل بينها وبين دار السعادة (مقر نائب

[50] اصطلاح أطلق على فئة من الجند المرتزقة وأصل الكلمة "سكمان" وهي فارسية *(رافق، 1986، ص76).*

السلطنة)، وعيّن عليها نائباً من عنده يدعى العماد ابن الأكرم ***(ابن العماد الحنبلي، ج8، 1932، ص151)***.وبعد عودة العثمانيين إلى دمشق دخل قائد الجيش العثماني إلى القلعة وعيّن فيها صوباشيا[51] ***(دهمان، 1964، ص235)***.

2- وفي سنة 1656/1067 "أرسل والي دمشق الوزير "محمد باشا الكوبرلي" إلى دمشق حامية من جند السلطان نحو الثلاثمائة المعروفين بالقبوقولية فاستقروا بقلعتها ***(المحبي، ج4، 1284، ص311)***". ويبدو أن تلك الحامية أصبحت تشكل خطراً في ذلك الوقت على حكام دمشق، فنراها تطلق المدافع من القلعة على الوالي حسين باشا سنة 1740/1153. وتهدم من جراء ذلك أجزاء من السرايا ***(المنجد، 1949، ص78)***. ويأتي بعده في نفس العام عثمان باشا المحصل فينجح في إخراج القبوقول من القلعة وفي ذلك يقول الدمشقي: "وأخرج الأورطة[52]التي للقبيقول من قلعة الشام، فمنهم من نفاه ومنهم من قتله ***(معلوف، 1912، ص5)***".

3- وفي عهد الوالي "أسعد باشا العظم" كانت القلعة بيد الإنكشارية، وحدث خلاف بينه وبينهم سنة 1159/ 1746 فأخرجهم منها وسلمها إلى أعوانه من "الدالاتية" واستخدمها في ضرب مساكن الإنكشارية ***(المصدر السابق، ص66-69)***. ويبدو من خلال أخبار سنة 1756/1170 بأن القلعة كانت بيد القبوقول وأن فتنة وقعت بين القبوقول والإنكشارية، فيقول الدمشقي في ذلك: "وساعد القبوقول الدالاتية والأكراد والمواصلة وحاصرت كل حارة جماعة، وكانت النصرة للإنكشارية بعد أن ضربوا عليهم المدافع من القلعة... ***(المصدر السابق، ص200)***".

4- وفي سنة 1756/1202 كانت القلعة بيد الإنكشارية والقبوقول معاً، فاتفقا على ابراهيم باشا وضربوا عليه مدافع من القلعة إلى السرايا، مما اضطره للهرب إلى حماة ***(منجد، 1949، ص86)***.

5- عندما انهزم الوالي درويش باشا في معركة المزة سنة 1821/1235 أمام الجزار والأمير بشير، التجأ إلى القلعة وتحصن بها ***(قساطلي، 1879م، ص89)***.

6- عندما وصل الوالي سليم باشا إلى دمشق سنة 1831/1247 ' دخل إلى القلعة وطلع إلى الأبراج وصار يتمايز حارات البلد، ولما نظرها واقعة تحت مدافع القلعة أمر بأن تتذخر[53] ***(مؤلف مجهول، بدون تاريخ، ص2)***".

ج- دور القلعة الحربي وحالات الحصار:

يتضح لنا دور القلعة الحربي من خلال حالات الحصار التي واجهتها القلعة. وقد سبق وتبيّن من خلال الإطار التاريخي لأحوال دمشق في العهد العثماني، بأن دمشق لم تتعرض في ذلك الوقت لغزو خارجي، أي أن القلعة كذلك لم تحاصر من قبل غزاة محتلين، ولكنها مع ذلك شهدت أحداث حصار من نوع آخر، كان يحدث في الحالات التالية:

---

[51] الصوباشي: كلمة تركية تعني الوكيل ***(صباغ، 1978، ص120)***.
[52] الأورطة: الفرقة ***(المصدر السابق، ص121)***.
[53] تتذخر: تملأ بالذخيرة.

1- في حالات الإنفصال أو عند وقوع الخلاف بين السلطنة في استانبول وبين حكام دمشق.
2- في حالات العدوان من قبل العصبيات المحلية الثائرة على الدولة أو الناقمة على حكام دمشق.
3- حالات النزاع الداخلي بين الجند ونائب القلعة وبين الوالي، أو بين هذا الأخير وبين أهالي دمشق. وهذه أمثلة على أحداث الحصار العديدة التي واجهتها القلعة في الحالات الثلاث المتقدمة:

الحالة الأولى:

بخلاف ما كان يقع في العهد المملوكي، فإن ثورات الولاة على السلطنة العثمانية تكاد تكون معدومة. والثورة الوحيدة التي حدثت كانت محاولة الإستقلال التي قام بها "جانبردي الغزالي" كما رأينا، وهو أول والي عثماني تم اختياره من بقايا الأمراء المماليك.

كان لقلعة دمشق دور بسيط في هذه الحركة، حيث قام الغزالي بمحاصرتها وأخذها بالحيلة، وقتل اثنين من الجند العثمانيين بها، وقبض على الأعيان الباقين ومعهم نائب القلعة العثماني ونفاه. وبعد هزيمة الغزالي ومقتله في المعركة عند عيون فاسريا (قرب دوما) دخل قائد الجيش العثماني "فرحات باشا" إلى دمشق، وصعد إلى قلعتها وتسلمها من نائبها دون حصار ***(دهمان، 1964، ص222-235)***.

الحالة الثانية:

حوصرت القلعة مرة واحدة كذلك من قبل قوات من داخل المنطقة (منطقة النفوذ العثماني) وقد حدث ذلك في 4 صفر من سنة 1771/1185 (8 حزيران) أي في أيام واليها "عثمان باشا" عندما أرسل حاكم مصر المستقل "علي بيك" جيشاً إلى دمشق يقوده مملوكه "أبو الذهب" ويؤازره "ضاهر العمر" نائب صيدا. ثم استسلمت دمشق وطلبت الأمان. بينما امتنعت القلعة ورفضت التسليم، فأمر أبو الذهب بإطلاق المدافع عليها. ثم وقع الخلاف بين ضاهر العمر وأبي الذهب، وانسحبا دون أن يستوليا على القلعة ***(كرد علي، ج2، 1969، ص304)***.

ويقول "كينغ" في حادثة الحصار بأن أبو الذهب حاصر دمشق سنة 1771 فدافع الباشا عن المدينة ثم انسحب ليحتمي بالقلعة. وقد حصل أبو الذهب على قوات إضافية للإستيلاء على القلعة، وفي العام التالي انسحب ودخل الأتراك دون مقاومة ***(King, 1951, P83)***.
ويذكر المنجد بأنه لم يحصل أي حصار عند احتلال ابراهيم باشا لدمشق سنة 1831م، فقد جاء عنده آغا القلعة وأحضر مفاتيحها معه، فأنعم عليه وصرفه إلى بيته ***(المنجد، 1949، ص84)***.

الحالة الثالثة:

حالات الحصار خلال النزاعات الداخلية بين الجند والولاة أو خلال الثورات، ومنها الأحداث الداخلية التالية:

1- حدثت فتنة سنة 1786/1201 بين والي دمشق ابراهيم باشا وبين آغا الإنكشارية أحمد آغا، فاتفق جند القبوقول والإنكشارية على الباشا وضربوا عليه المدافع من القلعة على السرايا. ونتيجة ذلك قتل من عسكر الوالي ثلاثمائة رجل، فحاصر الوالي

القلعة وطلب الإمداد. ويقول المنجد في تلك الحادثة: " ولما رأى أحمد آغا أن البلد سلمت، سكر باب القلعة وهد الجسر، وحاصر ومعه مائتا رجل. وأما الباشا فقد قطع نهر بانياس، وأرسل معمارية البلد وقال لهم احفروا لغما، فداروا حول القلعة فما قدروا أن يأخذوا منها لا حق ولا باطل. وقتل منهم ثلاثة رجال، وضربوا على باب القلعة أكثر من عشرة مدافع فما أثر فيه شيئا. وطلعوا على الموادن وعملوا متاريس وصاروا يضربون على القلعة من كل جانب، وعجزوا عن أخذها *(المصدر السابق، ص84)*".

2- وحدث عام 1799/1214 نزاع بين الوالي عبدالله باشا العظم وآغا القبوقول، وكانت القلعة بيده، فأغلق القلعة، وحاصره الوالي، فاضطر إلى التسليم بعد مدة وقتل *(كرد علي، ج3، 1969، ص5)*.

3- وفي عام 1810/1225 عزلت الدولة والي دمشق كنج يوسف باشا، وكلفت الوالي الجديد سليمان باشا بالقبض عليه. ويروي لنا تلك الحادثة الأب لويس معلوف نقلاً عن ميخائيل الدمشقي كما يلي: " واستعد يوسف باشا وصار يرسل ذخائر وآلات الحرب للقلعة، وكان آغا القلعة وقتئذ يدعى سقا أحمد. وبعد هرب يوسف باشا من دمشق دخل سليمان باشا وطلب من سقا أحمد تسليم القلعة فما رضي فقال لا أسلم القلعة إلا للذي سلمني إياها. وبعد أيام خرج سقا أحمد واستلم القلعة الباشا وجعل فيها آغا عبد العزيز من الصالحية، ولكن لا يجعل إقامته داخل القلعة بل خارجها، على التخت يتعاطى شغله *(معلوف، 1912، ص26)*".

4- وفي أيام ولاية سليمان باشا السلحدار سنة 1812/1227 وقع خلاف بين الوالي وآغا القلعة، وتطورت الأحداث مما أدى لمحاصرة القلعة والإستيلاء عليها والقبض على آغا القلعة. وينقل لنا الأب لويس معلوف عن ميخائيل الدمشقي تلك الأحداث واصفاً عملية الإستيلاء بالتفصيل وما استخدم فيها من أسلحة الهجوم والدفاع، فيقول: " وقع خلاف بين الوالي وبين المتصرف علي آغا، فاعتزل بالقلعة، وخاف الناس. وأرسل الباشا من يكلمه لإزالة الخلاف فلم يسمع، وجوابه: إنني آغا القول بموجب أمر سلطاني وملتزم وظيفتي لا أرغب خدمة الوزراء، ولا أريد أقارش شيئاً ولا يمكن أطلع من القلعة كلياً، وإن كان الملائكة تجي من السما تطلب القلعة فلا يمكن أن أسلمها. فما احتمل الباشا هذا الحال واعتمد بمحاصرة القلعة وعين عساكر نيف عن ثلاثة آلاف، وشرعوا بالحصار، وركبوا المدافع داير القلعة، واشتغل الضرب ناحية البرج. وعلي آغا سكر باب القلعة حالاً وعنده ماية وثمانون نفر، جميعهم بغادة[54]، وكان ادخل ذخيرة للقلعة تكفيه سنتين. ثم ابتدأ بضر مدافع. والعساكر ملازمة القلعة على الداير وضرب الرصاص من كل ناحية ومن الموادن القريبة للقلعة حتى يمنعوا طلوع العسكر الجواني لظهر القلعة... وقر الرأي بحفر لغم في أساس القلعة حيث أن المدافع ما صار منها نتيجة وإنما تهشم حيط البرج، ووقع كم حجر من شرفات القلعة، فابتدوا بحفر اللغم وردم الخندق وأمر الباشا بإحضار سلالم ينصبونها على حيط القلعة...فأعطى إشارة للعسكر، فصاروا يتسابقوا بالطلوع على السلالم إلى أن صار كمية وافرة... وعروا عسكر القلعة، ومنهم من الخوف هربوا إلى سياقات المالح ... ثم قبض على علي آغا ونزلوه على السلالم بطاق القميص بحال يرثى لها

[54] بغادة: يعني من أهالي بغداد.

وأخذوه لعند الباشا... واشتغل العسكر بنهب القلعة يوم وليلة حتى ما بقي شيء، حتى نهبوا المغرفة والدست المختص بالوجاق... ثاني يوم أمر الباشا بفتح باب القلعة، وجعل بها بعض عسكر محافظين *(المصدر السابق، ص30)*".

ونلاحظ من وصف تلك الحادثة أن الوسائل التي استخدمت في ذلك الوقت للإستيلاء على القلعة هي التالية:

- تطويق القلعة بالجند وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف.
- ضرب القلعة بالمدافع.
- استخدم رصاص البنادق بين عساكر الطرفين، وكذلك استخدمت المآذن بسبب ارتفاعها لضرب عسكر القلعة.
- نظراً لعدم تأثير قنابل المدافع بمباني القلعة، استخدمت الألغام في أساس القلعة وردم الخندق، كي يتمكن المحاصرون من الإقتراب من الأسوار.

5- في سنة 1831/1247 قامت ثورة في دمشق على الوالي سليمان باشا، فأحرق الثائرون السرايا مقر الوالي، وكانت تقع قريباً من القلعة[55]. فاضطر الوالي للهرب واللجوء إلى القلعة وحاصره الثائرون اربعين يوما إلى أن استسلم لهم. وفيما يلي وصفاً مفصلاً لحالة الحصار وما جرى خلاله من أعمال حربية، استناداً إلى مذكرات شخص عاصر تلك الأحداث: " هجم الأهالي على السرايا وأحرقوها، فهرب الوزير سليم باشا والعسكر إلى القلعة من باب السرايا على السروجية إلى الخندق ودخل إلى القلعة هو وخاصته..ولما دخل القلعة شغل ضرب المدافع والرصاص في الليل والنهار على جميع الحارات، ولكن لم يستفد شيء لأن الكلة[56]التي كانت تحكم في بيت كانت تخرق في طبلة، وتقع لا يصير شيء غير هذا.. واجتمع عند الوزير في القلعة عسكر نحو ألف ومايتين نفر، ومن أولاد البلد السكمان الذين كانوا بالقلعة ثلاثماية نفر، وصارت الجملة ألف وخمسماية نفر، وثاني يوم طلع الوزير ودار على البيوت في القلعة وأخذ المونة التي عندهم جميعها، ووضع جميع الذخيرة التي كانت في القلعة والتي أخذها من عند السكمان في محل واحد. ووكل بها اثنين ووضع المفتاح عنده، وصار يعطي الناس بالقانون كل يوم بيومه... وبعد أن قضى الثوار على العسكر الملتجئين في جامع المعلق انداروا على القلعة وعملوا متاريس على كل داير القلعة وصار الضرب من أولاد البلد ومن القلعة نهاراً وليلاً أربعين يوماً وأربعين ليلة. وأولاد البلد من خلف المتاريس يضربون بالدور من كل حارة من حارات البلد. ووضعوا مدفعين واحد في الدرويشية وواحد في سوق الأروام، والضرب على القلعة ليل مع نهار. ومن القلعة الضرب والطوب[57]على البلد ... وشرعوا في عمل لغم على القلعة، حفروا في أسفل البرج الذي مواجه الدرويشية وبقيوا كم يوم المعمارية يعاقبوا مع النحاتين في حفره .. ولما وضعوا فيه البارود نبه الأغوات[58] على الأهالي أن يجتمعوا عند باب الجابية، وحين تقويص اللغم يهجموا على القلعة... لكن قوّصوا اللغم ما طلع، بل شرط من البرج وأخذ دكانتين قدامه، فحينئذ صار ضرب المدافع من الدرويشية ومن سوق الأروام على الشرط

[55] حيث يوجد اليوم القصر العدلي.
[56] الكلة: القنبلة.
[57] الضرب والطوب : المدافع.
[58] الأغوات: زعماء الأحياء.

الذي صار من اللغم في البرج حتى هدّوا البرج. وأما الذين في القلعة فلما نظروا الضرب صار على البرج، عملوا حفيرة من نصف البرج وبنوا قدّامها حايطاً من حجارة قوية وزغاليل، ووضعوا على الحفيرة قضبان قش سترة، في زعمهم أنهم إذا حطوا سلاسم بالموضع الذي انهدم وصعد أولاد البلد للقلعة فيقعوا في الحفيرة فحينئذٍ ينزلوا عليهم بالرصاص من الزغاليل[59]، فلما لاحظ أولاد البلد توقفوا عن الهجوم. وشرعوا في حفر لغم آخر وسط طاحونة (الزرامزية) ... خلصت الذخيرة من القلعة فأمر الوزير أن يطالعوا أولاد البلد "السكمان" الذين في القلعة وبعد يومين صارت المراسلة للحصول على الأمان للعسكر والوزير ***(مؤلف مجهول، بدون تاريخ، ص11-34)***.

مما سبق نلاحظ كيف كانت تحاصر القلعة في العهد العثماني، وكيف كانت تدافع عن نفسها، ومدى مقدرتها على الصمود. ولاحظنا كذلك الوسائل الحربية وأنواع الأسلحة التي كانت تستخدم في الدفاع والهجوم، ويمكننا من خلال النصوص السابقة استنتاج أنواع الأسلحة والذخائر التالية:

الأسلحة والذخائر:

لاحظنا مما سبق بأن المنجنيق استمر استعماله في بداية العهد العثماني كسلاح دفاعي وهجومي، أما في الفترات المتأخرة فقد توقف استخدامه وحل مكانه المدفع. وكنا رأينا بأن المدفع قد استخدم في أواخر العهد المملوكي، وكان يطلق على المدافع في ذلك الوقت إسم "المكاحل".

وقد استخدم الغزالي كما رأينا المنجنيق في تحصين القلعة كما أخرج منها المكاحل (المدافع) وركبها على عجلات ليستخدمها في الإستيلاء على حلب ***(دهمان، 1964، ص231)***.

ثم أصبحت المدافع هي السلاح الشائع في كل احداث الحصار التي رأيناها، يستخدمها المحاصرون لضرب القلعة، كما تستخدمها حامية القلعة لضرب أعدائها.

وجرت العادة أن يوضع عند باب القلعة مدفعان. فقد ذكر البديري في يومياته التي عاصرت أيام الوالي أسعد باشا ما يلي: " أمر الباشا سنة 1171/1757 بإخراج المدفعين اللذين في باب القلعة الشرقي، وكان لهم سنين وأعوام لم يخرجوا، فعمل لهم عربات ... ***(أحمد عزت، 1959، ص218)***".

بينما يقول بوكوك الذي زار القلعة سنة 1738م بأنه شاهد في المدخل أسلحة قديمة بينها منجنيق كبير A LARGE BOW وهو من العهد السابق لإستعمال المدافع ***(POCOKE, Vol II,1745, P.120)***.

وشاهد لورته Lortet مدافع على أسطح القلعة ***(LORTET, 1884, p.595)***.

اما ذخيرة المدافع فكان يطلق عليها في ذلك الوقت أسماء متعددة مثل: الكلل (جمع كلة)، الطوب، القنابر[60].

---

[59] يقصد بها "المزاغل".

[60] قنبرة: كلمة عربية، أطلقها العرب على قنابل تصنع من الفخار وتملأ بالنفط أو البارود
المدفع: كلمة كانت تطلق في البدء على قنابل المكاحل في العهد المملوكي قبل أن تطلق على السلاح نفسه.
اما الأسماء الأخرى (الكلة ،الطوب): فهي أسماء تركية *(رافق، 1968، ص30)* .

ويذكر المنجد عن البوريني البندقية كسلاح فردي استخدم في أحداث عام 1609/1018، كما يلي: " أمر الوالي أحمد باشا الحافظ جميع عسكر دمشق بالخروج إلى الميدان الأخضر، وأن يحمل كل واحد منهم البندقية المسماة بالمكحلة قديماً لأنها سلاح مماليك آل عثمان قديما *(المنجد، ج1، 1959، ص202)* ".

ومن بين أسلحة الحصار ايضا الألغام التي استعملت لهدم أبراج القلعة، وكانت تستخدم كما رأينا من خلال النصوص المتقدمة في عمل حفر في أسفل البرج وملأها بالبارود، ويبدو أن الرصاص كان يطلق على البارود عن بعد لتفجيره، بدليل العبارات "تقويص اللغم و قوصوا اللغم *(مؤلف مجهول، بدون تاريخ، ص25)*".

وقد عُثر في نهاية الحرب العالمية الأولى داخل القلعة على نبال تتراوح بين 70.5 و 73.5سم *(Creswell, Tom II, 1959, P16)*. ولكن هذا لا يعني بأن النبال كانت قد استمر استعمالها في العهد العثماني، بل هي من مخلفات العهود السابقة. فقد شاهد الرحالة "لورتيه" عندما زار دمشق كمية من أسلحة القرون الوسطى في القلعة قال أنها أخذت من جيوش الصليبيين *(LORTET, 1885, P595)*

د. أحوال القلعة ونشاطاتها المختلفة في العهد العثماني:

الرحالة الفرنسي "دارفيو" الذي زار دمشق عام 1660م، ودخل للقلعة متخفياً، وسجل مشاهداته عن القلعة، قال: " يصعب على الأجانب الدخول اليها، يجب الحصول على إذن خاص، ويكون ذلك بصحبة أصدقاء، ويجب التخفي ومعرفة لغة البلاد. لقد لبست لباس الترك ودخلت دون صعوبة. رأيت أثناء دخولي مقر الحرس وهو مكان معقود بإتقان، وجد نظيف، وكانت الأسلحة القديمة والحديثة تغطي الجدران. وأمام الباب ثلاثة مدافع جميلة، وشاهدت بعد ذلك المساكن في المكان المسمى (قصبة). وشاهدت مكان سك النقود الذي لم يكن قيد العمل. وكان الديوان في صدر الباحة. وعلى طرف الباحة أبنية نظيفة يفصلها عن بعضها ممرات صغيرة، وهي تستعمل لسكن الضباط والإنكشارية الذين تتألف منهم الحاشية*(D'arvieux,1735, P.450)*.

وكانت المباني العامة في القلعة كالجامع والمدرسة والحمام التي مر ذكرها في العهود السابقة ما تزال قائمة. وقد اشتهر من بينها مسجد أبي الدرداء وكان له مؤذنون وإمام وخطيب، ذكرت بعضهم كتب التراجم *(جبور، ج3، 1945، ص83، 174)*.

ويقول ابن طولون: " وبهذه القلعة جامع تقام فيه إلى زمننا الجمعة ومدرسة حنفية تسمى النورية الصغرى *(ابن طولون، 1931، ص7)* ".

ويبدو أن أئمة جامع القلعة كانوا أحياناً يسكنون داخل القلعة، فقد جاء في خلاصة الأثر بأن الشيخ أحمد القلعي المتوفي سنة 1656/1067 أصبح إماماً بالقلعة وسكن داخلها *(المحبي، ج1، 1284، ص377)*.

ويذكر البديري بأن أحد القضاة جرى اعتداء عليه من قبل الناس بسبب الغلاء فحلف الا يسكن إلا بالقلعة *(أحمد عزت، 1973، ص63)*.

وكانت القلعة تستخدم كسجن ومعتقل سياسي. سجن فيها القنصل الفرنسي (لامبيرور Lempereur) قبض عليه الوالي وسجنه في قلعة دمشق ولم يطلقه إلا بعد أن دفع ثلاثة آلاف قرش *(صباغ، 1973، ص210)*.

كما اعتقل فيها سنة 1590/999 أمير بعلبك علي ابن الحرفوش، ثم ضرب عنقه فيها *(الغزي، ج3، 1945، ص174)*.

وقام الوالي أسعد باشا العظم بأخذ عدد من أولاد الدروز في قلعة دمـــشق كرهـــائن، وذلك خلال الصراع بين زعمائهم في لبنـــان ســـنة 1748/1161 *(احمـــد عـــزت، 1959، ص121)*.

ومن نشاطات القلعة أيضا مساهمتها في الإحتفالات العامة، وخاصة احتفالات النصر، فقد كانت تضاء مشاعل النفط في جوانب القلعة وفوق أبراجها لعدة أيـــام *(دهمـــان، 1964، ص222، 240، 141)*.

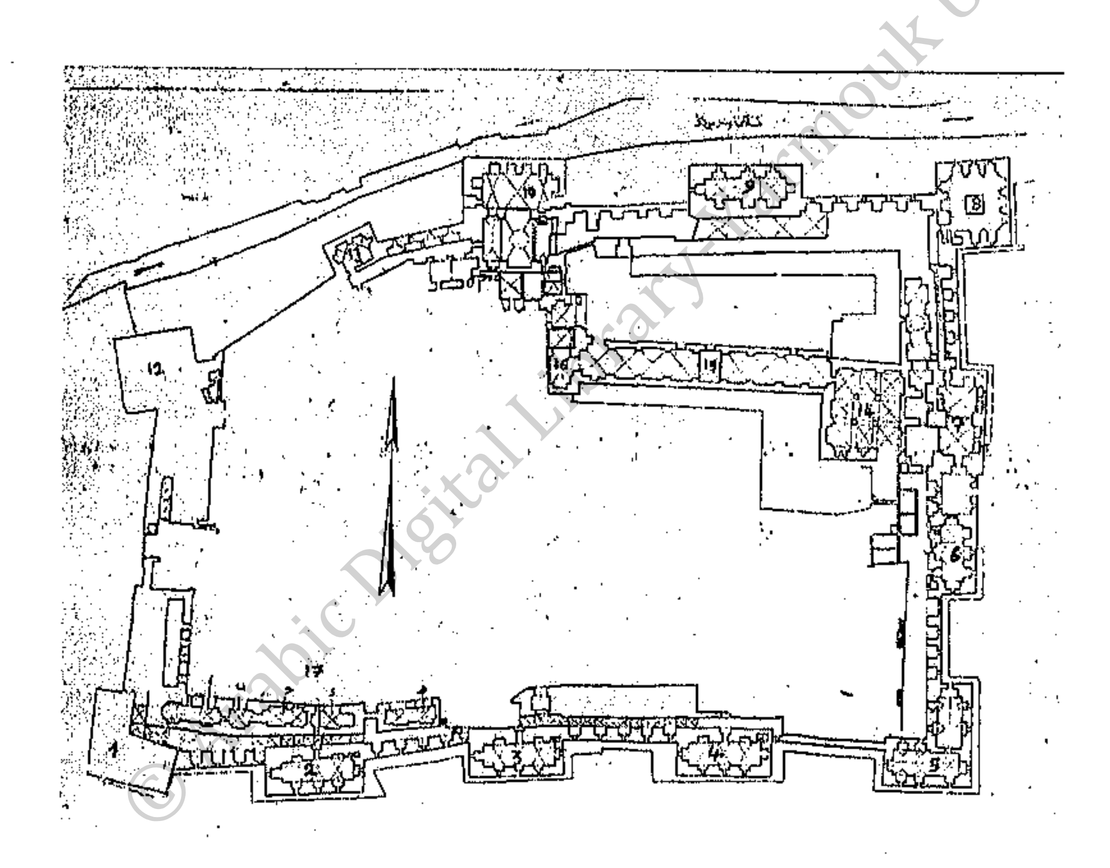
الفصل الثاني

الدراسة المعمارية لقلعة دمشق

المبحث الأول:
وصف دقيق لمباني القلعة مع تحليل معماري وتاريخي لعناصرها:

من خلال هذا الفصل سيكون هنالك دراسة تفصيلية لأبراج القلعة وأسوارها وأبوابها وممراتها الدفاعية، مع تقديم وصفاً معمارياً لها وشرحاً لخصائصها، وتوضيح ما طرأ عليها من تغيير وتبديل نتيجة أعمال الهدم والبناء والترميم.

وسيتم تمييز الأبراج والمباني الهامة بأرقام متسلسلة في الملحق مع هذه الدراسة، بدأ بوصف السور والأبراج ومن ثم الإنتقال إلى المباني الداخلية.



مخطط رقم (5): مسقط أفقي يبين مواقع أبراج وبدنات قلعة دمشق
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

1- المنشآت الدفاعية: الأبراج والبدنات:

البرج (رقم 1):

وهو برج الزاوية الجنوبية الغربية **(صورة رقم 2)**، على شكل زاوية قائمة شبيه ببرج الزاوية الجنوبية الشرقية (برج رقم 5). وقد كان لهذا البرج تاريخ عاصف، فبعد ان كان اول برج أقامه العادل، دمر هذا البرج أثناء الغزو المغولي، فأقامه الظاهر بيبرس من جديد، لكنه

عاد وسقط مرة ثانية على يد تيمورلنك، فأعاد نوروز الحافظي بناءه، إلا أنــه لــم يلبــث ان اشتعل بتأثير النيران التي أضرمت بدار السعادة المجاوره له، فأعيد بناؤه للمرة الرابعة، ثــم للمرة الخامسة بعد ان انهار بسبب زلزال عام 1759. كما فقد هذا البرج معظم حجارته بعــد ان فكت لتستخدم في بناء ثكنات جديدة في العهد العثماني، وكان قــد تبقــى منــه جداريــه الخارجيين الجنوبي والغربي *(عمران ودبورة، 1998، ص60 - 61)*.

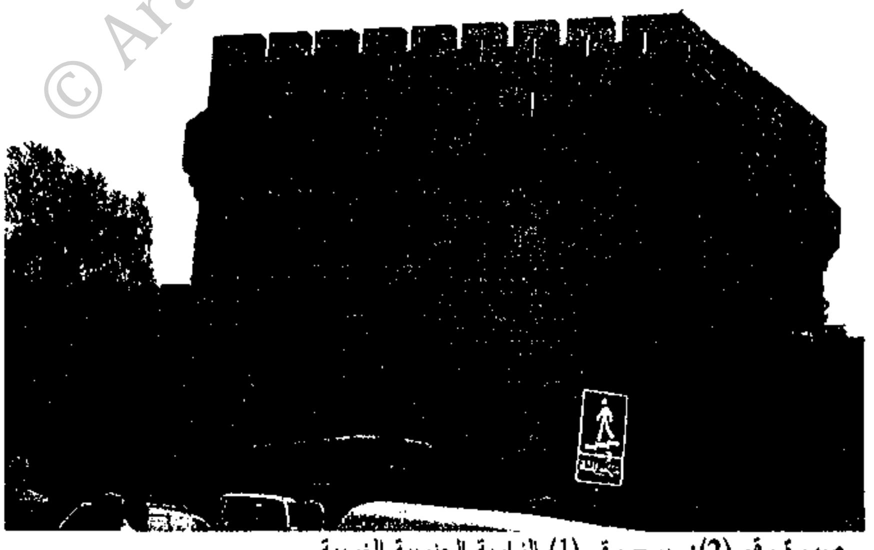
كما أشارت المصادر إلى تهدم هذا البرج وترميمه أكثر من مرة. فقد روى ابن كثير خبر تجديد البرج الغربي القبلي للقلعة في أيام الظاهر بيبــرس ***(ابــن كثيــر، ج12، 1932، ص14)***. كما يذكر ابن تغري بردى تجديد منظرة موجودة على البرج المجاور لباب النــصر ***(ابن تغري بردى، ج7، 1952)***، ويقصد (البرج رقم 1) لأنه يجاور باب المدينة الغربي الذي كان يعرف بباب النصر.

وذكر ابن طولون بأن برج الزاوية الغربية القبلية لباب النصر كــان يعــرف ببــرج القصب، وقد سقط في زمانه سنه 865هـ/1460م عقب الرمي على نائب السلطنة بدمــشق "جانم" أخا الأشرف، ثم تم بناءه مرةً ثانية ***(ابن طولون، 1348، ص5)***.

وآخر حادث أصاب هذا البرج كان في عام 1247هـ/1830م خلال ثورة دمشق على الوالي العثماني سليمان باشا، وتهدم البرج نتيجة الغام وضعها الثوار ثم اعيد بنــاؤه ***(مؤلــف مجهول، بدون تاريخ، ص11-34)***.

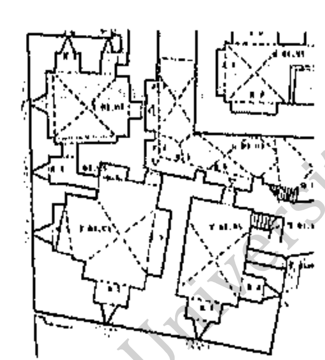
ومن هنا فقد أعادت المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية بناء هذا البرج بكاملــه في الفترة (1984-1988) طبقاً للأساسات التي عثر عليها في الموقع بالإعتماد على البــرج رقم (12) وهو البرج الوحيد المتبقي من القلعة كنموذج للأبراج الأيوبية.

هذا البرج يبلغ ارتفاعه 24م، ويتكوّن من أربعة طوابق يصل بينها درج داخلي. ولو نظرنا إلى واجهتيه الغربية والجنوبية من الخارج، نجد أن الواجهة الغربية يحتوي كل طــابق من طوابقها على ثلاثة مرامي، أما الواجهة الجنوبية فتحتوي على مرميين لكل طابق.

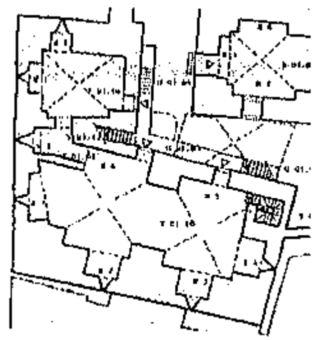


صورة رقم (2): برج رقم (1) الزاوية الجنوبية الغربية

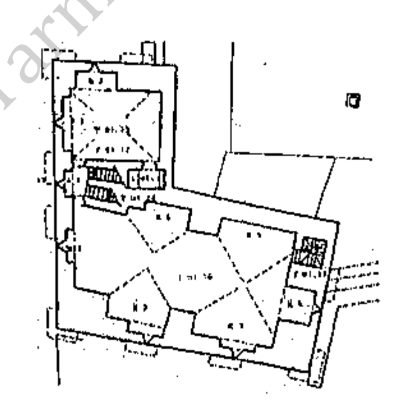
مخططات طوابق البرج رقم (1) القياس (1-200):



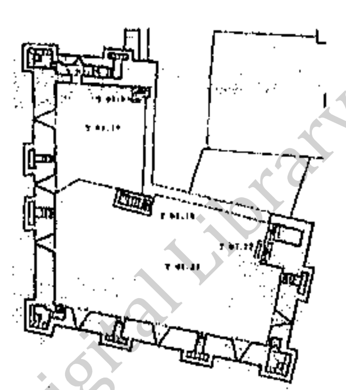
مخطط (6): الطابق الارضي للبرج رقم (1)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط (7): الطابق الاول للبرج رقم (1)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط (8): الطابق الثاني للبرج رقم (1)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط (9): الطابق الثالث للبرج رقم (1)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

البدنة (1 - 2):

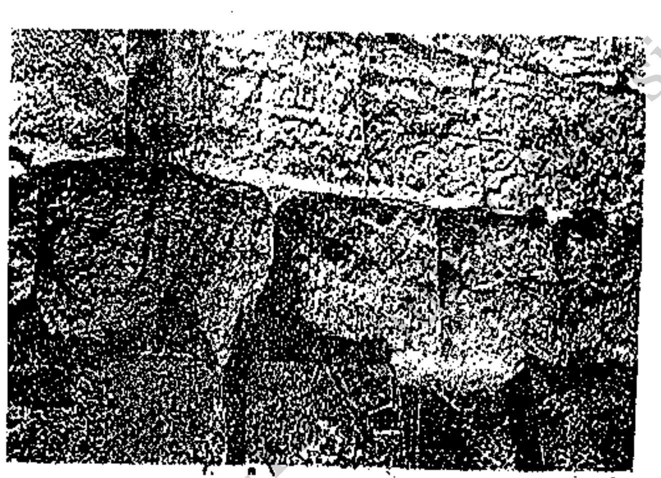
رمز في هذه الدراسة إلى كل بدنة برقم البرجين الذين يحدانها. طول هذه البدنة (25م)، ولها في الطابق الأرضي من الداخل درج يصل الممر الدفاعي الأرضي بالسطح. وتحتوي البدنة أيضاً في طابقها الأرضي على أربعة مرامي (**أنظر المخطط رقم 5، ص 69**). أما في الطابق العلوي فتصبح البدنة أقل سماكة، وتحتوي على أربعة فتحات مستطيلة .كانت ثلاثة منها تؤدي إلى المرامي والرابعة تؤدي إلى الروشن الذي ما يزال موجوداً وله سقاطة واحدة. وتوحي هندسة هذا الروشن وحجارته بأنه من العهد المملوكي.

وقد طرأ ترميم واسع على هذه البدنة في الفترة المملوكية من أعلاها إلى اسفلها داخلاً وخارجاً، باستثناء المداميك السفلية في واجهتها الداخلية التي تبدو أصليه بحجارتها ذات النحت البارز والتي ترجع لأواخر العهد المملوكي استناداً لـ (**الكتابة رقم 33**)[61] ونصها:

---

[61] Sobernheim, 1922, op. cit, N°3, P30.

" بـــ (سم الله الرحمن الرحيم)
... ط
.... (الامـــ) ـــير عز الدين..."

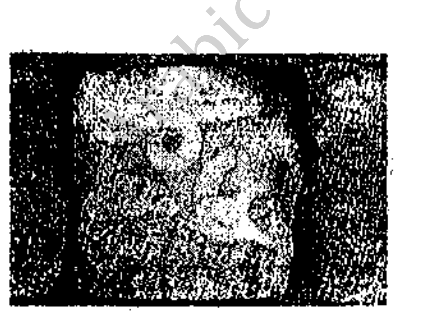


صورة رقم (3): الكتابة رقم(33) على البدنة (1-2) وهي مشوهة ومتآكلة

وإذا نظرنا بدقة إلى الجزء العلوي من البدنة (1 – 2)، فسنشاهد أجزاء من كتابـــات تعود إلى العصر المملوكي، وقد أعيد استخدامها بين الحجارة الصغيرة المنحوتة والعائدة إلى العصر العثماني، كما يمكننا أن نرى حجراً آخراً قد أعيد استخدامه فوق النافذة الواقعة جنوب البوابة الغربية، وعليه نحت لزهرة ذات اثنتي عشرة بتلة وأفعى تنينية معقودة.



صورة رقم (4): البدنة (1 – 2) من الداخل.



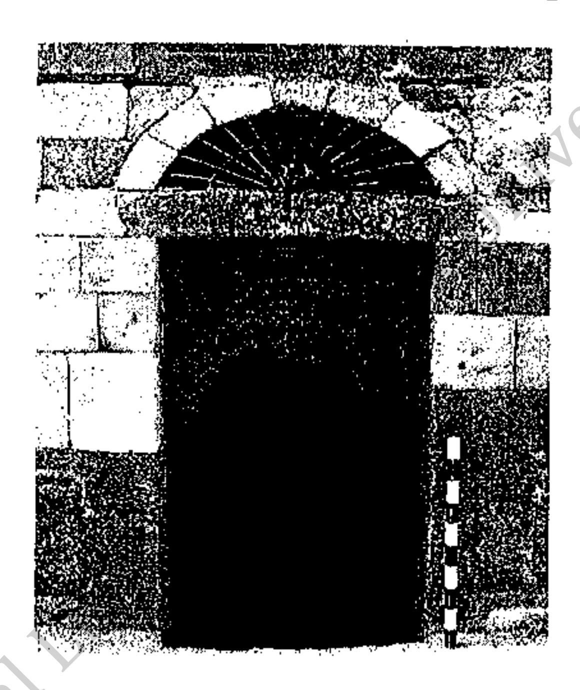
صورة رقم (5): الحجر المزخرف المعد استخدامه

البرج رقم (2):

هو برج مستطيل، أطواله (26.5 × 13م)، ويبـــرز عـــن البـــدنات مقـــدار (8.5م)، مخططه يشبه مخططات أبراج الجبهة الجنوبية. ويوجد في طابقه الأرضي باب مفتوح فـــي واجهته الشمالية وهو ضمن ايوان، في سقفه يوجد سقاطة مربعة الشكل. ويتصل البرج بباحة

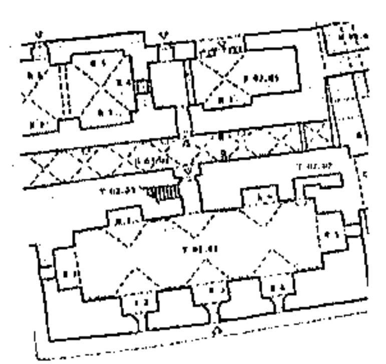
القلعة عن طريق بوابة مفتوحة مقابل بابه في جدار الممر الدفاعي مخترقة المبنى رقم (17) والمسمى بالقصر.

وإلى جوار باب هذا البرج يوجد الدرج المؤدي إلى الطوابق العليا والسطح . كما يمكن الدخول إلى الطابق الثاني من باب صغير مفتوح في واجهته الشمالية أيضاً ويدخل اليه من سطح الممر الدفاعي.

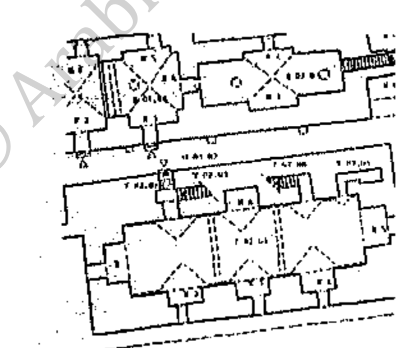


صورة رقم (6): باب صغير مفتوح في الواجهة الشمالية للبرج رقم (2) يمكن الدخول منه الى الطابق الثاني

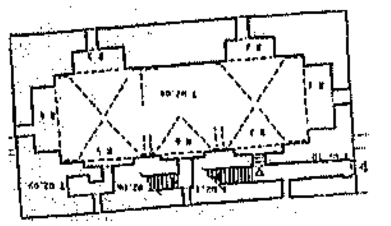
مخططات طوابق البرج رقم (2) (مقياس الرسم 1- 200):



مخطط (10): الطابق الارضي للبرج رقم (2)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط (11): الطابق الاول للبرج رقم (2)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط (12): الطابق الثاني للبرج رقم (2)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

أما الطابق الثالث فيدخل اليه من باب في الجدار الغربي للبرج وهو باب مستطيل مسقوف بساكف جملوني يتقدمه درج يبدأ من مستوى سطح الممر الدفاعي .ويلي هذا الباب دهليز ممتد خلف الجدار الشمالي للبرج مسقوف بعقد طولي من الحجر، ويؤدي من ناحيته إلى الدرج الطابقي المسدود، وعلى يمين الداخل فيه يوجد باب الطابق الثالث. ويقابل الباب على اليسار مرمى مفتوح في الجدار الشمالي لتزويد الدهليز بالنور من داخل القلعة. وكان يقابل الباب الغربي للبرج المتقدم ذكره باب مماثل في الجدار الشرقي، كان مزوداً بدرج للنزول بواسطته إلى الممر الدفاعي .أما الدرج الطابقي الداخلي فيستمر خلف الجدار الشمالي للبرج حتى يصل إلى السطح.

ونلاحظ عند التدقيق في الواجهة الشرقية للبرج أنها قد تلقت ترميماً يرجع إلى عهدين، العهد الأقدم يشمل الجانب الأوسط من البرج والرواشن، حيث نشاهد حجارة البناء دون بروز. وتنسب هذه الترميمات إلى السلطان خشقدم سنة 866هـ/1462م، استناداً إلى **(الكتابة رقم 26)**[62] ونصها:

"الحمد لله امر باعادة هذا البرج مولانا السعيد
السلطان الملك الظاهر ابو النصر خشقدم خلد الله ملكه بمباشرة المقر الصارمي
ابراهيم نائب القلعة بدمشق بن المرحوم بيغوث المؤيدي سنة ست وستين وثمانمائة".

أما الترميم الأحدث عهداً فنجده في الجانب الجنوبي من الستائر، وحجارته أصغر من حجارة البرج الأصلية. من المرجح أن يكون قد حدث في العهد العثماني. كما أن تحويل مرامي الطابق العلوي إلى نوافذ، حدث متأخر من العهد العثماني حينما لم تعد للقلعة أهمية دفاعية، وأصبحت مجرد ثكنة للجند.

البدنة (2 – 3):
يبلغ طولها (29م)، وهي مبنية بشكل مائل بحيث تنحرف نحو الجنوب، بدءاً من البرج رقم (3)، مشكلة بذلك زاوية حادة معه بدلاً من الزاوية القائمة (**أنظر المخطط رقم 5، ص 69**). وتبدو من الخارج منفصلة عن البرجين المجاورين، أي لا تتداخل حجارتها مع حجارتهما، وهي تحتوي في الطابق الأرضي على خمسة مرامي ضمن أواوين. وتحتوي هذه البدنة على باب ضيق مجاور للبرج رقم (3) .

[62] Sobernheim, 1922, op. cit, N°3, P30.

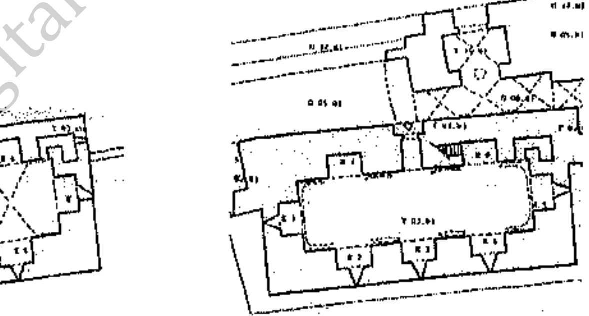
البرج رقم (3):

هذا البرج بحالة جيدة واصيلة، كامل حتى أعلاه بحيث لم ينقص منه حجـر واحـد، اطواله (27 × 13م). يبرز عن البدنات ثماني أمتار. واجهاته الخارجية مبنية كلها بالحجارة البارزة النحت باستثناء الرواشن فهي مبنية من حجارة مصقولة. الرواشن هنا تختلف من حيث عددها وحجمها وعدد فتحاتها عن رواشن البرج المجاور رقم (4)، فمجموعها سته بدلاً مـن سبعة، موزعة على الشكل التالي: اثنان في وسط الواجهة الجنوبية لهما ثلاث سقاطات، واثنان في زاويتيهما الأماميتين، لهما خمس سقاطات بدلاً من ستة في الأبراج الأخـرى. وروشـن واحد في كل من الواجهتين الجانبيتين لكل منهما سقاطتان بدلاً من ثلاثة.

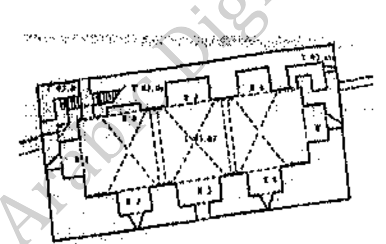


صورة رقم (7): الجهة الغربية من البرج (3) تظهر سقاطات الزيت

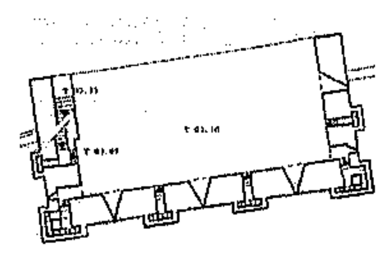
مخططات طوابق البرج رقم (3) بمقياس (1-200):



مخطط (13): الطابق الأرضي للبرج رقم (3)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

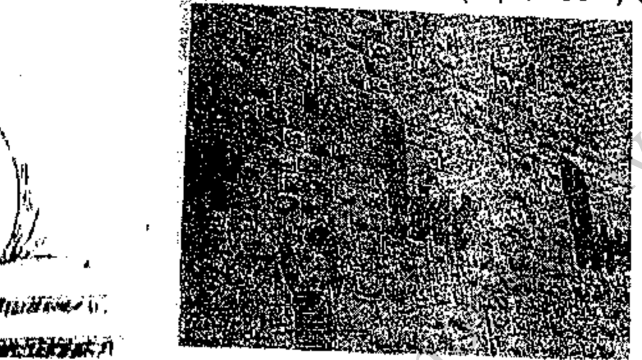


مخطط (14): الطابق الأول للبرج رقم (3)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط (15): الطابق الثاني للبرج رقم (3)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

يتوسط الواجهة الجنوبية في مستوى الطابق العلوي (الثالث) نافذة جميلة حلت محل المرمى الأوسط، مستطيلة الشكل، ويعلوها صفان من المقرنصات، ثم طاسة منحوتة على شكل صدفة من حجر واحد، وهي بارزة عن الجدار، محمولة على بارزتين، زينت بالمقرنصات. ويحيط بالنافذة قولبة على شكل قوس مدبب ينتهي في الجانبين برأس ملتف حلزوني **(صورة رقم 8)**.



صورة رقم (8): نافذة الطابق الثاني للبرج (3)

لوحة رقم (1): نهاية القولبة
- نقلا عن سوفاجيه P72-

ويرى "سوفاجيه" أن الصدفة منقولة من المباني القديمة، وأشار في الهامش بأنها تخص تجويفاً Niche في مدرج بصرى، ويفسر وجود هذه النافذة المزخرفة هنا بأن البرج يتوسط الجبهة الجنوبية للقلعة ***(SAUVAGET, 1930, P.72)***.

إلا أننا نعلم بان القولبة وهي ذات قوس مركب (مدبب)، والنهايتين الملتفتين من خصائص الفن العربي، وأن الصدفة استمر استعمالها في العمارة الإسلامية وخاصة في العهد الأيوبي، ونشاهدها في غالبية طاسات بوابات المباني العامة وفي القباب ***(حميد وآخرون، 1982، ص8-11)***.

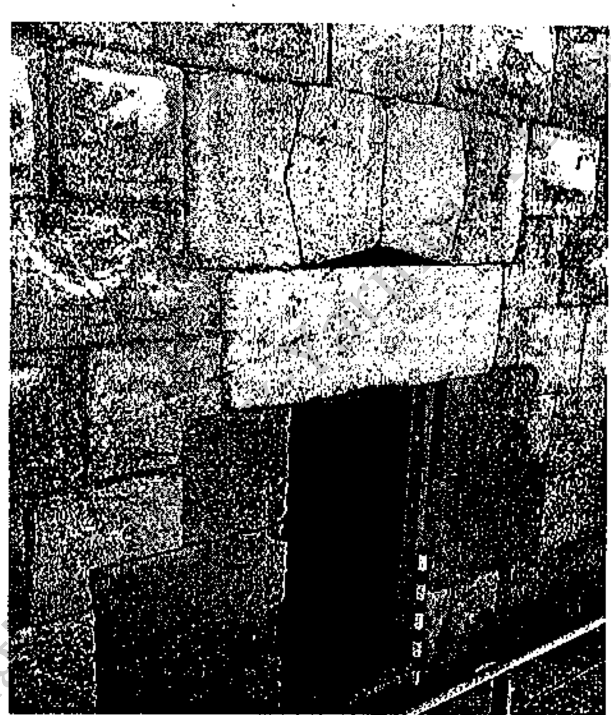
أما بالنسبة للقاعات الداخلية، فتصميمها لا يختلف عنه في البرج رقم (4)، فالسقوف ذات عقد متقاطع، تشكل ثلاث قبوات تفصل بينها أقواس حجرية محمولة على عضائد. ويلاحظ بأن سقف الطابق الأرضي بقي بوضع جيد. مقاييس القاعات (20.5 × 6.40م)، وسماكة الجدران (3.40م). أما المرامي فهي كالعادة مفتوحة ضمن أواوين لها عقد ذو مقطع مدبب، وعرض الإيوان (3م)، وعمقه (1.95م)، وارتفاعه (3م)، أما المرمى فارتفاعه (1.65م).

ومن الملاحظ في الطابق الثالث (الأخير) بأن الإيوانين الكائنين في الجدارين الجانبيين مائلان كي يحدثا رميا أبعد نحو الخارج، كما هو الحال في مرامي الستائر الجانبية. أما في الجدار الشمالي فيوجد ثلاثة أواوين ودورة مياه في النهاية الشرقية.

أما باب البرج الطابق الأرضي فيتوسط الواجهة الشمالية، وهو مستطيل الشكل، ومفتوح ضمن إيوان على جانبيه مكسلتان (مقاعد حجرية) من أصل البناء . وهذا الباب خال من سقاطة دفاعية في سقفه كما في الأبراج الأخرى.

وقد زيد في سماكة الجدار الشمالي حتى نهاية الطابق الأرضي لإحداث بروز يصلح ممراً أمام الطابق الثاني .وبذلك أصبحت سماكة هذا الجدار (4.25م). وبالنسبة للدرج

المخصص للصعود إلى الطوابق العليا فقد جعل في مكان الإيوان المجاور للباب. وفي الطابق الثاني (الأوسط) باب في جداره الشمالي مفتوح على سطح الممر الدفاعي[63]. وهو باب مستطيل يعلوه قوس عاتق مؤلف من أربعة أحجار مركبة تركيباً فنياً. ويؤدي الباب إلى ممر ضيق يتم الدخول منه إلى الطابق الثاني، كما يؤدي إلى درج في الجدار الشمالي يصعد إلى الطابق الثالث باتجاه الغرب ثم ينكسر ليتجه نحو الجنوب داخل الجدار الغربي. وهو مسقوف بعقد من الحجر المنحوت ذو مقطع مدبب. ويتخلل الدرج نوافذ في الجدارين الشمالي والغربي، ومرمى في نهايته قبل الوصول إلى السطح. وهو مرمى قصير ومائل نحو الواجهة.



صورة رقم (9): باب مستطيل يعلوه قوس عاتق مؤلف من أربعة احجار مركبه تركيب فني في الطابق الاوسط من البرج رقم (3)

السطح:

يرتفع سطح البرج حوالي (18م) عن أرض الباحة، وتحيط به ثلاثة جدران، لأن الجدار الشمالي المطل على القلعة ليس له ستائر وإنما له حاجز صغير ارتفاعه (12سم) فقط، وسماكته 90سم ،وهذه الجدران الثلاثة تشكل ستائر البرج وهي على طابقين:

أولاً- الطابق السفلي: يرتفع (2.75م)، وتبلغ سماكة جداره (2.40م). وهو مزود بالمرامي والرواشن .

ولا يوجد هنا رواق مسقوف خلف الستائر كما هو في البرج رقم (4). كما تحتوي ستائر الجدار الجنوبي على ثلاثة مرامي متناوبة مع روشنين. وفي كل من الجدارين الشرقي والغربي مرمى للرمي المائل وروشن. وللرواشن مداخل ذات فتحات مستطيلة، ينزل اليها بدرج، لأنها تنخفض عن مستوى سطح البرج بمقدار (1.5م) .

[63] يرى "كينغ" بأن هذا الممر الدفاعي ليس له جدار شمالي بسبب عدم وجود مبنى خلف هذا الممر *(KING, 1951, P.99)*.

أما روشن الزاوية فله مدخلان تفصل بينهما دعامة مربعة، يؤدي كل منهما إلى أحد جناحي الروشن .إن مرامي الرواشن هنا قصيرة طولها(65سم). ويلاحظ بشكل عام بأن الرواشن موزعة بحيث تحتل الفراغات التي تتركها المرامي دون حماية، فهي مسلطة إلى قاعدة البرج بحيث تضرب المناطق التي لا تطولها المرامي.

فيما يلي مقاييس أحد الرواشن بالتفصيل، مأخوذ من روشن الواجهة الغربية: مدخل الروشن مستطيل ارتفاعه (1.90م)، وعرضه (67سم). عرض الروشن في الداخل (44سم)، وطوله (1.33م). وارتفاع مرماه (67سم)، وعرض فتحته الداخلية (44سم) والخارجية (14سم). أما المساقط فهي مربعة ضلعها (40سم).

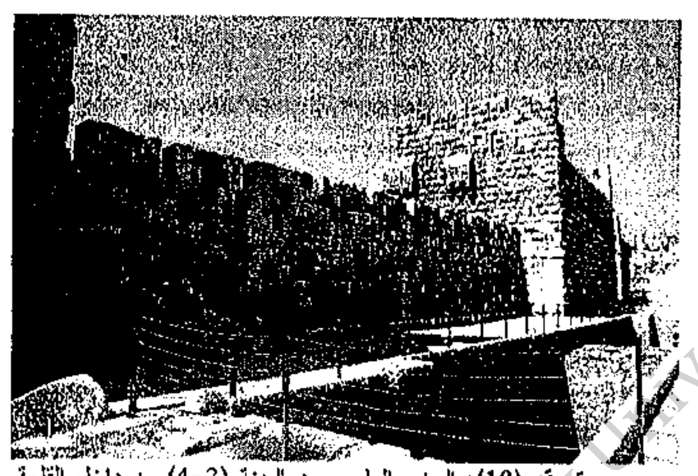
ثانيا- الطابق العلوي: يتم الصعود إلى القسم العلوي من الستائر بواسطة درج أقيم عند جدارها الغربي. وتقل سماكة الجدار هنا فتصبح (93سم)، وهو يتألف من أربعة مداميك مبنية على شكل شرافات فتح في وسطها مرمى قصير (1.10م)، وتتخللها فجوات في المدماكين الأخيرين للسائر. ومجموع مرامي الشرافات هو 15 مرمى: سبعة في الواجهة الأمامية وأربعة في كل من الجانبين، وهذه الأخيرة من النوع المائل.

وتشاهد الثقوب المربعة التي سبق الحديث عنها في البرج رقم (4) في أسفل الشرافات .

البدنة (3 – 4):

يقدر طول هذه البدنة بـ (31.5م) **(أنظر المخطط رقم 5، ص 69)**. وهي أكمل البدنات الموجودة في قلعة دمشق، فهي ما تزال تحتفظ بستائرها وشرافاتها كاملة. ويلاحظ بأنها بنيت منفصلة عن البرجين المجاورين لها رقم 3 و 4 ، إذ لا يوجد تداخل في حجارتها معهما.

ويقدر ارتفاع هذه البدنة بحوالي (11.5م)، فهي تعادل نصف ارتفاع البرج بكامله تقريباً. وتتألف من طابق أرضي ضمن الممر الدفاعي المسقوف الذي يحتوي على خمسة مرامي ضمن أواوين كالمعتاد. وطابق ثاني عند سطح الممر الدفاعي مزود بمرامي بدون أواوين، فوقها تسع شرافات في كل منها مرمى صغير. وتبلغ سماكة جدار البدنة في الطابق السفلي (3.5م)، بينما تقل سماكته في الأعلى لتترك ممر خلف المرامي والشرافات **(صورة رقم 10)**.

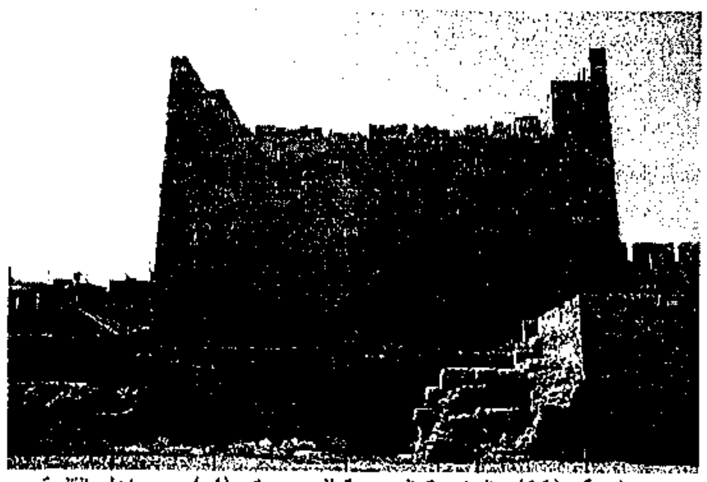


صورة رقم (10): الجزء العلوي من البدنة (3-4) من داخل القلعة

البرج رقم (4):

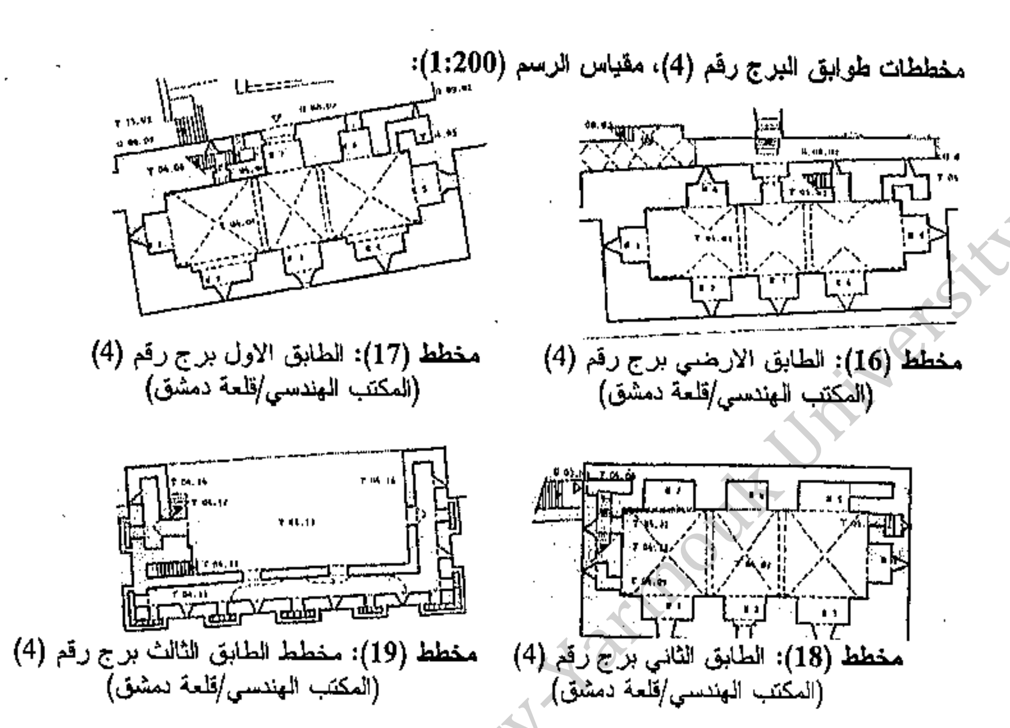
وهو أحد أبراج ثلاثة متشابهة تحتل الجبهة الجنوبية للقلعة، وقد حافظت على وضعها الأصلي أكثر من باقي الأبراج. وهذا البرج ما يزال كاملاً من الأعلى إلى الأسفل و .مساحته (26 × 12.5م)، ويبرز عن البدنة المجاورة (4 - 5) (9.5م).

يتألف هذا البرج من ثلاثة طوابق وسطح محاط بالستائر والشرافات. مخطط الطوابق الثلاثة تقريباً متشابه، وهو عبارة عن قاعة مستطيلة مسقوفة بثلاث قباب يفصل بينها قوسان من الحجر المنحوت، وقد تشكلت هذه القباب من تقاطع عقد بشكل طولي يمتد من الشرق إلى الغرب مع ثلاثة عقود أخرى تمتد من الشمال إلى الجنوب، وتلك العقود القاطعة الثلاثة تشكل ثلاثة أواوين في الواجهة الجنوبية مخصصة للمرامي، ومثلها في الجدار الشمالي الخلفي.



صورة رقم (11): الواجهة الجنوبية للبرج رقم (4) من داخل القلعة

مخططات طوابق البرج رقم (4)، مقياس الرسم (1:200):



مخطط (16): الطابق الارضي برج رقم (4)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

مخطط (17): الطابق الاول برج رقم (4)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

مخطط (18): الطابق الثاني برج رقم (4)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

مخطط (19): مخطط الطابق الثالث برج رقم (4)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

لقد فتح باب البرج في **الطابق الأول** في الإيوان الأوسط ويتم الدخول اليه من الممر الدفاعي الممتد خلف البرج، وواجهة الباب على شكل إيوان تعلوه فوهة مربعة لإسقاط المواد من الطابق الثاني على الأعداء. وإلى يمين الباب نجد الإيوان الغربي وفيه مرمى يطل على الممر الدفاعي. أما الإيوان الشرقي فقد خصص للدرج الصاعد إلى الطوابق العليا. ويدخل اليه من باب يعلوه قوس مركب مدبب، وإلى جانبه في نهاية الجدار الشمالي يوجد دورة مياه، وهي مفتوحة في داخل الجدار البالغ سمكه (3.45م).

الطابق الثاني: في هذا الطابق من البرج نجد أواوين المرامي الجنوبية غير متساوية في الشكل وفي الحجم، وأكبرها الإيوان الغربي الذي يبلغ عرضه (2.75م)، ويختلف عن الأواوين الأخرى في كونه يحتوي على قوسين متراكبين الواحد داخل الآخر، بدلاً من قوس واحد. وعمق هذا المرمى مع الإيوان (3.45م)، وهذا يعادل سماكة الجدار.

ويوجد في هذا الطابق أيضاً قنطرة واسعة مفتوحة في الجدار الشمالي تستخدم كباب، وهي ذات قوس مركب مبني بالحجارة البارزة النحت كحجارة الواجهة. أما مدخل الدرج فموجود في الجانب الغربي للباب[64] وله فتحة ذات قوس مركب. ويحتل دورة المياه النهاية الشرقية للجدار الشمالي.

الطابق الثالث: هذا الطابق يخلو سقفه من الأقواس الحجرية التي تفصل بين القباب المعقودة. وتوجد نافذة في واجهته الجنوبية المطلة على الخندق، حلت محل الإيوان الأوسط المألوف. وتبدو هذه النافذة من الخارج أصيلة، وهي مستطيلة الشكل يعلوها ساكف وفوقه قوس عاتق، على شاكلة شبابيك المباني الأيوبية، أما المرميان المجاوران فقد كانا قد حولا في القرن التاسع

---

[64] كان الإتصال الداخلي بين طوابق البرج الثلاث معطلاً في السابق بسبب سد منافذ الأدراج في عهد غير معروف، بحيث كان مقتصراً على الأبواب المفتوحة على الممر الدفاعي. أما بعد انتهاء المرحلة الأولى من عملية الترميم فقد تم فتح معظم تلك المنافذ.

عشر إلى نوافذ مماثلة. وقد قمت المديرية العامة للآثار السورية من خلال عمليات الترميم الأخيرة، بإعادة تلك النوافذ إلى وضعها السابق كمرامي.

أما دورة المياه، فمكانها مختلف قليلاً، فهي تحتل النهاية الشمالية من الجدار الشرقي، مزوّدة بنافذة صغيرة على شكل المرمى في أعلاها. ويختلف تنظيم الجدار الغربي عنه في الطوابق الأخرى بسبب مرور الدرج داخله، مما اضطر إلى إلغاء المرمى المعتاد. واحتل باب البرج الجانب الشمالي من الجدار. وهو يفتح إلى الدرج الصاعد إلى السطح والنازل إلى الطوابق السفلية. وفي النهاية الجنوبية من هذا الجدار الغربي يوجد دورة مياه أخرى.

أما الدرج المؤدي للسطح فيستمد النور من مرمى يطل على الخندق ويقع مقابل الباب المار ذكره[65]. ويتم النزول من هذا الدرج إلى الباب الخارجي للبرج المفتوح في النهاية الشمالية لواجهته الغربية، ويقع في مستوى أخفض قليلاً عن الطابق الثالث. وهذا الباب كان يصل البرج بالممر الدفاعي العلوي بواسطة سلم أو درج نظراً لإختلاف مستوى الممر عن مستوى الباب، إلا أن الدرج الموجود حالياً حديث العهد ***(عمران و دبورة، 1998، ص62).***

يرى "كينغ" أن أرضية الممر الدفاعي هذه قد جرى تخفيضها في عهد لاحق، وأضيف من أجل ذلك الدرج المحدث، وهي نفس الملاحظة التي كتبها على باب الطابق الثاني ***(KING, 1951, P.71)***. كما يرى أيضاً بأن باباً مماثلاً للباب الغربي يقابله في الجهة الشرقية **(لوحة رقم)** يؤدي إلى الممر الواقع خلف البدنة (4 – 5) ولكنه مسدود، ويمكن ملاحظة موقعه من الخارج ***(المصدر السابق، P.72)***. ولا يزال ذلك الباب مسدوداً حتى الوقت الحالي.

السطح والستائر:

يستمر الدرج القائم في الجدار الغربي للبرج رقم (4) في الصعود بعد اجتياز باب الطابق الثالث، ثم ينحرف باتجاه الشرق حتى يؤدي إلى السطح. وهو سطح مستو محاط بستائر عالية من جهاته الثلاث، باستثناء الجهة الشمالية المطلة على القلعة. وهذه الستائر تتألف كغيرها من طابقين: الأول يحتوي على الرواشن والمرامي، والثاني يحتوي على الشرافات الدفاعية .

إن الستائر السفلية في هذا البرج تختلف في تنظيمها عما في الأبراج الأخرى، إذ يتقدمها ممر عرضه (1.94م) مسقوف بعقد طولي مدبب المقطع، يحيط بالجهتين الجنوبية والشرقية، وهناك قطعة خاصة بستائر الجهة الغربية منفصلة عن الممر العام بسبب وجود درج السطح الذي يحول دون اتصال هذا الممر الغربي بالممر الرئيسي. وللممر أبواب من السطح، اثنان في الجهة الجنوبية وواحد في الجهة الشرقية، وهي على شكل قنطرة ذات قوس مخموس، عرضها (1.47م) وارتفاعها (2.15م)، ويتقدم الممر الغربي قنطرة مسقوفة بواسطة البوارز والسقائف الحجرية، وهي تحمل الدرج الصاعد إلى الستائر العلوية.

ويلاحظ بأن الرواشن والمرامي في ستائر هذا البرج هي في مستوى أرض الممر، ولا تحتاج إلى درج للدخول اليها كما هو الحال في ستائر الأبراج المجاورة.

---

[65] الباب المار ذكره: قنطرة واسعة مفتوحة في الجدار الشمالي.

ويكثر في هذا البرج العناصر الدفاعية أكثر من غيره من أبـــراج القلعـــة، **فالطـــابق السفلي من الستائر** يحتوي على سبعة رواشن وسبعة مرامي، وهي مرتبة بالتناوب روشـــن يليه مرمى. وموزعة كما يلي: ثلاثة رواشن في الواجهة الجنوبية بثلاثة سقاطات، وواحد في كل من الواجهتين الشرقية والغربية.

ويلاحظ أيضاً بأن الروشن الذي يتوسط الواجهة الجنوبية، لا يحتوي مرمى كما هو الحال في الرواشن، والسبب هو وجود الكتابة التذكارية في واجهته (**الكتابة رقم 14**)[66] ونصها:

" بسم الله الرحمن الرحيم جدد عمارة البرج المبارك في ايام
مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي خلد الله
سلطانه بتولي العبد الفقير الى الله سيف الدين قجقار[67] المنصوري الـصالحي فـي سـنة
ثمانين وستمائة ".

إلا أنه يعتبر أكبر رواشن القلعة لأنه يحتوي على أربع سقاطات بدلاً من ثلاث .

أما المرامي السبعة الكائنة بين الرواشن فهي هنا بـــدون أواويـــن، ولكنهـــا كبيـــرة فارتفاعها يبلغ (1.75م)، وسعتها (1.13م)، وشق المرمى الخارجي سـعته (9ســم)، وهـــي موزعة كما يلي: أربعة في الواجهة الجنوبية، اثنان في الواجهة الشرقية، وواحـــد فقـــط فـــي الواجهة الغربية، نظراً لوجود الدرج فيها. ويلاحظ بأن المرميين البعيـــدين فـــي الـــواجهتين الشرقية والغربية يقعان خلف مستوى البدنات. ولذلك فقد أصبح لهما ميل خاص لتكون عملية الرمي فيهما ممكنة نحو الخارج. وفتحة هذا النوع من المرامي ذات مسقط على شكل مثلـــث قائم الزاوية.

أما القسم العلوي من الستائر فيتألف من جدار قليل السماكة (95ســـم) مكـــون مـــن شرفات يفصل بينها فرجات ضيقة سعتها (55سم). وهذه الشرفات مستطيلة الشكل ومؤلفة من مدماكين مبنيين من نفس حجارة البناء التي بنيت بها جدران الأبراج. وقد فتح في وسط كـــل شرافة مرمى صغير ارتفاعه نحو (1.15م) أي ما يعادل ثلثي طول المرامي الموجـــودة فـــي طوابق البرج والستائر السفلية. ويلاحظ بأن الشرفات التي تحتل زوايا البرج لها وجهان فـــي كل منها مرمى. وهذا القسم من البرج له قيمة دفاعية هامة بسبب كثرة المرامي التي يحتويها وعددها هنا 17 مرمى موزعة كالتالي: تسعة في الواجهة الجنوبية، وأربعة فـــي كـــل مـــن الواجهتين الشرقية والغربية. ومن الملاحظ بأن مرامي الواجهتين الـــشرقية والغربيـــة كلهـــا موجهة بشكل مائل نحو الخارج.

وعند تأمل تلك الشرفات نلاحظ في أسفلها وعلى جانبي كل فرجة وجود ثقبين مربعين طول ضلع كل منهما (10سم). وهذه الثقوب موجودة في أكثر ستائر الأبراج الباقية، وخاصة في (البرجين 3 و 2) وفي البدنة (3 – 4). وقد تم توضيح وظيفة تلك الثقـــوب مـــن خـــلال الحديث عن الأسلحة والستائر الإضافية في الفصل الأول من هذا البحث. ويرى "ســـوفاجيه" بأن تلك الثقوب هي آثار ستائر خشبية كانت تثبت في هذه الثقوب المربعة. ويمكن الـــدخول

---

[66] Repertiore, 1954, op. cit, T.XIII, N°4925, P.85
Sobernheim, 1922, op. cit, N°12, P.42

[67] اسمته المصادر التاريخية وكذلك الكتابات الأخرى ارجواش والجمقدار.

للستائر الخشبية من الفرجات الكائنة بين الشرافات الحجرية ***(SAUVAGET, 1930, P.70)***.

أما "كينغ" فلديه رأي مختلف فيقول بأن مثل هذه الثقوب يمكن مشاهدتها في قلعة بعلبك وقلعة القدس، ويبدو أنها موجودة بشكل عام في أبنية الأيوبيين والمماليك، ويستبعد أن تكون مخصصة من أجل الستائر الخشبية وذلك بسبب الصعوبات العملية وعدم وجود نص عربي يشير إلى استعمالها، ويتسائل لماذا تستعمل في منطقة كدمشق فقيرة بالأخشاب، ومن أجل حماية برج جرى تزويده جيداً بالرواشن. ومن المحتمل أن تكون تلك الثقوب وجدت لحمل ما يسد الفرجات الكائنة بين الشرفات من أجل حماية المقاتلين ***(KING, 1951, P.73)***.

وقد سبق وتبين استناداً إلى المصادر العربية بأن الستائر الإضافية استخدمت في قلعة دمشق (الفصل الأول، ص39). ومن المعروف بأن دمشق غنية بالأخشاب التي تزودها بها غوطتها الواسعة.

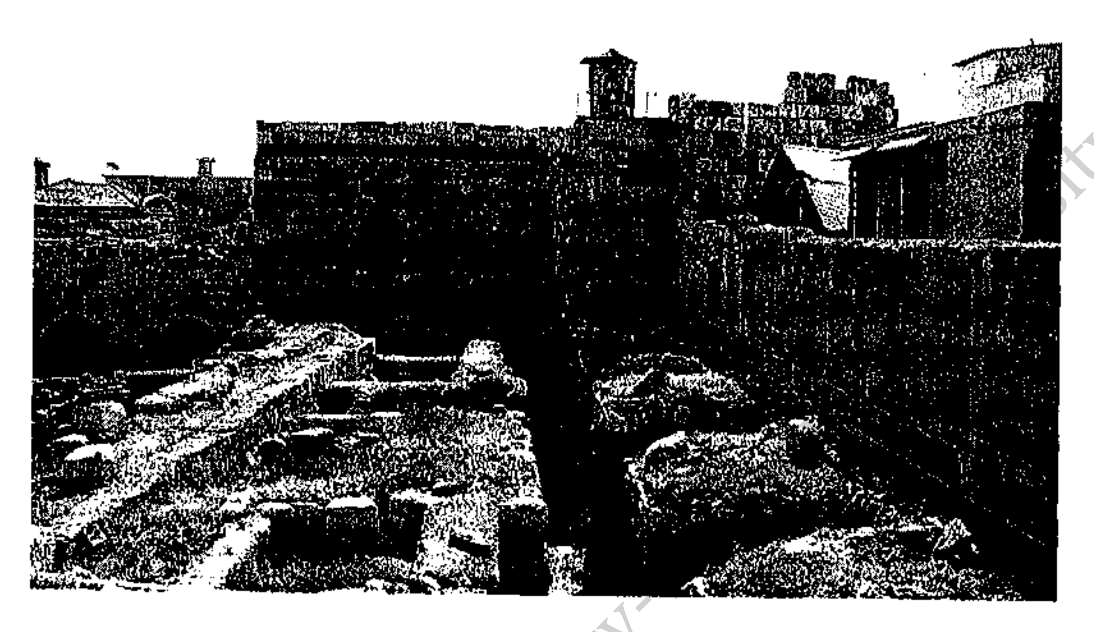
إن هذا البرج ما يزال يحافظ على وضعه منذ تاريخ بنائه سنة 605هـ/1208م، وتوضح ذلك (**كتابة رقم 2، أنظر ص 26**) التي ما تزال موجودة في واجهته الجنوبية خلف مخازن سوق الحميدية.

البدنة (4 – 5):

يبلغ طولها (31م) (**أنظر المخطط رقم 5، ص 69**)، تهدمت من الداخل وكانت قد حلت محلها منشآت حديثة في القرن التاسع عشر حتى بداية الثمانينات من القرن الماضي، ولم يبقى منها سوى الواجهة الخارجية، وهي دون مستوى الستائر من حيث الإرتفاع. بنيت بحجارة متنوعة مما يدل على ترميم طرأ عليها في العهد المملوكي. وكان قد بقي من المرامي مرمى واحد يجاور البرج رقم (5). إلا أنه في فترة الترميم الأخيرة، وبعد إزالة الردميات، ظهرت أربع فتحات أخرى للمرامي فأصبح مجموع المرامي في هذه البدنة خمسة مرامي، كما نلاحظ أن حجارة البدنة منفصلة عن البرج رقم (5).

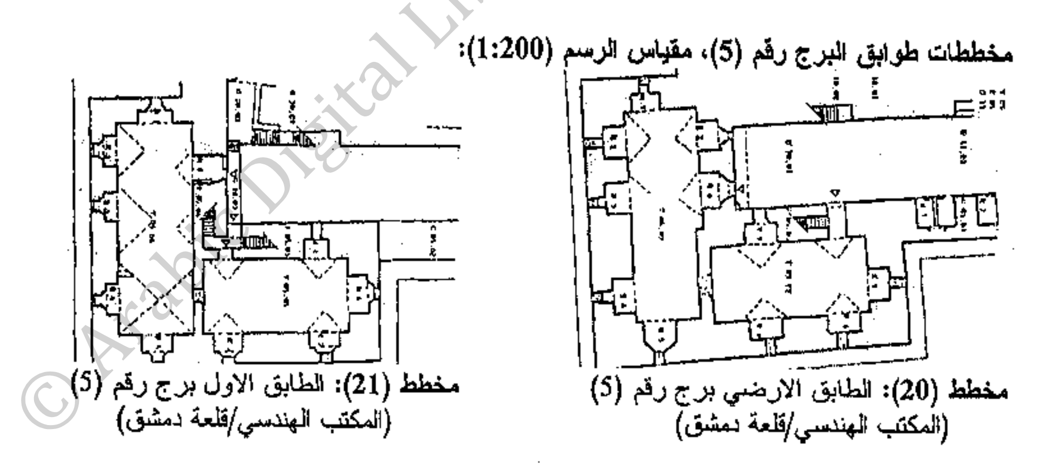
البرج رقم (5):

بني هذا البرج في عام 604هـ/1207م، ويحتل زاوية القلعة الجنوبية الشرقية، وهو يختلف بشكله عن سائر الأبراج، فهو يشبه برجين مستطيلين تلاقيا على شكل زاوية قائمة. طول واجهته الشرقية (27.5م) وطول واجهته الجنوبية (25م). مخططه الداخلي يتألف من قاعتين مستطيلتين متعامدتين إحداهما في الجهة الشرقية للقلعة والأخرى في الجهة الجنوبية وتتصلان ببعضهما بواسطة باب مفتوح في الجدار الجنوبي للقاعة الشرقية. ويتألف السقف من عقدين طوليين متعامدين على بعضهما ويتقاطعان في نهايتهما محدثين قبوة ذات عقد قاطع في زاوية البرج. ويتقاطع مع كل من هذين العقدين الطوليين عقود جانبية أقل ارتفاعاً مشكلة أواوين في الواجهات تحيط بالمرامي، وأواوين مقابلة لها في الجدران الداخلية. هذا ويحتوي كل طابق على ثمانية مرامي: ثلاثة في كل من الواجهتين الرئيسيتين: الجنوبية والشرقية، وواحد في كل من الجدارين الجانبيين.



صورة رقم (12): زاوية البرج رقم (5) من داخل القلعة مع جزء من البدنة (4-5) المكتشف حديثا تحت المشغل.

مخططات طوابق البرج رقم (5)، مقياس الرسم (1:200):



مخطط (20): الطابق الارضي برج رقم (5) (المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

مخطط (21): الطابق الاول برج رقم (5) (المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

أما الأواوين الخلفية المار ذكرها فكان قد تحوّل أكثرها في فترة استخدام القلعة كسجن إلى شبابيك ونوافذ، فقامت مديرية الآثار الى إزالتها وإعادة تلك الأواوين إلى وضعها الأصلي. ويقع باب البرج المتصل بالممر الدفاعي في الجدار الخلفي (الغربي) للقاعة الشرقية ويحتل إيوانها الشمالي، وعلى يمين الداخل منه إلى البرج يوجد الدرج الصاعد إلى الطابق العلوي. وفي الزاوية الشمالية الغربية من القاعة الجنوبية يوجد دورة مياه تعتبر جزء من التصميم الأصلي للبرج.

لقد تهدم القسم العلوي من البرج وزالت ستائره، ولم يبقى منه سوى طابقين . جرت على البرج ترميمات عديدة تبدو في واجهاته كلها، ومن تفحص حجارة جدرانه نستنتج بأن

التجديد شمل سائر الجدران من الأعلى إلى الأسفل، ولكن تلك الترميمات لم تغير من هندسته الأولى.

ويبدو البرج في الصورة القديمة المار ذكرها أكمل مما هو عليه الآن بكثير حيث تظهر الرواشن في واجهتيه الشرقية والجنوبية. وهي ثلاثة في زواياه وواحد يتوسط كلا من واجهتيه وهو بفتحتين فقط، ويظهر من البناء فوق الرواشن مدماكان يخصان الستائر. ولقد تبين بعد تكبير الصورة المشار اليها بأن روشن الزاوية الشمالية الشرقية يشبه في تصميمه تماما روشن هذه الزاوية في البرج (رقم 8) الذي سيأتي شرحه، والمرمم في عهد السلطان الغوري. ويلفت الإنتباه أيضا في هذه الصورة مستوى الرواشن الذي يبدو أكثر انخفاضاً من رواشن الأبراج المجاورة في الواجهة الجنوبية للقلعة، مما يدل على أنها تأتي بعد الطابقين الأرضي والعلوي، أي أن هذا البرج كان مؤلفاً من طابقين وستائر فقط. وتشير الكتابات المنقوشة على واجهتيه على أنه هدم وجدد مرتين:

الأولى: في عهد السلطان الناصر محمد بن قايتباي سنة 903هـ/1497م **(الكتابة رقم 28)** وتتضمن:

" الحمد لله جدد عمارة هذا البرج المبارك بعد وقوعه في ايام مولانا السلطان الملك الناصر ابي السعادات ولد مولانا السلطان قايتباي في آخر سنة ثلاث وتسعمائة
الحمد لله وحده ".

والثانية: في عهد السلطان الغوري سنة 919هـ/1513م **(انظر الكتابة رقم 31)**[68] وتتضمن:

"بسم الله الرحيم
امر بتجديد هذا البرج المبارك لهدمه مولانا السلطان قانصوة الملك الاشرف عز نصره بمباشرة المقر السيفي سقطباي[69]... اعز الله انصاره بتاريخ سنة تسع عشرة وتسعمائة
الحمد لله عمل الواثق
بربه العزيز احمد بن العطار ".

ونظرا لتقارب الفترتين فمن المحتمل أن يكون قد هدم مرة واحدة وبدئ بتجديده في أيام الناصر ثم اكتمل في عهد الغوري.

نلاحظ في الواجهة الجنوبية آثار التجديد واستخدام حجارة من عهد أقدم تشوهت وذهب أغلبها.

والواجهة الشرقية للبرج فيبدو بناؤها أقل اهتمام من الواجهة الجنوبية، وفي أعلاها **(الكتابة رقم 31)** المذكورة أعلاه والمؤرخة لأعمال السلطان الغوري، وهي منقوشة على مدماك يتوسط هذه الواجهة، في مستوى الطابق الثاني، محاط بإطار من الزخارف يتألف من مشربيات ذات لونين أبيض وأسود بالتناوب، يتوسطها حشوة مستديرة. وعلى جانبي شريط الكتابة توجد حشوتان مستديرتان من الحجارة المتداخلة بلونين أبيض وأسود.

---

68 Sobernheim, 1922, op. cit, N°25. P.27

69 ورد اسمه في اعلام الورى (ص199) "سنطباي"، وهو نائب القلعة في ذلك الوقت.

• انظر بشأن الكتابات 33، 34 الجدول العام للكتابات.

يرى "كينغ" بأن دوائر الحشوات كانت أماكن للمدافع نظراً لأن المدافع كانت مستخدمة في القلاع السورية في أواخر العهد المملوكي، وأن الغوري نفسه بنى برجاً في خندق قلعة حلب معداً لإستخدامها قبل خمس سنوات من تجديد هذا البرج. ومن المحتمل أن يكون الغرض من تجديد هذا البرج هو جعله يتلاءم مع استخدام المدافع ***(KING , 1951, P.75).***

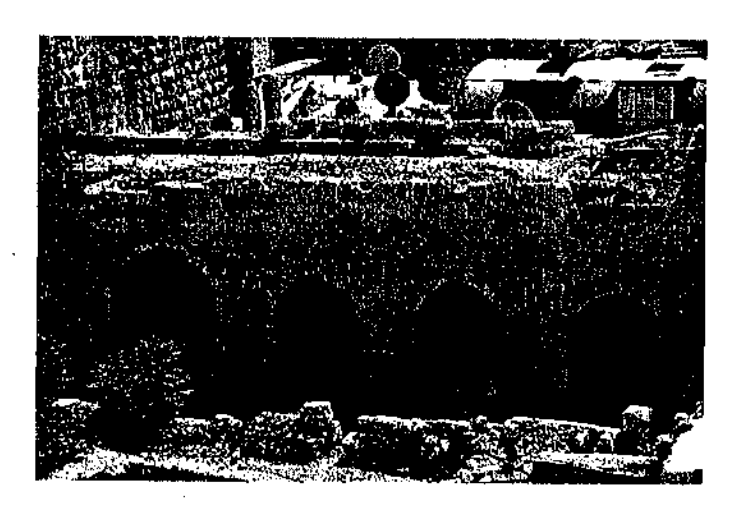
والواقع أن الحشوات المستديرة التي يتحدث عنها تشكل مع شريط الكتابة عملاً فنياً منسجماً، ولا يبدو عليه أي تغيير أو تعديل.

أما عن استخدام المدافع من قبل المماليك فقد تم ذكره في هذه الدراسة من خلال الحديث عن الأسلحة في الفصل الأول من هذه الدراسة. ونلاحظ آثار التجديد أيضاً في جدران البرج المطلة على داخل القلعة، وهي تظهر مكشوفة بعد زوال الممر الدفاعي الملاصق لها في الأصل. ففي أعلى الجدار الشرقي مداميك من الآجر ومداميك استخدم في بنائها حجارة بيضاء وسوداء بالتناوب. وحجارة مأخوذة من أبنية رومانية قديمة. أما الأجزاء السفلية فتحتفظ بحجارتها الأولى البارزة النحت والتي ترجع إلى عهد الملك العادل الأيوبي.

البدنة (5 – 6):

يبلغ طولها (24م)، وتبدو منفصلة عن كل من البرجين رقم 6 ورقم 5 اللذين يحدانها، مما يدل على أنها أقيمت بعد انتهاء بنائها لتصل بينهما **(انظر مخطط رقم 5، ص 70).** تحتوي هذه البدنة على أربعة مرامي في الطابق الأرضي، ضمن أواوين أوسع من المعتاد، كانت تستعمل سابقاً غرفاً منفردة للسجناء قبل أن تتسلم مديرية الآثار القلعة من قوى الأمن الداخلي.

مرامي الطابق الثاني، جرى حديثاً تعديل على وضعها حيث تم إجراء ترميمات لها. أما الستائر فقد زالت كلياً، كانت هذه البدنة بحالة جيدة حتى أواخر القرن التاسع عشر، وكانت تحتوي على روشن واحد.ونشاهد في أعلى الواجهة لوحة لم تكتمل أعدت لنقش كتابة تذكارية، وتشغل مدماكين أحيطا بإطار زخرفي، في أركانه قولبات تتألف من مجموعة أقواس وزوايا. ويعلو اللوحة في وسطها حجر منحوت على شكل صدفة.



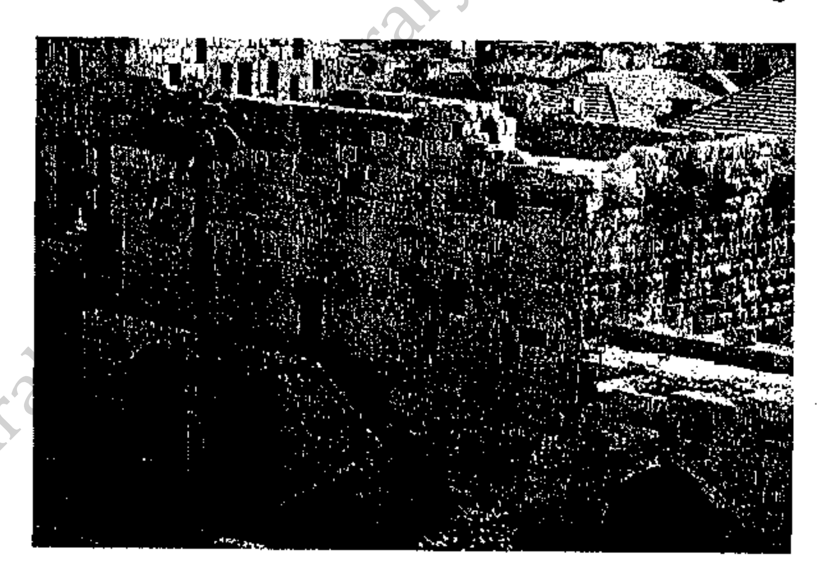
صورة رقم (13): الواجهة الشرقية من البدنة (5-6)

البرج رقم (6):

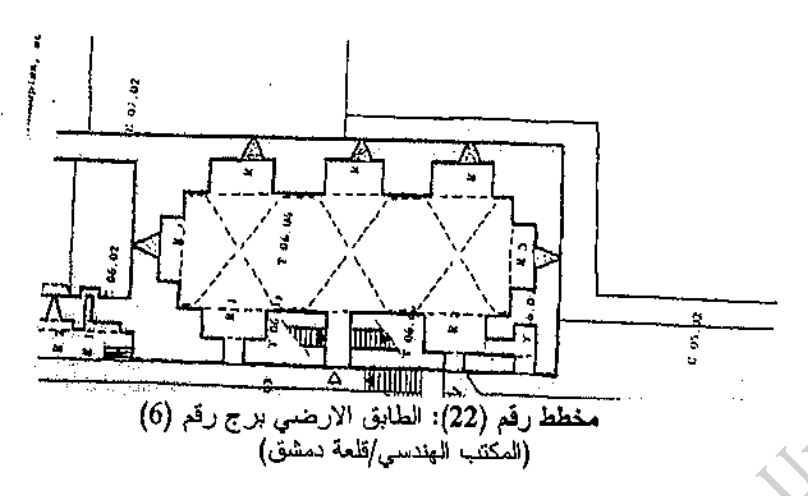
وهو أصغر الأبراج المستطيلة المشيدة منذ عهد الملك العادل الأيوبي. اطواله (21.5 × 14م)، ويبرز عن البدنة المجاورة مقدار (9.5م). أما مخططه فهو كسائر الأبراج المستطيلة، يتألف من ثلاث قباب عقودها متقاطعة يفصل بينها قوسان حجريان. ويحتوي كل طابق على خمسة مرامي: ثلاثة منها في الجدار الشرقي، ومرمى في كل من الجدارين الجانبيين الشمالي والجنوبي.

ونشاهد في الجدار الغربي وهو المطل على داخل القلعة، ثلاثة أواوين في الداخل ومثلها في الخارج. ويحتل باب البرج أحد هذه الأواوين (الشمالي). وعلى يمين الداخل من هذا الباب يقع الدرج المؤدي إلى الطوابق الأخرى.

وهذا البرج أصيل، ولكن أقسامه العليا مهدومة وستائره زائلة لم يبق منها سوى حوامل الرواشن ومدماك كان فوقها، باستثناء الجدار الشمالي للبرج فإنه يحتفظ بستائره السفلية كاملة . وكان البرج في الأصل مزوداً بستة رواشن: اثنان منها في زاويتي الواجهة الشرقية، واثنان في وسطها، وواحد في كل من الواجهتين الشمالية والجنوبية. ولكن هذه الرواشن أصغر من تلك التي نجدها في الأبراج الأخرى، حيث يحتوي كل منها على سقاطتين فقط بدلاً من ثلاثة، أما بالنسبة لروشني الزاويتين فيحتوي كل منهما على أربع سقاطات بدلاً من ستة في الأبراج الأخرى.



صورة رقم (14): الواجهة الداخلية للبرج رقم (6) من داخل القلعة



مخطط رقم (22): الطابق الارضي برج رقم (6)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

ويبدو أن هذه الرواشن ليست أصيلة، بل جرى تجديدها مع الستائر في العهد المملوكي. وعند تفحص الروشن المتبقي في الجدار الشمالي، نجد تشابهاً ملحوظاً بينه وبين رواشن البدنة (7 – 6) المجاورة له من حيث الحجم ونوعية الحجارة. ولذلك بإمكاننا أن ننسب عملية الترميم إلى سنة 713هـ/1313م أي السنة التي تم فيها تجديد البدنة المذكورة. وعلى هذا الأساس فلا نستطيع أن ننسب عملية تجديد الستائر والرواشن إلى الظاهر بيبرس إعتمادا على (**الكتابة رقم 10**)[70] والتي يمكن مشاهدتها منقوشة على كامل المدماك الواقع أسفل الروشن مباشرة في الواجهة الشرقية، والتي تشير إلى ترميم البرج بشكل عام في عهد الظاهر بيبرس كما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم امر بتجديد هذا البرج المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر المنصور ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة و المشركين قاهر الخوارج والمتمردين فاتح الامصار مبيد الافرنج والتتار صاحب البرين مالك القبلتين زين الحاج والحرمين قسيم امير المؤمنين خلد الله سلطانه وضاعف امكانه وشيد شأنه ببقاء المولى السلطان الملك السعيد ناصر الدنيا والدين اعز الله انصاره وضاعف اقتداره بتولي العبد الفقير الى الله الامير شجاع الدين اسماعيل ابن عمر الطوري الملكي الظاهري في شهر جمادى الآخر سنة ثلاث وسبعين وستمائة ".

ذلك لأن أعمال الظاهر والفن المعماري الموجود في أماكن أخرى من القلعة يختلف اختلافاً واضحاً عن الترميمات التي نحن بصددها. مما يدل على أن البرج رمم أولاً في عهد الظاهر بيبرس ثم رمم مرةً أخرى في وقت لاحق.

البدنة (6 – 7):

هي أقصر بدنات السور طولها عشرة أمتار فقط (**انظر مخطط رقم 5، ص69**)، فيها باب يؤدي إلى داخل القلعة وخارجها. قسمها السفلي حتى مستوى الرواشن أصلي (أي من عهد

---

[70] Repertiore, 1950, op. cit, T.X, N°4477, P.193

العادل الأيوبي) وبحالة جيدة. والقسم العلوي مجدد في عهد الناصر محمد بن قلاوون كما تشير (**الكتابة رقم 19**)[71] والمنقوشة في أعلاه، وتتضمن:

" امر بعمارة هذه البدنات مولانا السلطان الملك
الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن الملك المنصور قلاوون بتوليه الامير عز الدين ايبك
رحمه الله في سنة ثلاث عشر وسبعمائة ".

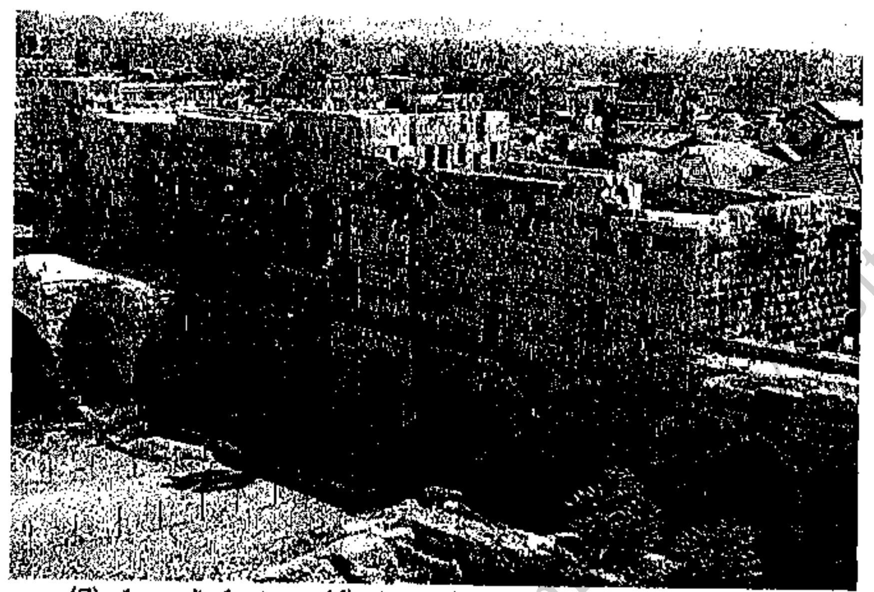
ومن الملاحظ أن هذه البدنة على صغرها هي أكثر البدنات تحصيناً بسبب وظيفتها التي تتطلب حماية باب القلعة، فهي تحتوي على روشنين بينهما مرمى في الطابق الثاني، وروشن بين اثنين من المرامي في الستائر.

وهذه البدنة هي أكثر ارتفاعاً من سائر البدنات. وبالإضافة إلى ما أشارت اليه الكتابة المار ذكرها، إلا أننا نلاحظ آثار التجديد بادية على البدنة في قسمها العلوي، حيث اختلف نحت الحجارة عن الأصل واختلفت هندسة القسم المجدد من حيث شكل المرامي والرواشن في الواجهة ومن الخلف. فالروشنان الكائنان في الطابق الأوسط صغيران يحتوي كل منهما على فتحة واحدة (سقاطة) ومرمى صغير.

أما الروشن العلوي فمزود بثلاثة فتحات، وحوامل هذا الأخير مؤلفة من ثلاثة أحجار متراكبة بدلاً من اثنين كما هو معروف في الرواشن الأيوبية. وتبدو آثار التجديد من الخلف واضحة وهي من عهد متأخر. ولقد طرأ تعديل على النظام الدفاعي في هذه المنطقة من القلعة من أجل زيادة تحصين مدخلها الشرقي، فأحدثت بدنة أخرى أمامية تصل بين مقدمتي البرجين وأصبحت تسد الفسحة المؤدية لباب القلعة. ويتوسطها في الأسفل باب مستطيل له ساكف يعلوه قوس عاتق. وفوق الباب روشن ذو ثلاثة فتحات ومرمى في كل من جانبيه. اما القسم العلوي فيتألف من ثلاثة نوافذ مستطيلة، تعلوها ثلاثة مداميك. وقد ظهرت في الصورة القديمة قنطرتان عاليتان ومتجاورتان.

وعند تفحص واجهة هذه البدنة نلاحظ بأن القسم السفلي أقدم من قسمها العلوي، فالأول هو الأصلي، حيث شيد على الأرجح في عهد السلطان الناصر بن قلاوون لأن عناصره الهندسية تشبه في بنائها الأقسام التي جددت في البدنة الداخلية أي في سنة 713هـ/1313م. أما القسم العلوي فتعتقد الباحثة أنه بني في العهد العثماني المتأخر، وليس له قيمة دفاعية. ويبدو أن الفسحة الواقعة بين البدنتين قد استخدمت في ذلك العهد كغرف لإقامة الحرس، وتألف منها ثلاثة طوابق: الأرضي الذي استخدم كمدخل للقلعة، والأوسط عبارة عن غرفة مزوّدة بثلاث نوافذ مطلة على خارج القلعة، والعلوي عبارة عن مقصورة لها قنطرتان مشرفتان على المدينة. ووجود هذه المنشآت غير الدفاعية عند باب القلعة يفسره زوال الصفة الحربية عن القلعة في أواخر العهد العثماني.

[71] Repertiore, 1957, op. cit, T.XIV, N°5325, P.78
Sobernheim, 1922, op. cit, N°14, P.30



صورة رقم (15): الواجهة الداخلية للبرج رقم (6) مع واجهة البرج رقم (7)

الباب الشرقي:

وهو باب القلعة الرئيسي من جهة المدينة. يقع بين برجين متقاربين بينهما مسافة عشرة أمتار. والباب مفتوح في الجدار الجنوبي للبرج رقم (7) كما سبق أن ذكر، وتحميه الدفاعات الموجودة في البرجين معاً والبدنة التي تصل بينهما، وتتألف هذه الدفاعات من مرامي ورواشن عديدة.

ويتجه السير بعد اجتياز الباب في خط منكسر إلى داخل القلعة، وهذا الباب أقل حصانة من الباب الشمالي لسبب أنه كان أقل تعرضاً للهجوم، فهو باب كان يستخدم للدخول والخروج إلى دار الإمارة ومقر السلطان أو نائبه.

وقد بني هذا الباب على شاكلة أبواب القصور، فهو فخم تزينه المقرنصات والزخارف **(صورة رقم 16)** .وهذا الباب مفتوح في إيوان سعته (4.25 × 2.20م)، يعلوه قوسان فوق بعضهما من النوع المركب، وحجارتها منحوتة بشكل مصقول على العكس من حجارة جدار البرج البارزة النحت. وفتحة الباب مستطيلة ومحاطة بإطار من القولبات، وله ساكف من قطعة واحدة من الحجر عليها شريط بارز النحت يؤلف خطوطاً منكسرة. ويعلو الساكف قوس عاتق قليل الإرتفاع، مؤلف من حجارة متداخلة مفصصة.

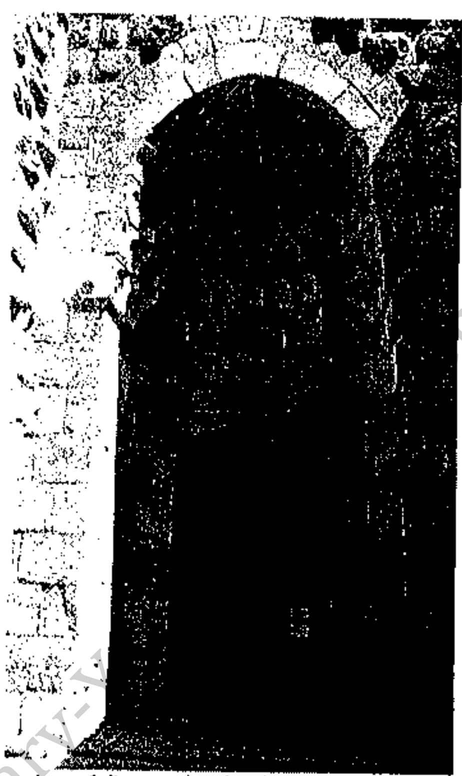
وإيوان الباب معقود بنصف قبة فيها أربعة صفوف من المقرنصات تنتهي بطاسة شعاعية وفي زاويتي القبة محرابان صغيران مسقوفان بقبة منقوصة، ويوجد في الصف السفلي من المقرنصات اثنان من المحاريب مزينان بزخارف نباتية مخرمة. بينما زينت المحاريب الأخرى برسوم ملونة. وفي أسفل المقرنصات مباشرة يوجد شريط من القولبات ينتهي عند جانبي الإيوان ملتفاً بدائرة من الزخارف الهندسية. وتعتبر هذه المقرنصات من أجمل النماذج التي عرفتها أبواب المباني الدمشقية في القرن الثالث عشر ***(SAUVAGET, 1930,***

(P.72). وتوجد فوق ساكف الباب كتابة نقشت في العهد المملوكي (**الكتابة رقم 20**)[72]، وتتضمن مرسوماً سلطانياً بشأن خزائن السلاح كان قد صدر سنة 781هـ/1379م، وتقول هذه الكتابة:

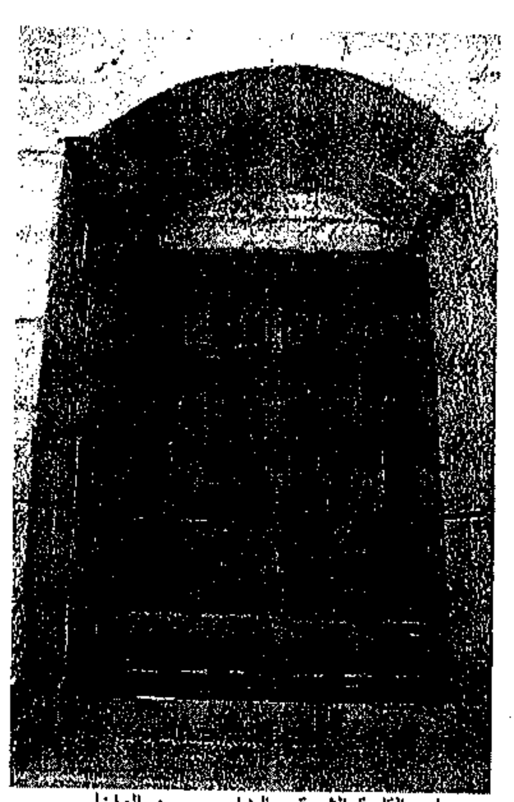
" بسم الله الرحمن الرحيم لما كان بتاريخ مستهل شهر شعبان المكرم سنة احدى وثمانين وسبعمائة ورد مرسوم شريف شرفه الله تعالى وسبحانه
على المقر الاشرف المخدومي السيفي كمشبغا المنصوري كافل المملكة الشريفة الشامية المحروسة اعز الله انصارها تاريخه حادي
عشرين جمادى الآخرة سنة تاريخه ومضمونه المرسوم بالامر الشريف العالي السلطاني الملكي المنصوري العلائي اعلاه الله تعالى
وشرفه ان يبطل كلما استجد على مال خزائن السلاح المنصورة المقرر على الجامع بدمشق المحروسة من مرتب وغيره وان تحمل الامر على حكم المراسيم المكرمة قبل تاريخه

بذلك وان لا ينصرف لاحد من خلق الله تعالى الدرهم الفرد سوى الجزء بابتياع من السلاح والاصناف والآلات برسم خزائن السلاح المنصورة وجامعيه
مباشريها وان يستعاد ما حدث خلاف ذلك لاستيفاء سنة احدى وثمانين وسبعمائة ممن قبضه ويحمل الى خزائن السلاح ليصرف في ثمن ابتياعاتها يكون ملعون ابن ملعون
من يتعرض ذلك بشيء حسب المرسوم الشريف بالاشارة العالية الأتابكية السيفية برقوق المنصوري عز نصره وذلك في أيام المقر الشريف المخذومي الزيتي زبالة الفارقاني عز نصره ".

Sobernheim, 1922, op. cit, N°15, P.15. [72]



باب القلعة الشرقي الداخلي المزين بالمقرنصات





باب القلعة الشرقي الخارجي من الداخل

صورة رقم (16)

البرج رقم (7) وباب القلعة الشرقي:

يمتاز هذا البرج بكونه يحتوي على باب القلعة الشرقي الذي يصلها بالمدينة. وهو مستطيل الشكل، طوله (27.5م)، ويبرز عن البدنة المجاورة له من الجهة الشمالية مقدار (7.5م)، وعن البدنة المجاورة له من الجهة الجنوبية (11.5م).

أما باب القلعة فمفتوح في جوار البرج الجنوبي. ويحتوي هذا البرج على ثلاثة طوابق في داخلها قاعات مستطيلة ذات قبتين مسقوفتين بعقدين متقاطعين مصنوعين كباقي عقود القلعة من الحجر الغشيم والمونة. يفصل بين العقود غالباً أقواس من الحجارة المنحوتة . وكان يكسو السقوف والأقواس كلسة مزينة بزخارف جصية ملوّنة، بقي جزء منها بالجهة الجنوبية للبرج قريباً من المدخل [73].

ويوجد في زاوية القبوة الشمالية باب صغير مفتوح على الممر الدفاعي الواقع خلف البدنة (8-7). أما القبوة الجنوبية فتؤدي إلى داخل القلعة عن طريق غرفة مربعة لها باب مفتوح في جانبها الشمالي يؤدي إلى أحد أبراج القلعة السلجوقية[74]. وفي جدارها الجنوبي باب

---

[73] يوجد تقريراً للمهندس الفرنسي (Eustache de Lorey) حول هذة الزخارف وضعه عام 1926م يقول فيه: أن هذه الزخارف كانت تغطي سطح القوس الحجري وتتألف من شريط من الآيات القرآنية مكتوبة فوق أرضية من الزخارف النباتية.
ويقول أيضاً: بأنه شاهد في مكان آخر من هذه القاعة آثاراً لزخارف من العهد المملوكي من القرن الخامس عشر.(**التقرير محفوظ في المعهد الفرنسي لدراسات الشرق الأدنى في دمشق).**

[74] يرى سوفاجيه بأن ذلك الباب هو الباب الشرقي للقلعة القديمة بدليل مقاييسه الصغيرة والحجارة الملونة في قوسه العاتق، التي تعتبر اول نموذج من نوعه يستعمل في دمشق. ويرجع تاريخها الى القرن الثاني عشر الميلادي.

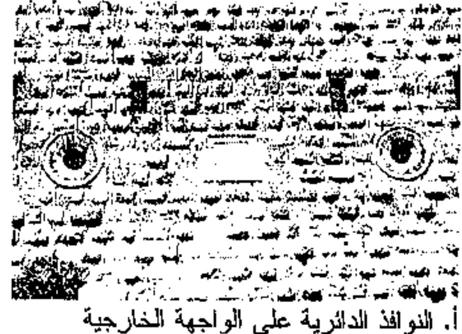
ثاني يؤدي إلى الممر الدفاعي الممتد خلف البدنة (6 – 7)، وإلى جواره آثار محراب زالت معالمه. وتتصل هذه الغرفة من الجهة الغربية بالقاعة الكبيرة (رقم 14).

ويحتوي كل من طوابق (البرج رقم 7) على ستة مرامي، اربعة منها في الجدار الشرقي وواحد في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي، باستثناء الطابق الأرضي، حيث يحتل باب القلعة موقع المرمى.

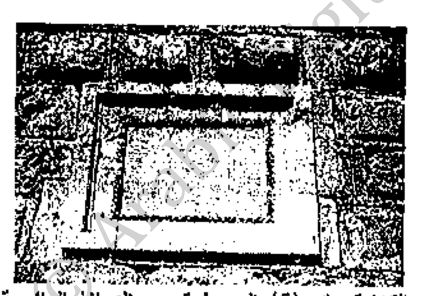
أما سطح البرج فقد تهدمت ستائره بما تحتوي عليه من رواشن ومرامي وشرفات. ولم يبق من الرواشن الستة سوى روشن واحد فوق باب القلعة وحوامل الرواشن الأخرى. وتتوزع الرواشن كما يلي: اثنان في الزاويتين الشمالية والجنوبية الشرقيتين. واثنان يتوسطان الجدار الشرقي، وواحد في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي. وكل منها يحتوي على ثلاثة سقاطات. ما عدا رواشن الزوايا فإنها تحتوي على ستة سقاطات.

وقد جرى ترميم ملحوظ على هذا البرج في أجزائه العلوية في عهد الظاهر بيبرس كما تؤرخه (**الكتابة رقم10، ص88**). ويبدو أن هذا البرج قد تعرض في عهد متأخر لأضرار في أواخر القرن التاسع عشر، أدت إلى زوال أجزاء منه كما هو ظاهر ، وتظهر في هذه الصورة الرواشن بكاملها وفوقها خمسة مداميك من حجارة البناء. أما بقية أقسام البرج فما تزال محافظة على شكلها الأصلي، وتشاهد في الواجهة الشرقية كتابة جميلة من عهد الملك العادل الأيوبي وعلى جانبيها طاقتان ضمن إطار جميل من الحجارة المنقوشة على شكل جديلة أو سلسلة متداخلة الحلقات .

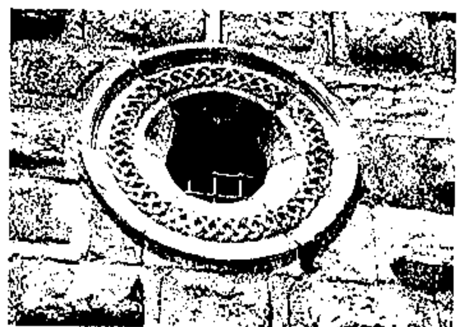
صورة رقم (17):



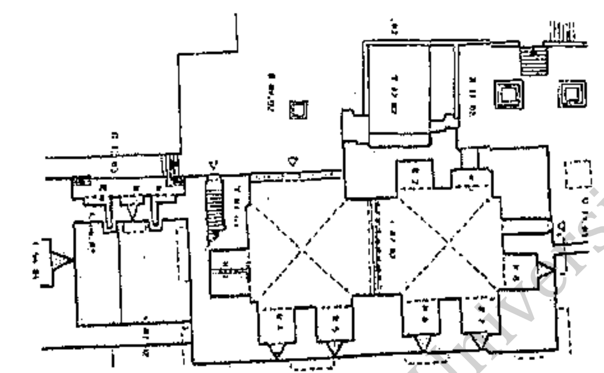
أ. النوافذ الدائرية على الواجهة الخارجية الشرقية للبرج رقم (7)



ب. الكتابة رقم (5) الوسطية بين النوافذ الدائرية



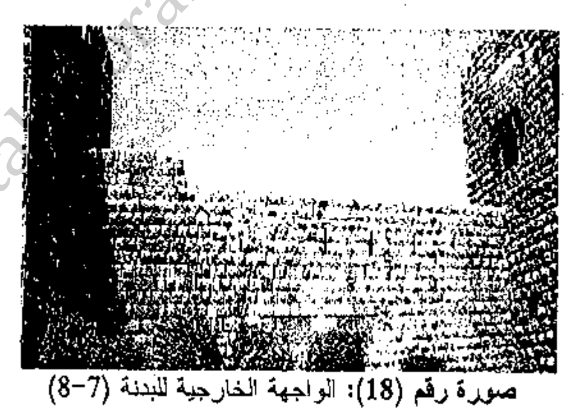
ج. إحدى النوافذ الدائرية المنقوشة في الواجهة الخارجية الشرقية للبرج رقم (7).

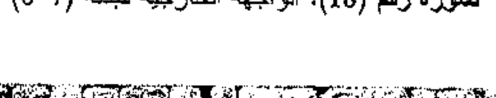


مخطط رقم (23): الطابق الاول للبرج رقم (7) – مقياس الرسم (1:200)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

البدنة (7 – 8) :

يبلغ طول هذه البدنة (32.5م) وهي متصلة بالبرج رقم 8 بشكل محكم **(أنظر المخطط رقم 5، ص 69)**، اي أن أحجارها متداخلة مع حجارته، بينما نجدها تنفصل عن البرج رقم 7 وكأنه بني مستقلاً عنها. ونجد هذه الظاهرة الأخيرة في أكثر البدنات، ويمكن تفسير ذلك بكون أبراج القلعة بني كل منها مستقلاً عن الآخر، ثم شيدت البدنات لتصل فيما بينها.





صورة رقم (18): الواجهة الخارجية للبدنة (7–8)



صورة رقم (19): الكتابة رقم (9) المنقوشة على الواجهة الخارجية للبدنة (7–8)

ما تزال هذه البدنة بحالة جيدة محتفظة بوضعها القلعة في عهد الظاهر بيبرس (**الكتابة رقم 9**)[75] وتحتوي ما يلي:

للوحة العليا:

" لله الملك رب العالمين

مديم نعمته على الشاكرين"

الشريط السفلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم عز مولانا السلطان الملك ركن الدنيا والدين العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور بيبرس النجمي الصالحي وامر بعمارة القلعة المنصورة بعد تسليمها للعدو المخذول في حادي وعشرين من جماد الآخر

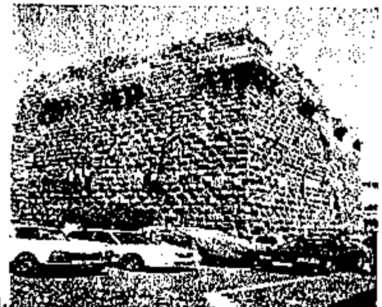
في سنة ثمان وخمسين وستمائة واستخلصها الجيش المنصور يوم الاحد سابع والعشرين من رمضان المبارك في التاريخ المذكور بتولي العبد الفقير الى رحمة الله تعالى الامير عز الدين ايبك الملكي الظاهري الصالحي المعروف بالزراد وتمت هذه العمارة في سنة تسع وخمسين وستمائة ".

ويتصف تصميم بدنات القلعة بشكل عام بالمميزات التالية:

سور سميك مبني بالحجارة المنحوتة مزوّد بطبقتين من المرامي. الطبقة السفلية في مستوى أرض الممر الدفاعي، ويتقدم كل مرمى إيوان. والطبقة العليا تقع فوق سطح الممر الدفاعي، ومراميها خالية من الأواوين. ثم تنتهي البدنة في أعلاها بشرفات ذات مرمى أصغر حجماً. ولكن مرامي الطبقة العليا زودت بالأواوين أيضاً.

(البرج رقم 8) برج الزاوية الشمالية الشرقية:

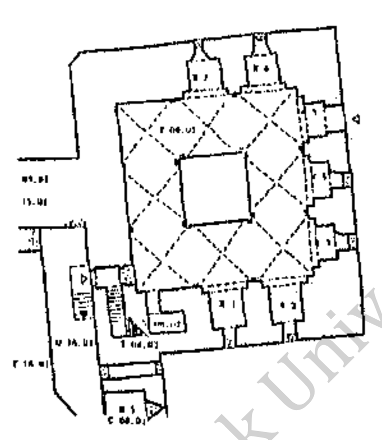
يتميز هذا البرج بكتلته الضخمة، ومخططه الذي يجعله يختلف عن أشكال الأبراج الأخرى، فهو ذو شكل مربع تقريباً. أطواله (20 × 24م). ويتقدم عن السور أكثر من الأبراج الأخرى أيضاً حيث تبرز جبهته الشرقية عن السور مقدار 15م وتبرز جبهته الشمالية مقدار 8م.



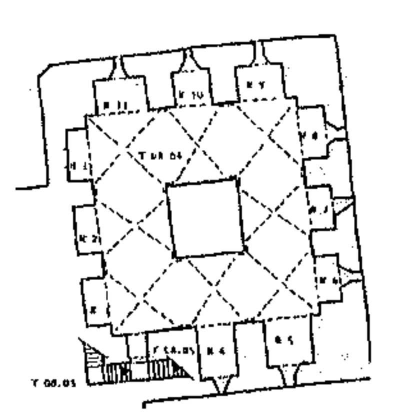
صورة رقم (20): الزاوية الشمالية الغربية للبرج رقم (8)

[75] Sobernheim, 1922, op. cit, N°8
Repertiore, 1947, op. cit, T.XII, N°4477, P.58

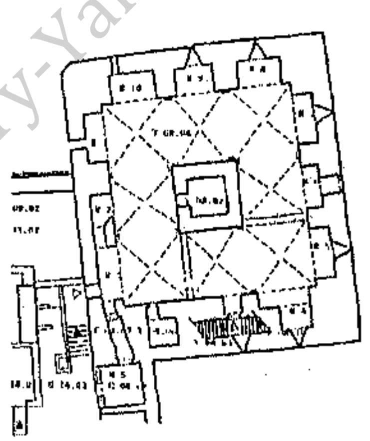
مخططات طوابق البرج رقم (8)، مقياس الرسم (1:200):



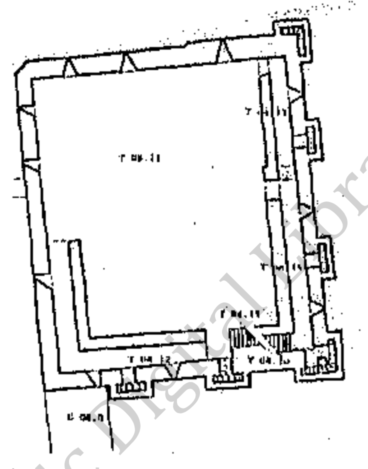
مخطط رقم (24): الطابق الارضي البرج رقم (8)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط رقم (25): الطابق الاول البرج رقم (8)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط (26): الطابق الثاني برج رقم (8)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط (27): الطابق الثالث برج رقم (8)
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

وهذا البرج مؤلف من ثلاثة طوابق وسطح مزوّد بالستائر. يتوسطه من الداخل عضادة ضخمة مربعة الشكل طول ضلعها 5م تحمل السقوف. ويتألف السقف من ثمانية أقباء كل منها عقد متقاطع، تحيط بالعضادة، مستندة عليها من جهة، وعلى الجدران الخارجية للبرج من جهة أخرى، ولكنها في الطابق الثاني تحتوي على غرفة صغيرة. وفي كل طابق من طوابق البرج يوجد تسعة مرامي، ثلاثة في كل من الواجهتين الشرقية والشمالية، وواحد في القسم البارز من الواجهة الغربية، واثنان في القسم البارز من الواجهة الجنوبية (متوسط سعة أواوين المرامي 3.30 × 3.30م). وهناك نافذة كبيرة مقنطرة (ذات قوس في أعلاها) حلت محل المرمى المتوقع وجوده وسط الواجهة الشرقية في في الطابق الأوسط (الثاني). وباب (الطابق الأرضي) مفتوح في الجدار الغربي، كان يتم الدخول اليه من (الممر الدفاعي)، وإلى جانبه الدرج المؤدي إلى الطوابق العليا والسطح.

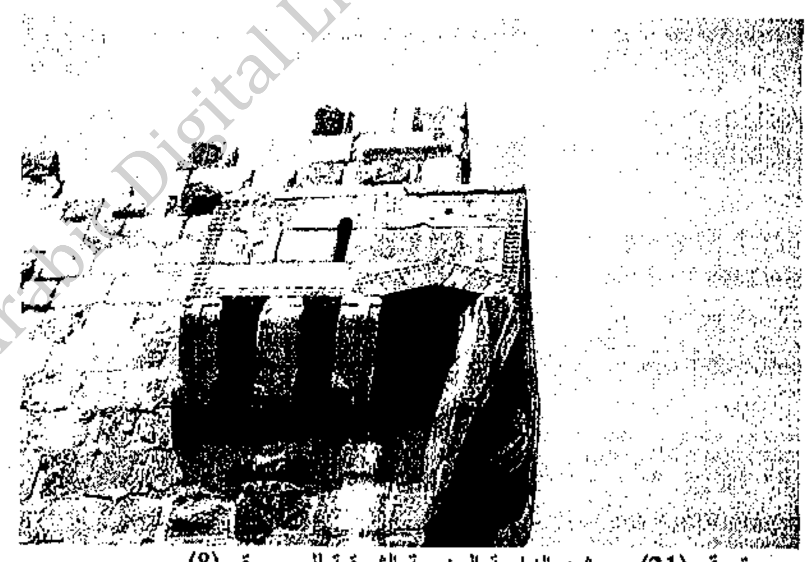
ويتصل الطابق الأوسط أيضاً بالممر الدفاعي العلوي بواسطة باب مفتوح في الجدار الجنوبي للبرج، يتم الوصول اليه من الدرج الذي تقدم ذكره والمجاور لباب الطابق الأرضي

والذي يستمر حتى السطح. والدرج المذكور مسقوف بعقد طولي متدرج، بعضه أفقي وبعضه مائل بالتناوب.

يحيط بالسطح ستائر ذات طابقين، كسائر أبراج القلعة. أما الستائر العليا فيصعد إليها من درج في الجهة الجنوبية، ولا تزال أقسام هامة منها بحالتها الأصلية (أي من عهد العادل الأيوبي)، وهي عبارة عن سلسلة من الشرافات المزودة بالمرامي، يفصل بين شرفة وأخرى فجوة.

والستائر ذات أهمية كبيرة في الدفاع عن القلعة حيث تحتوي على القوة الضاربة الرئيسية. ففي الطابق السفلي للستائر نجد مجموعة من المرامي والرواشن وزعت بالتناوب كما يلي: ثلاثة مرامي في كل جهة من الجهات الأربعة، باستثناء الجهة الجنوبية التي تحتوي على اثنين من المرامي فقط بسبب احتلال الدرج لمكان المرمى الثالث.

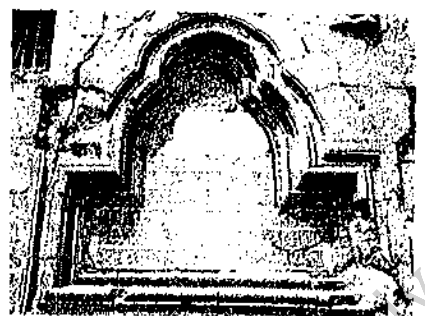
أما الرواشن، فهناك روشن كبير مؤلف من ست سقاطات عند كل زاوية من زوايا البرج، باستثناء الزاوية الجنوبية الغربية لأنها تقع داخل القلعة. وقد بقي من هذه الرواشن الثلاثة اثنان فقط احدهما في الزاوية الجنوبية الشرقية وهو أصيل، والثاني في الزاوية الشمالية الشرقية وهو مجدد في عهد الغوري. ومع الرواشن الكبيرة يوجد روشنان أصغران يتوسطان كلا من الواجهتين الشرقية والجنوبية ويحتوي كل منهما على ثلاثة سقاطات. أما رواشن الواجهة الشمالية فقد زالت، بينما لا تحتوي الواجهة الغربية في الأصل على أية رواشن بسبب وقوعها داخل القلعة.



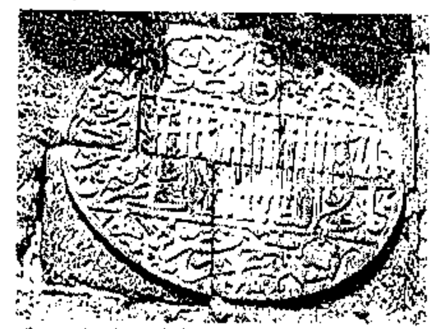
صورة رقم (21): روشن الزاوية الجنوبية الشرقية للبرج رقم (8)

شيد هذا البرج في أيام العادل سنة 606هـ/1209م كما تنص **(الكتابة رقم 4،أنظر الفصل الأول، ص26)** المنقوشة في أسفل واجهته الشرقية. وقد بنيت واجهات البرج بأحجار بارزة النحت، باستثناء الرواشن فإن البروز في حجارتها يختلف عن بقية حجارة البرج. وهي ذات سطح مستو قليل البروز. وواجهات هذا البرج خالية من الزخارف، باستثناء القسم الحاوي على الكتابة التذكارية المار ذكرها .

الكتابات المنقوشة على الواجهة الشرقية للبرج رقم (8):



صورة رقم (22): الكتابة رقم (3)



صورة رقم (23): الكتابة رقم (4) اسفل الواجهة



صورة رقم (24): الكتابة رقم (22)

والواجهة الجنوبية هي أكمل الواجهات وما تزال بحالتها الأصلية دون أن يدخل اليها اي ترميم. أما الواجهة الشرقية فقد طرأ عليها ترميم يبدو بشكل واضح في نوعية الأحجار، فهي ملساء في الأقسام المرممة. وتنحصر هذه الأقسام في أعالي الجانب الشمالي من الواجهة وتشمل روشن الزاوية والروشن المجاور له وبضعة مداميك إلى الأسفل منها وحتى نهاية الستائر. كما يتخلل الأقسام السفلى من هذه الواجهة في جانبها الشمالي أيضاً أحجار ملساء تختلف عن الحجارة الأصلية مشيرة إلى عملية ترميم اخرى أرختها (**الكتابة رقم 30**)[76] في عام 915هـ/1509م ونسبتها إلى السلطان قانصوه الغوري، وتحتوي هذه الكتابة ما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم امر بتجديد هذا البرج المبارك لهدمه مولانا السلطان الملك الاشرف قانصوة الغوري خادم الحرمين الشريفين مهزم الجيشين عز نصره
بتاريخ سنة خمس عشرة وتسعمائة
عمل الواثق بربه العزيز احمد بن العطار".

الرنك هنا دائرة مؤلفة من ثلاثة أسطر كما يلي:
"قانصوه
عز لمولانا السلطان الملك الاشرف ابو النصر قانصوه الغوري
عز نصره".

[76] Sobernheim, 1922, op. cit, N°24.

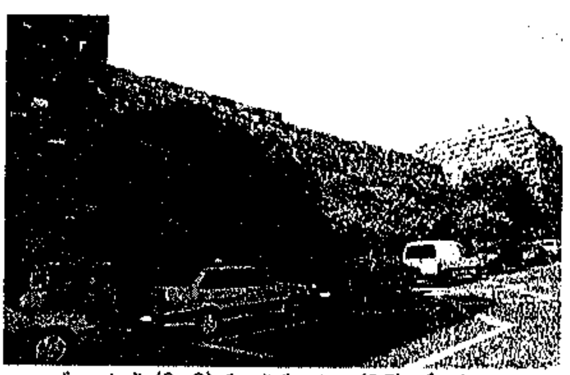
ولا تتميز أعمال الترميم هذه باختلاف الحجارة فقط، بل نلاحظ تغييراً في الهندسة أيضاً. يتجلى ذلك في روشن الزاوية الشمالية الشرقية المجدد، حيث نلاحظ الحاملة الوسطى المرتكزة على زاوية البرج أطول من الحوامل المألوفة، فهي تتألف من أربعة أحجار بدلاً من حجرين في حوامل الرواشن الأيوبية، كما أن هذه الحجارة منحوتة بشكل مختلف ولها ثلاثة وجوه مؤلفة هرماً رأسه إلى الأسفل. وفتحات الروشن خمسة بدلاً من ستة، ثلاثة منها في الواجهة الشرقية، صممت اثنتان منها على شكل قنطرة، حيث تحوّل الساكف المألوف إلى قوس مؤلف من فقرات من الحجارة بيضاء وسوداء بالتناوب. وواجهة هذا الروشن مزينة بإطار من الزخارف المنقوشة. ويمكن تمييز مرحلتين من الترميم في الواجهة الشمالية: القسم الشرقي العلوي بناؤه أكثر اتقاناً ويشبه الترميم الموجود في الجانب الشمالي للواجهة الشرقية، مما يدل على أنه رمم في عهد الغوري ايضاً. أما بقية أقسام الواجهة فهي أقل عناية وحجارتها أصغر حجماً، ولا بد أن يكون ترميمها قد حدث في وقت متأخر من العهد العثماني. وان سبب عدم تجديد الرواشن يدل على ضعف أهمية القلعة من الناحية الإستراتيجية، وعدم جدوى دفاعاتها أمام مدفعية المحاصرين.

أما الجدار الغربي فيرجع تاريخ تجديد القسم البارز منه عن السور إلى نفس التاريخ الذي جددت فيه الواجهة الشمالية. ويعتقد "كينغ" أن ترميم هذه المنطقة من البرج كان في عام 1772م بعد الحصار الذي ضربه الجيش المصري بقيادة محمد أبو الذهب، واستخدمت فيه المدافع *(KING, 1951, P.83)*.

وقد تكون تلك الترميمات قد تمت بعد زلزال عام 1173هـ/1759م، حيث أشارت اخبار الزلزال إلى تهدم أقسام من القلعة وأبراجها، وإلى قيام الدولة العثمانية بترميم ما تهدم *(المرادي، ج3، 1964، ص82)*.

البدنة (8 – 9):

يتصل البرج رقم (8) بالبرج رقم (9) ببدنتين بطول (10م) **(أنظر المخطط رقم 5، ص69)**، حيث تم تدعيم الجدار الداخلي الأساسي ببناء جدار أمامه ليحصر ممراً بينهما. يوجد للجدار الخارجي ثلاثة مناسيب دفاعية: زوج من المرامي في منسوب الطابق الأرضي، وزوج آخر مع سقاطة فوق البوابة، ومجموعة من الفتحات المستطيلة في الأعلى لإستخدام المدافع. كما يثبت وجود الروشن فوق البدنة الخارجية بأنها بنيت في وقت لاحق.

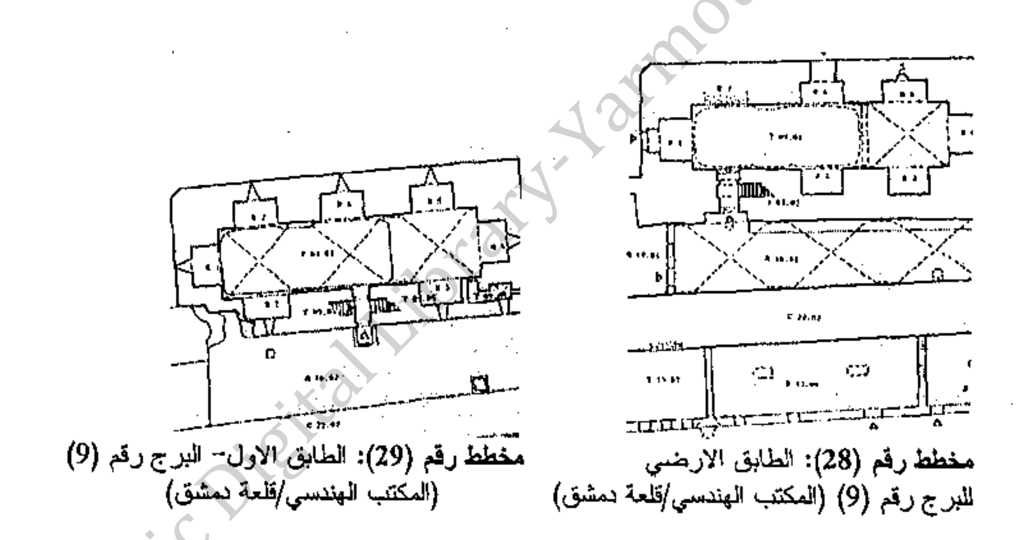


صورة رقم (25): واجهة البدنة (8–9) الخارجية

البرج رقم (9):

يقع هذا البرج في الواجهة الشمالية بين باب القلعة الشمالي وبرج الزاوية الشمالية الشرقية، مستطيل الشكل، طوله (31م) وعرضه (14م)، ويبرز عن البدنات مقدار (9م). يتألف من طابقين. في كل منهما قاعة ذات ثلاثة معازب مسقوفة بأقباء تفصل بينها أقواس من الحجر المنحوت. يحتوي الطابق السفلي على ثلاثة مرامي في الجهة الشمالية وواحد في كل من الجهتين الشرقية والغربية. أما باب البرج فيقع في الإيوان الغربي من الأواوين الثلاثة الموجودة في الجدار الجنوبي.

الطابق العلوي مماثل للطابق السفلي من حيث التنظيم سوى أن الباب مفتوح في الإيوان المتوسط من الجدار الجنوبي. وقد خصص الإيوان الغربي لبيت الدرج الطابقي. الدخول إلى هذا الطابق حالياً غير متيسر بسبب انهدام جانب من سقف الطابق السفلي. ويلاحظ التجديد بشكل عام في واجهات هذا البرج باستثناء الواجهة الجنوبية.



مخطط رقم (28): الطابق الارضي للبرج رقم (9) (المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

مخطط رقم (29): الطابق الاول- البرج رقم (9) (المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

الممر الدفاعي:

أحيطت أسوار القلعة من الداخل بممر دفاعي، أطلق عليه في العهد المملوكي إسم "الأقباء المستديرة" **(ريحاوي، 1973، ص45)**، وكما هو في نص **(الكتابة رقم 15)**[77] من عهد قلاوون، والمتضمنة مايلي:

الوجه الجنوبي من العضادة:

" امر بعمارة هذه الاقباء الدائرة المولى السلطان الاعظم الغازي
المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور فاتح الامصار والثغور ملك

الوجه الغربي:

الاسلام حامي الشريعة المحمدية بالجيوش الاسلامية مبيد الطغاة وعبدة الا
وثان قاتل اهل الشرك وحملة الصلبان الملك المنصور

الوجه الشمالي:

سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي رفع الله الاسلام ببقائه واكثر

[77] Sobernheim, 1922, op. cit, N°3, P30.

بعزه ونصره (...) اعتابه وذلك بتولي العبد الفقير الى ربه المستوهب
الوجه الشرقي:
غفران ربه الامير الاجل المجاهد المثاغر كهف الفقراء والمساكين
علم الدين سنجر ارجواش الجمقدار المنصوري في شهور سنة اربع وثمانين وستمائة ".

ومهمة هذا الممر تامين الإنتقال بين الأبراج والبدنات ومرامي البدنات الموزعة في أنحاء سور القلعة، وكذلك حماية الرماة أثناء الحصار من ضربات العدو. لقد تهدمت أكثر أقسام هذا الممر، ويتعذر الوصول إلى بعض أقسامه. أما الأجزاء الباقية منه إلى الآن فنجدها على طول الجبهة الجنوبية، وهنالك جزء في الجهة الشرقية خلف البدنة (7 – 8)، وجزء في الجهة الشمالية خلف البرج رقم (9).

والممر في قسمه السفلي مسقوف بالأقباء الصغيرة على شكل عقود متقاطعة تفصل بينها أقواس من الحجر المنحوت. وترتكز الأقباء من ناحية على جدران البدنات والأبراج، ومن الناحية المقابلة على جدران المباني الداخلية التي كانت تحيط بالممر.
إن عرض الممر ليس واحداً في كل أجزائه، بل يختلف من مكان لآخر، وهو يتراوح بين 2 – 5م. وكذلك الحال بالنسبة لإرتفاعه، فأعلى سقف في الممر نجده في منتصف الجبهة الجنوبية ويقدر ارتفاعه بسبعة أمتار .

وهنالك ممر دفاعي في الطابق العلوي فوق سطح الممر الأرضي، يقوم بنفس مهمة الممر الأرضي، ولكنه غير مسقوف. توجد قطعة فقط مسقوفة عند الزاوية الجنوبية الغربية.
ويكون الإتصال بين الممرين السفلي والعلوي عن طريق الأبراج من جهة، ومن جهة أخرى عن طريق أدراج مقامة في الممر نفسه. تم العثور حتى الآن على واحد منها في النهاية الغربية للممر الجنوبي، وثان في وسطه، وثالث في الطرف الشمالي للممر الشرقي عند البدنة (7 – 8)، ورابع في الممر الشمالي خلف البدنة (9 – 10).
كما توجد للممر السفلي منافذ تصله بباحة القلعة، عبر المباني المحيطة به، يوجد واحداً منها مقابل البرج رقم (2) وآخر مقابل البرج رقم (3).

البدنة (9 – 10):
يبلغ طول هذه البدنة تقريباً (35م)، وهي مهدومة لم يبقى منها سوى قطعة تلاصق البرج رقم (10) **(انظر المخطط رقم 5، ص69)**. وتحتوي على مرمى أرضي واحد، نجد خلفه عند الممر الدفاعي درجاً يصعد إلى الستائر، وهي زائلة كلياً. والممر الدفاعي خلف هذه البدنة مهدوم أيضاً، وتشاهد آثار عقده عالقة في الجدار الخلفي للممر .



صورة رقم (26): جزء من البدنة (9-10) يظهر فيها المدخل الشمالي المحدث للقلعة

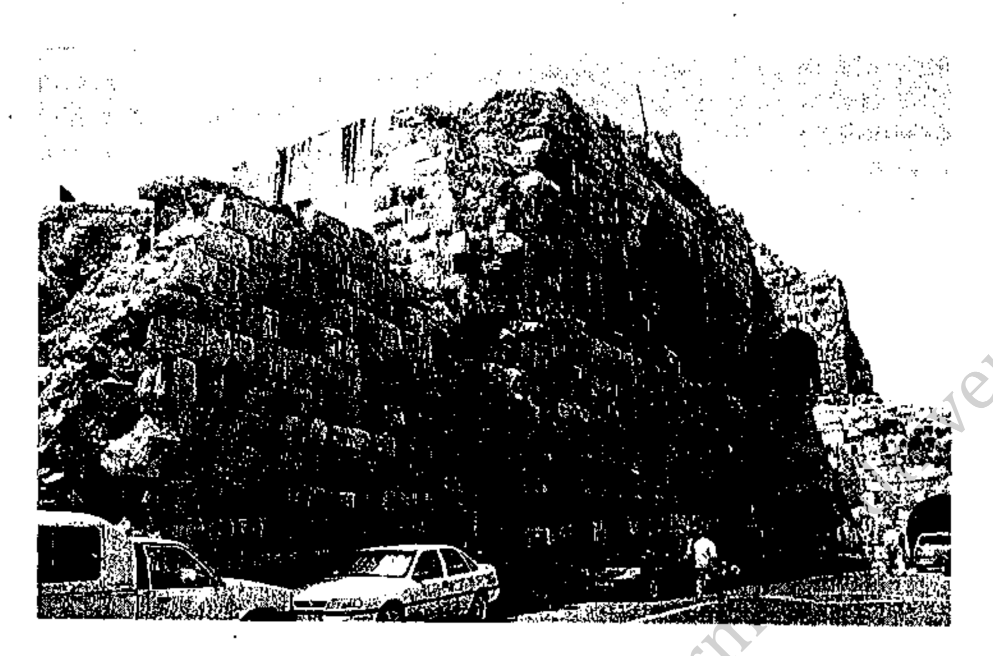
وهذا الجدار[78] يبلغ سمكه (5م)، ويوجد فيه حالياً خرق تمر منه السيارات، كان في الأصل واحداً من المرامي.

يرى "كينغ" بأن البدنة المذكورة هدمت بعد عام 1894م لأن الكتابة التي كانت على جدارها الشمالي (**كتابة رقم 6، ص27**) المؤرخة في عام 614هـ كانت موجودة خلال زيارة (Van Breshm) لدمشق سنة 1894، ونقل نصها في مجموعة الكتابات العربية لمدينة دمشق ***(KING , 1951, P.84)*** .

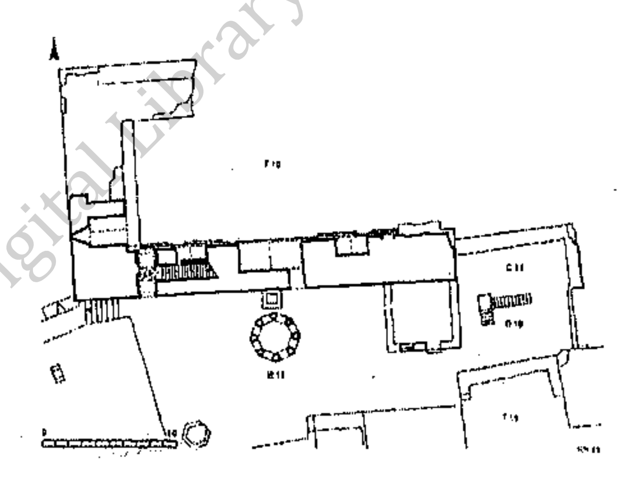
البرج رقم (10) وباب القلعة الشمالي:

وهو ثاني أبواب القلعة الرئيسية، يصلها بخارج المدينة، وللوصول منه إلى داخل القلعة يجب المرور داخل البرج رقم (10) ثم إلى قاعة مستطيلة خلفه حيث يوجد حالياً جامع أبي الدرداء، ثم إلى غرفة صغيرة أخرى تنتهي ببوابة داخلية تؤدي إلى داخل القلعة. ونلاحظ بأن الدخول إلى القلعة يستوجب السير في طريق ينكسر خمس مرات على شكل زاوية قائمة وهذا التصميم يساعد في إضعاف قوة اندفاع العدو إلى داخل القلعة، فضلاً عن أن الباب الخارجي لهذا الممر مفتوح في جدار جانبي للبرج مما يجعله أقل تعرضاً لضربات الأعداء مباشرة.

[78] هذا الجدار الخلفي هو من بقايا القلعة السلجوقية على الأرجح.



صورة رقم (27): الجزء المتبقي من البرج رقم (10) يظهر فيه مدخل جامع أبو الدرداء.



مخطط رقم (30): مسقط أفقي للبرج رقم (10)– مقياس الرسم من (1–200)– (المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

يرى "سوفاجيه" في هذا المدخل النموذج الكلاسيكي للمداخل التي تشبه شكل الحربة. ويضيف بأنها تشاهد في أكثر المباني العسكرية في حلب في القرن الثالث عشر كمدخل قلعة حلب ذي الأبواب الحديدية الثلاثة، والمساقط المفتوحة في سقوف الممر الذي يؤلف منحدراً مدرجاً. فمثل هذه العراقيل لا يوجد لها مثيل في دمشق. فبينما يتعرض المهاجم لمدخل قلعة حلب إلى الأخطار والخسائر وهو يحاول تحطيم الأبواب، فإن مدخل قلعة دمشق يقتصر دوره على تأخير اندفاع المهاجمين الذين تمكنوا من الدخول من الباب الخارجي ***(SAUVAGET, 1930, P.75)***.

يبرز البرج رقم (10) بكامله عن خط البدنات ويطل مباشرة على الضفة اليمنى للقناة المتفرعة عن نهر بردى (النهر المجدول) .

لهذا البرج واجهة طولها (30م) مزودة بأربعة مرامي. وطول جداره الغربي (17م) والشرقي (14م)، وفي كل منهما يوجد مرمى واحد ضمن إيوان. وفي الجدار الغربي يوجد الباب الشمالي للقلعة الذي تقدم ذكره، وقد جدد في العهد المملوكي أيام حكم نوروز الحافظي (سنة 1406م) بدليل (**الكتابة رقم 22**)[79] المنقوشة فوقه، والتي تقول:

" بسم الله الرحمن الرحيم ادخلوها بسلام آمنين[80] عمر هذه القلعة المنصورة مولانا ملك الامراء نوروز الحافظي أعز الله انصاره في شهور تسع وثمان مائة ".

ويرى "سوفاجيه" بأن بابا آخر كان مفتوحا في الجدار الشرقي يقابل الباب الغربي المذكور بدليل الآثار المتبقية من معالمه، وهو الباب الأصلي الذي كان في أيام العادل، وأن الباب الغربي محدث في العهد المملوكي ***(المصدر السابق، P.80)***.

بينما يرجح "كينغ" أن يكون هذا الأخير أصيل وبذلك يصبح لدينا باب مزدوج (بابان)، ويرى أن مثل هذه الأبواب نادرة ولكنها معروفة. ولاحظ أيضا بأن الباب الغربي كان مزودا بباب يغلق شاقوليا Herse، ويعتقد بأن هذا الباب الشائع الإستعمال في الحصون الصليبية قد تأخر استعماله في قلعة دمشق، وهو يرجع إلى ترميمات "نوروز" . ولاحظ بأن سماكة الجدار الغربي للبرج رقم (10) وهي (5.25م) قد زادت من الخارج بحدود (130سم) في عهد نوروز. ويقول بأنه يمكن ملاحظة الفاصل بين حجارة الجدار القديم الذي يرجع إلى عهد العادل والجدار الإضافي ***(KING, 1951, P.84)***.

تهدم سقف الطابق الأرضي لهذا البرج كما توضحه. أما الطابق الأول فقد بقيت قطعة من جداره الغربي، وفيها مرمى واحد، تشاهد بوضوح في. وبقي أيضا الجدار الجنوبي وفيه ثلاثة أواوين قليلة العمق. بينما زال الطابق الثاني كليا، باستثناء قطعة من جداره الجنوبي، وفيها نافذة تطل على سطح جامع أبي الدرداء القائم في القاعة الواقعة خلف البرج. ويؤدي إلى طوابق هذا البرج درج مسقوف بعقد حجري طولي (على شكل مهد أو سرير مقلوب) يصل حتى السطح. مبني داخل الجدار الجنوبي للبرج.

جامع أبي الدرداء:

يعتبر هذا الجامع جزءا متمما للبوابة الشمالية للقلعة، وهو عبارة عن قاعة واسعة تتصل بالبرج رقم (10) بواسطة قنطرة واسعة في جدار البرج الجنوبي ذات قوس مركب سعتها (7.15م). وإلى جانبها إيوانان صغيران وقليلا العمق، عرض كل منهما (1.35م)، بارتفاع (2.30م)، كما في اللوحة رقم (2) .وفوق القنطرة قوس عاتق يتألف من مدماكين مائلين على شكل جملون، ويشاهد هذا القوس العاتق بوضوح في الجدار الخلفي من جهة الجنوب.

وهذه القاعة مستطيلة تمتد من الشرق إلى الغرب. مسقوفة بعقد متقاطع في وسطه قبة صغيرة شبيهة بالمنور تحدث في العقد فتحة مربعة فوقها رقبة صغيرة، وهي مثمنة ذات حنايا

---

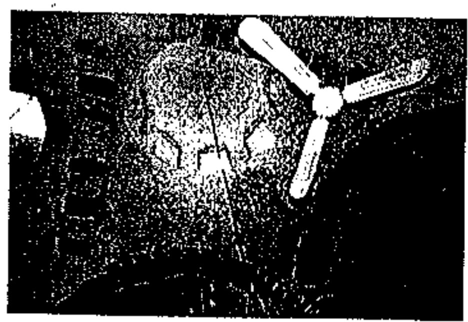
79 Sobernheim, 1922, op. cit, N°17.P17

80 نشرها سوبرنهايم (امين)، والصحيح هو ما أثبتناه بالرجوع الى الآية القرآنية.

أربعة موزعة في زواياها ونوافذ أربعة متناوبة مع الحنايا. أما طاسة القبة فهي مضلعة من الداخل.

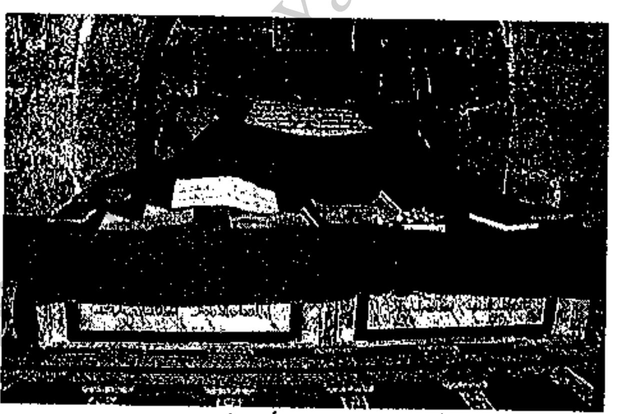


صورة رقم (28):
الفراغ الداخلي لجامع أبي الدرداء

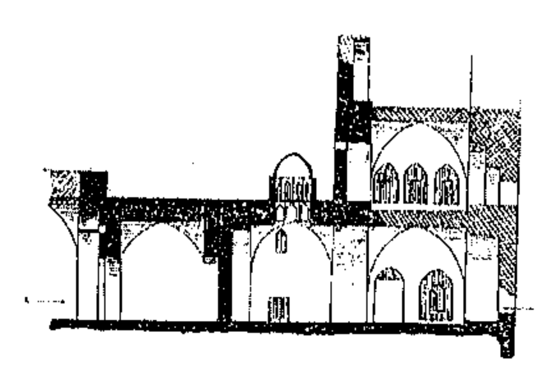


صورة رقم (29):
قبة الجامع من الداخل

ويلاحظ في الركن الشرقي من الحرم ضريح ينسب إلى أبي الدرداء قد أقيم داخل إيوان صغير، وهو عبارة عن مصطبة من الحجر، زينت جوانبها بألواح رخامية منقوش عليها أبيات من الشعر مؤرخة في سنة 1136هـ/1723م.



صورة رقم (30): ضريح أبي الدرداء



لوحة رقم (2): مقطع شمالي جنوبي يمثل برج رقم (10) ومسجد أبي الدرداء والمباني الواقعة عند المدخل الشمالي للقلعة (نقلا عن سوفاجيه، 1930، p127).

وفي الجدار الجنوبي للقاعة محراب، وإلى جانبه منبر حديث العهد. ومما يدعو للإستغراب وقوع المصلى هنا في الممر الرئيسي لبوابة القلعة الشمالية حيث يمر المشاة والفرسان على السواء. فهل هذا الوضع أصيل أم طارئ ؟ ومتى بني المسجد والمقام؟

لا يمكننا القول بأن المكان بني في الأصل مسجداً، فمن الناحية المعمارية لا نجد العناصر التي تخص عمارة المساجد متوفرة فيه، فالمحراب غير أصيل وناشئ عن عملية حفر في الجدار، وكذلك المنبر فيبدو أنه حديث العهد. أما القبة فقد وجدت اثنتان مثلها في قاعات القلعة الأخرى (القاعتان 13 و 14) ، فهي إذن وسيلة للإنارة [81].

أما من الناحية التاريخية فقد ورد في الفصل الأول ما يتعلق بالصحابي أبي الدرداء، وداره التي ذكرها ابن عساكر، وقبره الذي عثر على شاهدته في مقبرة الباب الصغير، وقد ذكر ابن كثير مسجد أبي الدرداء وبين فيه أن الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل جدد مسجد أبي الدرداء *(ابن كثير، ج13، 1932م، ص148)*. كما ذكر المسجد مرة ثانية في حوادث سنة 678هـ/1279م عندما كتب عن حضور القضاة والعلماء ورؤوس البلد وأعيانه إلى مسجد أبي الدرداء بقلعة دمشق *(المصدر السابق، ص288)*. وأورد الخبر ذاته ابن تغري بردى *(ابن تغري بردى، 1992، ص294)*، وفي القرن التاسع الهجري وصف لنا أبو البقاء قلعة دمشق دون أن يذكر المسجد بل يقول: "وفي القلعة ضريح السيد الجليل أبي الدرداء *(أبو البقاء، 1341، ص60)*". كما يحدثنا ابن طولون في بداية العهد العثماني عن مقام أبي الدرداء في القلعة ويذكر مكوثه فيه للدراسة *(ابن طولون، 1931، ص2 و 6)*. ولكن لم يحدد أي منهم مكان المسجد أو المقام.

مما سبق نستنتج أن مسجد أبي الدرداء أو مقامه هو حقيقة واقعة، ولعلها جاءت من الرغبة في الحفاظ على ذكرى حياته في دمشق وموضع داره التي كانت في مكان ما من القلعة قبل بنائها. ولكن أين كان المسجد في العهد الأيوبي حين جدده الملك الأشرف؟ وهل كان هنا في هذا المكان الذي لا ينسجم مع فكرة وجوده في المدخل الرئيسي للقلعة وفي خط سير الداخلين والخارجين إليها؟ هذا ما لم تستطع الباحثة تفسيره.

وكان لقاعة المصلى هذه عدة أبواب أحدها في جدارها الشرقي يصلها بالممر الدفاعي الممتد خلف البدنة (9 – 10) ولكنه مسدود حالياً. والمنفذ الثاني مفتوح في الجانب الغربي من الجدار الجنوبي ومنه إلى الممر الدفاعي الواقع خلف البدنة (10 – 11) كما يؤدي إلى باحة القلعة ويستعمل حالياً كباب وحيد للمسجد[82]. وكان هنالك منفذ ثالث مفتوح في الجانب الشرقي من الجدار الجنوبي أيضاً، ويؤدي إلى الباب الداخلي لهذا المدخل عن طريق غرفة صغيرة. وإلى الغرب من هذا الباب يوجد غرفة مستطيلة لها باب صغير ينزل إليه بعدة درجات مفتوح في الجدار الجنوبي نحو باب القلعة. وإلى الغرب من هذه الغرفة يقع الدهليز المؤدي إلى مسجد أبي الدرداء. ويوجد لوحان من الحجر نقشت على أحدهما أبيات من الشعر، وآية قرآنية تتضمن (بسملة. وسقاهم ربهم شراباً طهورا). مما يدل على وجود سبيل ماء، وتنتهي بتاريخ

---

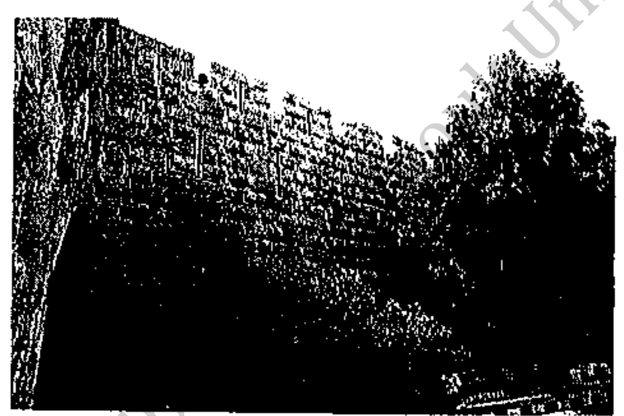
[81] لاحظ "سوفاجيه" في بحثه عن قلعة دمشق بأن وضع القبة الشاذ كقبة مركبة في قمة عقد القبو يعتبر غير مألوف للقباب في دمشق وحلب، فلقد جعلت رقبتها بسبب صغر قطرها من ثمانية أضلاع بدلاً من ستة عشر وذلك لكي تتسع الأضلاع لفتح النوافذ فيها للإنارة.

[82] أشار "سوفاجيه" في المخطط الذي وضعه لهذا المدخل إلى وجود منفذ آخر يصل القلعة بهذا الممر مفتوح في الجدار الغربي *(SAUVAGET, XI. 1930, P75, Fig.13)* . ولكن في الواقع لا يوجد له أي أثر. وكذلك لم يثبت كينغ وجود هذا الباب في مخططه. أنظر (لوحة رقم 36).

مرقوم هو 1133هـ. أما اللوحة الثانية فتتألف من ستة أسطر باللغة التركية تتضمن اسم الوالي "رجب باشا[83]" .

البدنة (10 – 11):

وهي جدار غير مستقيم، مائل باتجاه الشمال، طوله (24م)، تهدمت البدنة وبقي منها القسم السفلي الملاصق للبرج رقم (11) مع اثنين من المرامي، من أصل أربعة كانت في كامل البدنة (**انظر المخطط رقم5، ص69**).



صورة رقم (31): واجهة البدنة (10-11) الخارجية

البرج رقم (11):

هو أصغر أبراج القلعة، أطواله (10 × 14م). ويبدو من هندسته وحجمه الصغير ونوعية حجارته بأنه مجدد كلياً أو محدث في العهد المملوكي. يحتفظ البرج حالياً بطابقين فقط، بدون ستائر أو شرفات ورواشن، وفي كل طابق أربعة مرامي. أما السقف فهو مؤلف من عقد طولي وبعضه متقاطع. وفي الجانب الشمالي من البرج يوجد عضادة مربعة كبيرة يرتكز عليها السقف. للطابق الأرضي باب على الممر الدفاعي في الجهة الغربية من البرج وهو مردوم حالياً، أما باب الطابق العلوي فمفتوح في الجهة الشرقية ضمن بناء إضافي يبرز عن واجهة البرج الجنوبية، وهذه الواجهة مؤلفة من قوسين متجاورين.

واجهة البرج الشمالية المطلة على قناة من مياه بردى ،عليها شريط من الكتابة يؤرخ لأعمال السلطان الغوري (**كتابة رقم 29**)[84] تتضمن التالي:

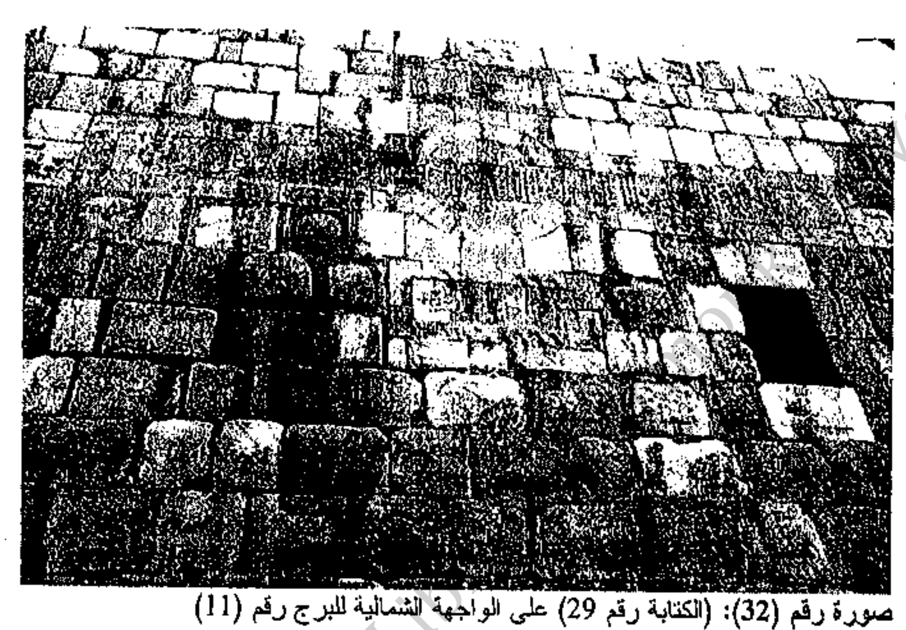
" بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب
امر بتجديد هذا البرج المبارك بعد انهدامه مولانا السلطاني المجاهدي المرابطي قانصوة الملك الاشرف ابو النصر الغوري عز نصره خادم الحرمين الشريفين مهزم الجيشين عز نصره بتاريخ شهر رجب الفرد سنة اربع عشر وتسعمائة الحمد لله عمل الواثق بربه العزيز احمد بن العطار ".

---

83 حكم هذا الوالي دمشق في الفترة 1130هـ/1717م – 1134هـ/1721.

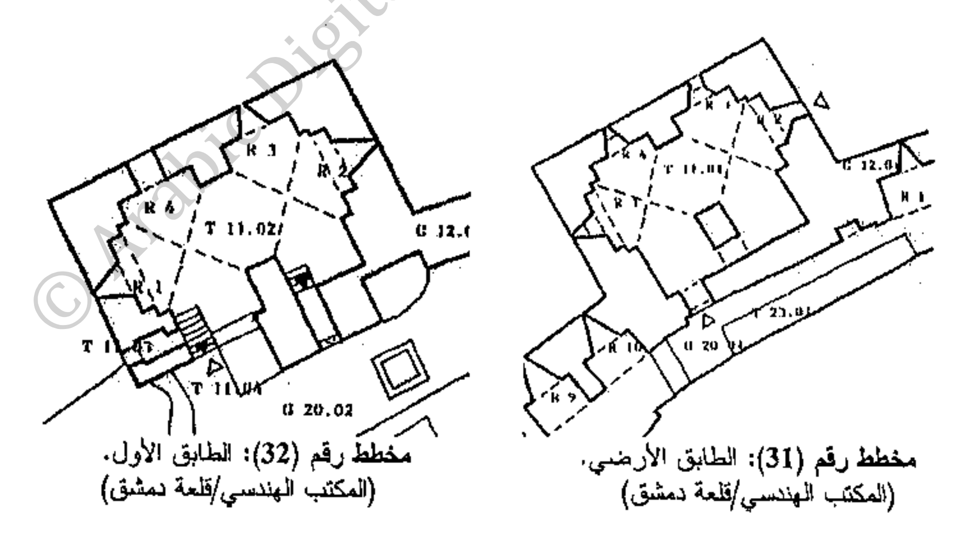
84 Sobernheim, 1922, op. cit, N°23, P.15

وهذا الشريط الكتابي محاط بإطار زخرفي مؤلف من مشربيات متناوبة الألوان: أسود وأبيض، وفي وسطه رنك يحمل اسم الغوري ولقبه. ونقش على جانبي الشريط يمثل صـورة لأسدين يمشيان ومنحوتين نحتاً بارزاً وفي أسفل الشريط رنك مؤلف من ثلاثة حقـول، فـي العلوي مربعان صغيران وفي الأوسط كأس كبير، وفي السفلي كأسان صغيران **(صورة رقم 32)**.



صورة رقم (32): (الكتابة رقم 29) على الواجهة الشمالية للبرج رقم (11)

مخططات البرج رقم (11)، مقياس الرسم (1:200):



مخطط رقم (32): الطابق الأول.
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

مخطط رقم (31): الطابق الأرضي.
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

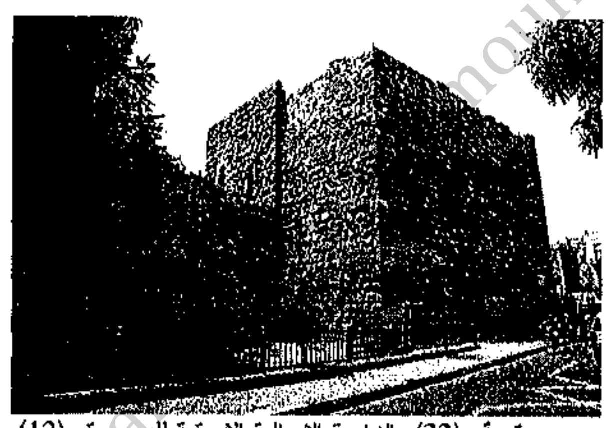
البدنة (11 - 12):

جدارها منحرف قليلاً باتجاه الشمال الشرقي لتصل بين البرج رقم (12) والبرج رقم (11) **(أنظر المخطط رقم 5، ص69)**. طولها (43م). الجزء المجاور للبرج رقم (12) معوج وليس على استقامة بقية البدنة، مما يدل على وجود ترميم غير متقن. الستائر زائلـة كليـاً. تشاهد قطعة صغيرة منها بجوار البرج رقم (12) فقط. وفي واجهة البدنة الخارجيـة كتابـة

مشوهة تتألف من سطر واحد. ذكر "سوفاجيه" بأنها من عهد نوروز الحافظي. كما ميز في قاعدة البدنة أربعة مرامي مردومة كليا. يعلو كل منها حجر نقش عليه موضوع زخرفي. واحد يمثل خطوطا هندسية متداخلة، وآخر يمثل شكلاً نجميا، وثالث يمثل كأساً *(SAUVAGET, XI. 1930, P.70)*.

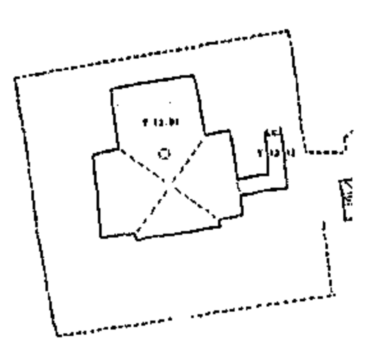
البرج رقم (12):

وهو برج الزاوية الشمالية الغربية للقلعة. مربع الشكل، شبيه بالبرج رقم (8)، يبلغ طول ضلعه (20م). ما يزال قائما، ولكنه لا يحافظ على وضعه الأصلي وتبدو عليه آثار الترميم في أكثر أقسامه، وخاصة في القسم الخارجي البارز عن البدنات. بينما بقيت أجزاؤه الداخلية عند زاويته الجنوبية الشرقية أصيلة.

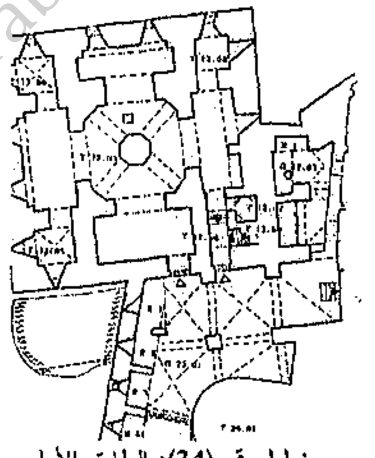


صورة رقم (33): الزاوية الشمالية الشرقية للبرج رقم (12)

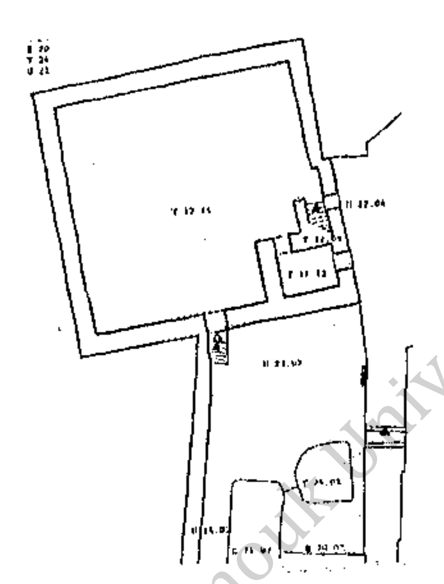
مخططات طوابق البرج رقم (12)، مقياس الرسم (1:200):



مخطط رقم (33): الطابق الأرضي
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط رقم (34): الطابق الأول
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)



مخطط رقم (35): الطابق الثاني
(المكتب الهندسي/قلعة دمشق)

ويرى "كينغ" بأن مخطط هذا البرج كان على شكل حرف T، يتألف من قاعة رئيسية متصالبة وغرف صغيرة بين أذرعها، ويعتقد بأن هذا البرج جدد في عهد نوروز الحافظي، ثم ضرب بالمدافع وتضرر خلال حملة ابو الذهب سنة 1185هـ/1771م *(KING, 1951, P.90)*.

الطابق الأرضي لهذا البرج يوجد به بابان مفتوحان في جداره الجنوبي، الأول ينفذ إلى الممر الدفاعي، والثاني إلى القاعة الواقعة جنوبي البرج. كما يوجد في وسط القعة عضادة مضلعة تحمل عقوداً تدعم السقف وتشير إلى عملية ترميم لاحقة. كما يوجد عدد من المرامي في الجدارين الشمالي والشرقي. وعند الزاوية الجنوبية الشرقية هنالك مقصورة حمام مسقوفة بقبة حجرية منخفضة. وتحتوي المقصورة على أنابيب المياه وخزان الماء.

أما الطابق العلوي منه فسقفه مهدوم كلياً. ويتم الدخول اليه من باب إلى جوار البدنة مفتوح في جوار البرج الجنوبي أيضا، وهو مزود بدرج على الممر الدفاعي. ويحتفظ في داخله عند الزاوية الجنوبية الشرقية بغرفة صغيرة مسقوفة بعقد طولي. وخلف هذه الغرفة بمحاذاة الجدار الشرقي للبرج يوجد درج يؤدي إلى الطابق السفلي .

وفي نهاية الثمانينات من القرن العشرين، وأثناء تفريغ الطمم والأتربة من الطابق الأرضي، تم العثور على فتحة مربعة الشكل ضمن الأرضية في الجهة الشمالية الغربية، وتم النزول من خلالها لطابق أخر مسقطه أصغر من مسقط الطابق الأرضي، وقد تبين انه عبارة عن قبو لهذا البرج.

سور القلعة الغربي أو البدنة (12 - 1):

يبلغ طول السور الممتد بين البرجين (12- 1) مقدار (75م)، ويرتفع حوالي (6م) مبني بالحجر الغشيم، ويرجع تاريخ بنائه إلى أواخر العهد العثماني. وهذه البدنة مخترقة في وسطها تقريباً بفتحة محدثة تشكل حالياً باب القلعة الغربي (**أنظر المخطط رقم5، ص69**).

ونلاحظ في أسفل البدنة المجاورة للبرج رقم (12) أحد عشرة مرمى، ثلاثة مرامي منها ملاصقة للبرج رقم12 في الطابق الأرضي.
وقد رمم سقفها في جزئها الغربي على شكل عقود متصالبة، وما زال الجزء الشرقي منها مكشوفاً.

2. مباني القلعة المدنية، العامة والخاصة:

تحتوي القلعة بالإضافة لسورها وأبراجها على العديد من المباني المدنية، كالدور والقصور والحمامات والمدارس والجوامع ودور الضرب، بعضها من العهد الأيوبي، والبعض الآخر من العهد المملوكي.
ونجد اليوم مجموعة من المباني موزعة داخل الأسوار والتي تلي الممر الدفاعي، مشار اليها بالأرقام من 13 – 17 على مخطط القلعة .

1- القاعة رقم (13):

هي قاعة مملوكية، بناها قلاوون *(SAUVAGET, 1930, P.89)*. تقع خلف الممر الدفاعي للبدنة (7 – 8) **(أنظر المخطط رقم 5، ص69)**، وهي قاعة طويلة تتألف من أربع معازب مسقوفة بثلاث قباب من بينها قبة صغيرة حملت على عضائد جدارية، أما طاسة القبة ورقبتها فمهدومتان.
ويرى "سوفاجيه" بأن جدران هذه القاعة الثلاثة: الشمالي والجنوبي والغربي كانت جدراناً للقلعة القديمة، ثم أضيفت العضائد إلى الجدار الغربي من أجل حمل القبة عند تحديث إعادة بناء القاعة *(المصدر السابق، P.90)*.
ولهذه القاعة منفذ على شكل دهليز في الجانب الغربي منها، ينزل إليه بدرج بسبب ارتفاع مستوى الأرض في هذه الناحية[85]. ولها منفذ مسدود حالياً على الممر الدفاعي في جدارها الشرقي، ومنفذ آخر مسدود في جدارها الجنوبي.

2- المبنى رقم (14) (قاعة العرش):

قاعة مربعة واسعة جداً (سعتها حوالي أربعمائة متر مربع) **(أنظر المخطط رقم 5، ص69 ، والمخطط رقم 36،ص113)**. مؤلفة من تسع معازب موزعة على ثلاث صفوف. المعزبة الوسطى مسقوفة بقبة، أما المعازب الأخرى فسقوفها عبارة عن عقود متقاطعة (أقباء) تفصل بينها أقواس حجرية .

ويحمل القبة أربعة أعمدة قصيرة وضخمة قطرها (1.10م)، وفوقها أعمدة كورانثية يبدو أنها منقولة من بناء أقدم يرجع إلى العهد الروماني حسب رأي "سوفاجيه" [86] *(المصدر السابق، P.88)*. وتحمل الأعمدة أربعة أقواس من الحجر من النوع المدبب التي تحمل بدورها رقبة القبة ذات الأثني عشر ضلعاً، والمؤلفة من طبقتين: السفلى تتألف من مدماكين من المقرنصات، يختلف كل منهما عن الآخر من حيث شكل المقرنصات وما تحويه محاريبها من نقوش.

---

85 الأرض المرتفعة هنا هي الباحة الخاصة بالقاعة رقم (15) التي سيأتي ذكرها.
86 يقول سوفاجيه عن هذه الأعمدة بأنها ترجع إلى العهد الروماني، وليس هناك ما يمنع من تاريخ إعادة استعمالها في القرن الثالث عشر. ويضيف بأن كرايمر CRIMER يعتقد بأنها موجودة في مكانها الأصلي، أما WATZINGER فيرى بأنها منقولة من بناء روماني وأن نقلها حدث في عهد ليس أبعد من العهد البيزنطي *(SAUVAGET, 1930, P.88)* .

وقد لاحظ "سوفاجيه" عليها آثار نقوش جصية يرجع عهدها إلى القرن الثالث عشر. وقال بان المقرنصات ترجع إلى العهد الأيوبي*(المصدر السابق، P.88)*.

أما الطابق العلوي لرقبة القبة فقد بقي منه مدماكان من حجارة البناء تتخللها قواعد لأعمدة صغير كانت تحمل أقواساً لنوافذ عددها اثنتا عشرة نافذة.
أما طاسة القبة فليس لها أثر، ولا بد أنها زالت مع القسم العلوي للرقبة. ويلاحظ بأن الإنتقال بين الشكل المربع والشكل المضلع يتم بواسطة مثلثات ركنية مزدوجة تملأ زوايا المربع (أي ما بين الأقواس). تحت هذه القبة مباشرة، يمكن مشاهدة آثار بحرة تتصل بنظام إيصال وتصريف مياه بأنابيب فخارية **(الصورتين 35 و 36)**.

ويتحدث الرحالة الفرنسي "دارفيو" الذي زار القلعة في القرن السابع عشر الهجري عن بناء شاهده بعد دخوله من باب القلعة الشرقي مباشرة، ويذكر بان هذا المكان كانت تسك فيه النقود ويصفه بأن إلى جانبه قبة واسعة مكشوفة، محمولة على أربع عضائد ضخمة لا يوجد ما يشبهها في الضخامة، ويظن بأنها قادرة على حمل قبة القديس بطرس في روما ***(D'ARVIEUX, 1735, P.450)***.

ونفهم من قوله بأن القبة كانت مكشوفة كلياً، وأن طاستها كانت زائلة من قبل زيارة هذا الرحالة **(صورة رقم 34)**.



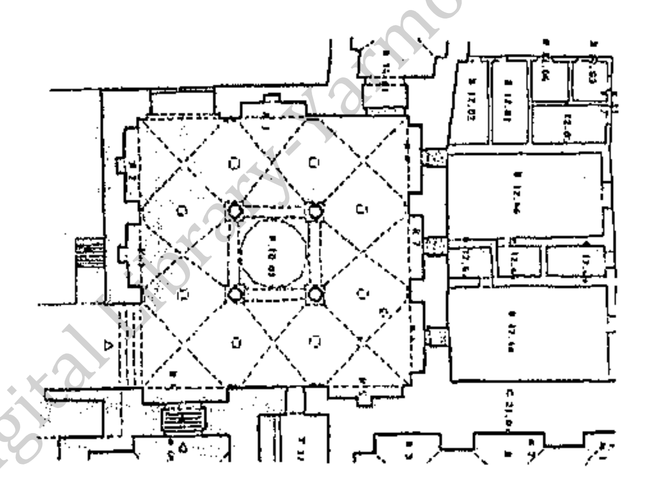
صورة رقم (34): الأعمدة الأربعة والقبة من الداخل في منتصف قاعة العرش



صورة رقم (36)
البحرة من الداخل



صورة رقم (35):
اساسات البحرة يظهر فيها جزء من أنابيب مصنوعة من الآجر



مخطط (36): مسقط افقي لقاعة العرش مقياس الرسم:(1:200)
نقلا عن "هانيش".

3- المبنى رقم 15:

وهو عبارة عن قاعة طولها (69م) وعرضها (10م)، تتألف من تسع معازب أو قبوات سقفت بعقود متقاطعة تتخللها أربعة أقواس من الحجر أحدها متقن النحت، ذو قولبات جميلة. ولهذه القاعة أربعة أبواب مفتوحة في جدارها الشمالي على باحة سماوية. وتتصل هذه القاعة من الغرب بالمبنى رقم (16)، بينهما الآن باب مسدود. أما من الجهة الشرقية فتتصل هذه القاعة بالمبنى رقم (14) بواسطة باب (**مخطط رقم 5، ص69**).

4- المبنى رقم 16:

توجد مجموعة من المباني الممتدة بين البابين الشرقي والشمالي، متصلة ببعضها، مختلفة في هندستها وتخطيطها، شيدت على الأرجح في العهدين الأيوبي والمملوكي (**أنظر مخطط رقم 5، ص69**). اما المبنى رقم (16): فهو عبارة عن قاعة أقيمت خلف البوابة

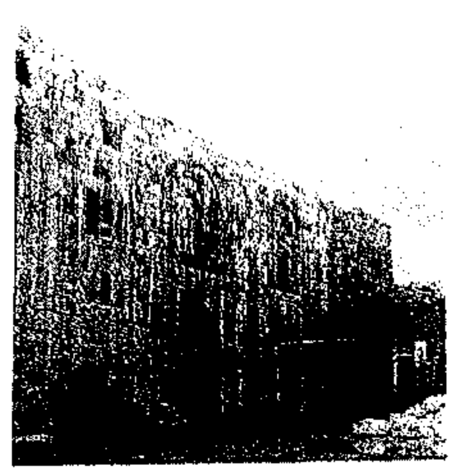
الشمالية للقلعة، وتتألف من ست معازب موزعة على جناحين، زال الجناح الغربي وبقيت آثار عقود عالقة بواجهة البوابة **(صورة رقم 37)**.



صورة رقم (37): العقود المتبقية من المبنى رقم (16)

5- المبنى رقم (17):

اعتبر "سوفاجيه" هذا المبنى قصراً *(SAUVAGET, 1930, P.216)*. وهو بناء كبير يبدو من نمطه وحجارته أنه من العهد الأيوبي. يمتد خلف الممر الدفاعي الجنوبي، في الجانب الغربي منه. يبلغ طوله (80م)، وهو مؤلف من طابقين ارتفاعهما حوالي (15.5م) **(مخطط رقم 5، ص)**. له واجهة مؤلفة من ستة أواوين في الطابق الأرضي، ومثلها في الطابق العلوي، بعضها مسدود قديما وبعضها سد في العهد العثماني .وحجارة الواجهة المطلة على القلعة من النوع المصقول، بينما حجارة الواجهتين الغربية والجنوبية من النوع البارز النحت، ويتراوح ارتفاع المداميك بين 60 و 75سم.



صورة رقم (38): واجهة القصر الايوبي من داخل القلعة

ومخطط الطابقين متشابه وهو عبارة عن مجموعة من القاعات المتجاورة ، يتخللها إيوان صغير، وهي ذات جدران سميكة تتراوح بين (1.40م) في الواجهات الشمالية و

(2.60م) في الجدار الجنوبي. وفيما يلي وصفا لقاعات **الطابق السفلي** بدءاً من الغرب إلى الشرق:

القاعة (أ):

وهي قاعة مستطيلة مسقوفة بعقدين من النوع المتقاطع بينهما عقد طولي يتجه من الشرق إلى الغرب، وتطل هذه القاعة على الباحة بإيوانين بينهما باب صغير ذو قوس مركب يؤلف قنطرة ذات عقد من الحجر بسماكة الجدار. والإيوان الغربي محجوب ببناء عثماني أقيم أمامه يمتد أمام الممر الدفاعي الغربي ***(مقابلة شخصية، المكتب الهندسي، قلعة دمشق)***. أما الإيوان الشرقي فمسدود أيضاً بجدار محدث في العهد العثماني، فتح فيه باب ونافذتان وطاقة مستديرة في أعلاه. وكان الإيوان في الأصل مزوّداً بشبك من القضبان الحديدية يدل عليها وجود ثقوب على أطراف قوس الإيوان وجوانبه. وهذا يعني أن الإيوان لم يكن مفتوحاً للدخول إلى القاعة، بل لتزويد القاعة بالنور الكافي نظراً لعدم توفره في الجهة الجنوبية المغلقة كلياً. وفي القاعة ممر ضيق في جدارها الشرقي يصلها بالقاعة المجاورة (ب).

القاعة (ب):

قاعة صغيرة مربعة الشكل، مسقوفة بعقد متقاطع مغطى بكلسة قديمة مزخرفة بنقوش جصية، ويحيط بجدرانها من الأعلى شريط زخرفي مؤلف من محاريب نقشت داخلها زخارف نباتية. وواجهة القاعة عبارة عن إيوان مفتوح على الباحة، مسدود حديثاً على شاكلة إيوان القاعة السابقة (أ).

القاعة (ج):

قاعة مستطيلة ذات قبوتين، مسقوفة بعقدين متقاطعين يفصل بينهما قوس حجري. واجهتها خالية من الأواوين، يتم الدخول اليها من باب صغير مستطيل يعلوه ساكف وعقد عاتق.

القاعة (د):

قاعة مستطيلة أيضاً مسقوفة بثلاثة أقباء. القبوة الوسطى من النوع المتقاطع، والجانبيتان طويلتان. في واجهتها إيوان مسدود على شاكلة الواوين السابقة، وباب صغير مستطيل يعلوه ساكف فوقه قوس عاتق، مما يدل على أن الإيوان لم يكن مفتوحاً في الأصل أو مستعملاً كمدخل. يقابل الباب المذكور في جدار القاعة الجنوبي منفذ إلى الممر الدفاعي الممتد خلف القصر.

الإيوان (هـ):

إيوان قليل العمق يطل على باحة القلعة. وفوقه إيوان مماثل في الطابق الثاني، وخلفه إيوان يطل على الممر الدفاعي، وهو أعلى من مستوى الطابقين.

القاعة (و):

قاعة مستطيلة مسقوفة بعقدين متقاطعين يفصل بينهما قوس حجري، ولها إيوانان في واجهتها الشمالية، وهي متهدمة حالياً.

الطابق العلوي للقصر:

لهذا الجناح من القصر طابق ثاني، وهو كما قلنا يشبه في تخطيطه الطابق الأرضي الذي تقدم وصفه، إلا أن أواوين القاعات المطلة على باحة القلعة الظاهرة المعالم من الناحية الهندسية مسدودة في الأصل بجدران فتح فيها نوافذ. ونلاحظ بأن القاعتين (أ) و (ب) في

الطابق العلوي متصلتان ببعضهما بواسطة باب على شكل قنطرة مفتوح في الجدار المشترك بينهما. وكذلك القاعات (ج) و (د) متصلتان ببعضهما بباب مماثل. وتوجد أبواب تبدو محدثة في الجدارين الغربي والجنوبي.

يرى "سوفاجيه" أن الإتصال بالطابق العلوي كان يتم بواسطة درج في الجدار الشرقي للقاعة (ب)، *(SAUVAGET, 1930, P.217)* ولكنه مسدود حالياً. ويرى أن للقصر طابقاً ثالثاً تهدم أثناء حصار تيمورلنك لدمشق بدليل الدرج المؤدي إليه، كما يقول بأن الحفريات التي أجريت في عام 1924م في المنطقة الواقعة أمام القصر دلت على وجود رواق قائم على عضائد ذات مقطع مربع ضلعه (245سم)، مبنية بالحجر المنحوت، ويفصل بين العضائد مسافة قدرها (15م). وكانت العضائد تحمل أقواساً. ويلي الرواق باحة وجد في أرضها رقعة مبلطة بالفسيفساء الرخامية الملونة بالأبيض والأحمر والأصفر. ويذكر بأن تلك المكتشفات تشير إلى أن المباني التابعة لها كانت من العهد المملوكي *(المصدر السابق، P219)*.

إلا أن "كينغ" يعارض فكرة الطابق الثالث لأنه سيكون عندئذ أكثر ارتفاعاً من البدنات مما يعرضه للعدوان والقذف من قبل العدو *(KING, Vol. XCIV, 1951, P.63)*.

وعلى الأرجح أن رأي "سوفاجيه" هو الأصح، فتعليله أقرب للمنطق، ومدعّم بنتيجة حفرية عام 1924.

المبحث الثاني:
قلعة دمشق في القرن 13م، وفن العمارة العسكرية (دراسة للعناصر المعمارية في قلعة دمشق بالمقارنة مع اعمال التحصين الأخرى المعاصرة):

شهدت بلاد الشام في فترة الحروب الصليبية حركة واسعة في مجال بناء الحصون وتشييد القلاع وأسوار المدن. وما تزال آثار هذه القلاع موجودة في الواقع، سواء منها ما شيده العرب أو ما أقامه الفرنج في المناطق التي احتلوها من البلاد. ففي سوريا على سبيل المثال، هنالك قلاعاً عربية مثل: قلعة دمشق، قلعة حلب، قلعة شيزر، قلعة مصياف، قلعة بصرى، قلعة صلخد، قلعة جعبر، قلعة المضيق، قلعة الصبيبة، وقلعة نجم. وقلاع صليبية مثل: قلعة الحصن، قلعة المرقب، قلعة صافيتا، قلعة يحمور، قلعة صهيون، وقلعة طرطوس *(ريحاوي، م19، 1969، ص6-26)*.

وأدت حركة البناء هذه إلى تطور ملحوظ في فن العمارة العسكرية، بلغ ذروته في مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وهي الفترة التي شيدت فيها قلعة دمشق من جديد، وأدخلت تعديلات واسعة على قلاع حلب، بصرى، الحصن وغيرها *(المصدر السابق، ص6)*.

وكانت قلعة دمشق عندما تم بناؤها من قبل السلطان الأيوبي الملك العادل أبي بكر بن ايوب سنة 615هـ/1218م مثال القوة والحصانة، وموضع إعجاب في تلك الفترة *(المصدر السابق، ص7-9)*.

ومن أجل توضيح تلك الحقيقة سنقوم بإبراز خصائصها ومميزاتها، وذلك عن طريق دراسة العناصر المعمارية الهامة التي يقوم عليها فن العمارة والتحصين أو التي تلعب دوراً هاماً في المقاومة والدفاع، وذلك بالمقارنة مع العناصر المماثلة في القلاع الأخرى التي جرى تشييدها في الفترة المشار إليها والواقعة بين أواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر. وهذه العناصر هي:

1- الهندسة والمخطط العام:

لم يتقيد بناة الحصون والأسوار في هذه الفترة بشكل هندسي معين، كأن يكون مستطيل أو مربع أو مستدير، كالوضع الذي كانت عليه غالبية الحصون في العهود القديمة والكلاسيكية. وإنما اصبح المخطط يتكيف بحسب الظروف والبيئة الجغرافية وطبيعة الأرض. وحتى أسوار المدن القديمة فعند توسعتها في تلك الفترة كانت تأخذ شكلاً غير منتظم. كما حدث عند توسيع حدود مدينة دمشق وتجديد أسوارها في عهد نور الدين والعهد الأيوبي . ***(KING, 1951, P.71)***

إن أكثر قلاع هذه الفترة والتي ذكرنا أهمها بنيت فوق مرتفع صخري، واضطر بنائيها أن يعطوها شكل القاعدة الصخرية المبني عليها القلعة. ويمكن أن نستثني قلعتين فقط بنيتا مرجلتين على الأرض وهما قلعتا دمشق وبصرى، وقد اتخذت قلعة بصرى شكلاً شبه دائري لأنها أحاطت بالمدرج القديم، الذي أصبح جزءاً من تحصيناتها.

أما قلعة دمشق فإن مخططها قريب من الشكل المستطيل، لكنه غير منتظم، وزواياه غير قائمة، ويرجع ذلك إلى أسباب منها:

- وجود فرع لنهر بردى في حدها الشمالي يعتبر حاجزاً طبيعياً لها.
- قيامها في مكان قلعة سابقة هي القلعة السلجوقية.
- بناؤها على مراحل بصورة مجزاة من قبل عدد من البنائين ساهموا مع العادل في عملية البناء.

وقلاع الفرنج أيضاً كانت مشيدة على المرتفعات الجبلية، باستثناء يحمور وطرطوس وبصرى. كما لم يكن لها شكل منتظم وانما اتخذت شكل المرتفع الذي شيدت عليه. أما قلعة بصرى فقد شيدت على مراحل متعددة كانت آخرها وأهمها المنشآت التي بنيت في العهد الأيوبي **(ريحاوي، م19، 1969، ص13، 20، 25)**.

أما طرطوس التي أقيمت على شاطئ البحر فكان لها شكل المستطيل غير المنتظم. بينما كان لحصن يحمور وهو صغير بالنسبة للقلاع الأخرى، شكل مستطيل، مستقيم الأضلاع، قائم الزاوية.

ويجب الإشارة هنا إلى أن قلعة دمشق كانت مزودة بسورين كقلعة الحصن .وقلعة المرقب .ويقول الريحاوي أن وجود أكثر من سور في القلاع وفي أسوار المدن هو تقليد قديم في العمارة العسكرية السورية نجده في أكثر العصور، فقد عثر على سورين في تحصينات المدن القديمة كقادش قرب حمص. ويذكر لنا الريحاوي أيضاً في مقالته نموذجين من القلاع شيّدتا بنفس الفترة وهما قلعة جعبر وقلعة مصياف، فيرجع تاريخ الحصن الداخلي لقلعة مصياف إلى القرن الثاني عشر، حيث نسبت الكتابة المنقوشة على الباب بناءه إلى راشد الدين سنان زعيم الطائفة الحشيشية، بينما يرجع بناء السور الخارجي فيما يعتقد الريحاوي إلى القرن الثالث عشر ***(المرجع السابق، ص26)***.

ويدخل في دراستنا لمخطط القلاع موضوع البرج الرئيسي والذي أسماه " "سوفاجيه" بـ (دونجون Donjon) والذي يتميز بقوته وارتفاعه، ورأى بأن مميزاته تنطبق على البرج رقم (8) في قلعة دمشق.

إلا أننا نلاحظ بأن ذلك البرج غير معروف في التحصينات العربية، بينما نجده مألوفاً في قلاع الفرنج في الشام واوروبا. ويكون أحياناً في وسط القلعة مستقلاً عنها كبرج صافيتا الرئيسي وبرج يحمور ***(SAUVAGET, 1930, P.230)***.

وقد يمكن ملاحظة بأن مثل هذا البرج غير موجود في تصميم قلعة دمشق أو في القلاع العربية المعاصرة لها. ويتم النفي عند الحديث عن برج الزاوية الشمالية الشرقية (البرج رقم 8) رأي سوفاجيه في أن يكون هذا البرج بمثابة البرج الرئيسي (دونجون).

ومن الملاحظ بأن القلعة العربية الوحيدة التي يشتبه وجود مثل هذا البرج فيها هي قلعة شيزر، حيث نشاهد فيها برجاً في طرفها الجنوبي يتميز عن سائر أبراجها بحجمه وارتفاعه، وهو يطل مباشرة على الخندق العميق. ونلاحظ بأن واجهاته قد زودت كلها بالمرامي بما في ذلك الواجهات التي تطل على داخل القلعة. وباب البرج صغير ويرتفع عن مستوى الأرض بحيث لا يمكن الصعود إليه إلا باستخدام سلم متحرك. وينطبق هذا الوضع على ما ذكره لنا

فيليب حتي نقلاً عن أسامة بن منقذ من وصف لحصن معاصر هو حصن الخربة، فيقــول : " ويطلع إليه بسلم من خشب ثم يرفع السلم، فلا يبقى إليه طريق *(حتي، 1930، ص48)* ".

2- تصميم المداخل والأبواب:

ان أبواب الحصون والقلاع وبوابات المدن المسورة هي المكان الرئيسي الذي يحاول الأعداء النفاذ منه عند محاولتهم احتلال المدينة أو الحصن. ولذا فقد كان من الطبيعي أن تنال اهتماماً خاصاً من قبل بنائي القلاع كي يمكن الدفاع عنها وحمايتها.

لقد وصل فن تصميم هذه الأبواب والمداخل وتحصينها إلى أعلى مستوى له في مطلع القرن الثالث عشر. وأحسن مثال عليه نجده في قلعتي حلب ودمشق *(ريحاوي، م23، 1973، ص96)*. فهي ذات محور ينكسر اكثر من مرة للوصول إلى داخل القلعة.

ويقول "كريزويل" بأن القلاع منذ القديم عرفت نوعين من المداخل أحدهما يتم الدخول اليه من باب وفق محور مستقيم عمودي على السور، والثاني يتم الدخول اليه وفــق محــور منكسر يؤلف زاوية قائمة. وأن أول استخدام لهذا التصميم في العمارة العربية كان في مدينــة بغداد التي بناها المنصور.كما يؤكد "كريزويل" أيضاً بأن التصميم الثاني يعتبر أكثر تحــصيناً لأنه يعيق اقتحام الأعداء للأبواب ويعرقل دخولهم إلى الحصن، وهو الشائع في كل الحصون وأسوار المدن التي شيدت في تلك الفترة (فترة ما بين القرنين الثاني عشر والثالــث عــشر)، سواء تلك التي شيدها العرب أم التي شيدها الفرنج *(CRESWELL, 1959, P.174-175)*.

ويشير "ريحاوي" إلى أن ذلك التصميم ذي المدخل المنكسر وجد قديماً في سورية في بوابة مدينة اوغاريت الغربية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد *(ريحــاوي، م23، 1973، ص96)*.

أما "ديشامب" فيرى في دراسته لأبواب القلاع الصليبية بأن التصميم المذكور مــأخوذ عن القلاع البيزنطية *(DESCHAMPS, T. X III,1932, P.372)*.

وطبيعي أن الفرنج اقتبسوا هذا التصميم عن الحصون السورية لأنه لم يكن معروفــاً في أوروبا.

ويرى "ريحاوي" أنه لا يوجد أي باب من أبواب المدن والقلاع البيزنطية فــي الــشام مبنياً وفق هذا النموذج الحصين. والمرجح أنهم أخذوا ذلك عن أبواب القلاع والمدن العربيــة التي كانت قائمة عند وصول الفرنج إلى الشام، أو التي شيدت فيما بعد خلال فترة الصراع[87]. كما يضيف قائلاً:" ومع ذلك فإننا لا نلاحظ فرقاً كبيراً بين تصميمات القلاع العربية والقــلاع الصليبية. فالقلاع العربية وخاصة التي شيدت في مطلع القرن الثالث عشر نلاحظ فيها مداخل قلعتي حلب ودمشق أكثر تعقيداً وحصانة، فإذا تفحصنا المدخل الرئيسي لقلعة حلب فإننا نراه يتألف من ثلاثة أبواب متتالية، تقع على محور منكسر يشكل خمس زوايــا قائمــة. وكــذلك المدخل الشمالي لقلعة دمشق فإننا نلاحظ أن محور المرور فيه ينكسر خمس مرات *(ريحاوي، م23، 1973، ص96)*".

وقد أشار "سوفاجيه" هنا إلى التشابه بين مداخل قلعتي حلب ودمشق، وإلى تأثر مداخل قلعة دمشق بالعمارة الحلبية مفسراً ذلك باستخدام فنيين وعمال من أهل حلب في بنــاء قلعــة دمشق *(SAUVAGET, 1930, P.222)*.

---

87 وصل الصليبيون إلى سورية في آخر القرن الحادي عشر الميلادي واحتلوا أنطاكية سنة 491هـ/1098م *(المصدر السابق، ص98)*.

أما مداخل القلاع الصليبية، فيذكر ديشامب بأنها تتألف من بابين مفتوحين في بـرج واحد على محورين متعامدين. أي أنها من النوع ذي المحور المنكسر. ويقول بأن أحسن مثال له نجده في أبواب قلعة صهيون ولا يضاهي أبواب القلاع العربية في تحصينها سوى بـاب قلعة الحصن الشرقي. ومن الممكن بانه أنشئ في القرن الثالث عشر، نظراً لأن هـذه القلعـة اكتمل بناؤها على عدة مراحل، فقد احتل الفرنج موقع قلعة الحصن (حصن الأكراد) في عام 1170م، واستمر العمل والتطوير في التحـصينات إلـى منتـصف القـرن الثالـث عـشر *(DESCHAMPS, T. X III,1934 ,P.376)*.

ويمكن هنا استنتاج خصائص الأبواب الحصينة وهي:

- بالإضافة إلى المدخل ذي المحور المنكسر، نجد أن الباب الخارجي يفتح فـي الجـدار الجانبي لأحد الأبراج، وليس في واجهته.
- يوجد في جواره برج آخر قريب منه يحميه، وبذلك يصبح المدخل محمياً من الضرب بالمنجنيق.
- يتعذر استخدام الأكباش بحرية في عملية الهجوم بسبب ضيق المكـان، وهـذا خلافـاً للأبواب غير الحصينة التي كانت معروفة في العهود السابقة لهذه الفتـرة، وخـصوصاً أبواب الحصون الرومانية.
- يدخل في تصميم أبواب الحصون أيضا تأمين عزلها عن المحيط الخـارجي بواسـطة خندق أقيم عليه في الغالب جسر، قسم منه ثابت وقسم متحرك. وقد ضاعت آثـار تلـك الجسور المتحركة، فلم نعد نراها اليوم كما كانت تستخدم في ذلك الزمان، وتحولت اما إلى جسور ثابتة كلياً أو إلى جسور متهدمة، وكان باب السر في السور الغربـي لقلعـة دمشق ذو جسر متحرك.

ويدلل "ديشامب" على استخدام الجسور المتحركة Pont – Levi – في القلاع الصليبية بما شاهده من آثارها في قلعة الحصن، عند باب السر الموجود في الواجهـة الجنوبيـة للـسور الخارجي. وهذه الآثار عبارة عن قناة شاقولية من الحجر بارزة عن الجدار الذي يعلو البـاب تخص سلاسل الجسر المتحرك القديم ***(المصدر السابق، P.254)***.

1- زوّدت المداخل والأبواب أيضا بما يعرف بالغلق الشاقولي Hers: وهو عبارة عـن حاجز من الحديد ينزل شاقولياً بواسطة السلاسل فيسد الطريق أمام المهاجمين. ولجد هذا العنصر شائعا في القلاع الصليبية، بينما هو غير معروف في القـلاع الأيوبيـة *(REY, 1871, P.195)*.
ونشاهد آثار مثل هذا الحاجز في باب قلعة دمشق الشمالي المجدد في عهد نـوروز (القرن الخامس عشر)، وهي عبارة عن قناتين وراء فتحة الباب، مفتـوحتين علـى الجانبين من الأعلى إلى الأسفل، ينزلق الحاجز فيهما.
ويبدو أن الأيوبيين عوضوا عن هذا العنصر باستخدام سلسلة من الأبواب الحديديـة المحكمة الإغلاق. لا تزال نماذج كاملة منها موجودة في أبواب قلعة حلـب الثلاثـة المتتالية في مدخلها الرئيسي الحصين.
ونذكر في عداد العناصر التي تزيد في حصانة الأبواب والدفاع عنهـا، الـسقاطات المقامة فوق فتحات الأبواب وفي الرواشن البارزة عن الأبواب، ومهمتهـا إسـقاط المقذوفات والزيوت المغلية على العدو المحاصر عندما يحاول اقتحام المداخل.

3- الأبراج:

الأبراج هي من العناصر الدفاعية الهامة في أسوار المدن والحصون. تزودها بالقوة الضاربة الرئيسية. وقد عرفت الأبراج في التحصينات القديمة على أشكال متعددة، منها المستدير، ومنها المربع، ومنها المستطيل، ومنها المضلع *(الصغير، 1995، ص42)*.
ولكن أبراج قلعة دمشق نلاحظ أن جميعها من النوع المربع والمستطيل، ويبدو أن هذا التصميم أكثر ملائمة لإقامة أبراج ضخمة وقوية ومزودة بعدد أكبر من المرامي والرواشن، وهذا يعني تطور ملحوظ في بناء الأبراج.

أما في القلاع الصليبية المعاصرة فقد كان البرج المستدير هو التصميم الشائع. نجده في قلعة الحصن وفي قلعة المرقب. وقد استخدم البرج المستدير في القلاع العربية في القرن الثاني عشر *(المصدر السابق، ص97)*، لكنه استخدم بشكل قليل جداً وأقل فاعلية من أبراج قلعة دمشق. ونجد مثل هذه الأبراج المستديرة في سور مدينة دمشق وهي من عمل نور الدين. وقد ذكرنا من خلال الحديث عن قلعة دمشق السلجوقية بأن برجاً تم تشييده في عهد صلاح الدين كان مستديراً.

أما أبراج قلعة حلب فهي من النوع المستطيل، لكنها صغيرة الحجم وقليلة البروز، ولا تجاري في حجمها ضخامة أبراج قلعة دمشق *(شعث، 1986، ص9)*.

هذا من حيث الشكل العام للأبراج، اما من حيث التفصيل فهنالك خصائص اخرى لأبراج قلعة دمشق نعددها فيما يلي:

1- يوجد في الأبراج بروز واضح عن السور. ولهذا البروز قيمة في كونه يزيد في مساحة الواجهات المزودة بالقوة الضاربة (المرامي والرواشن). يبلغ بروز البرج (رقم 1) 15م، والبرج (رقم 6) 8م. وهذا البروز يعتبر كبيراً بالنسبة لأبراج القلاع الأخرى التي يتراوح بروزها 4 – 5م *(الصغير، 1995، ص47)*، ما عدا برجاً واحداً في سورها الخارجي يبرز 10م.
2- عدد الطوابق في الأبراج ثلاثة، بالإضافة إلى طبقتين من الستائر فوق السطح. وحتماً أن عدد الطوابق له أهمية في زيادة عدد المرامي. بينما لا نجد في أبراج القلاع الصليبية عدداً مماثلاً من الطوابق، فبعضها مؤلف من طابق، وبعضها الآخر مؤلف من طابقين لأن الأجزاء السفلية من الأبراج خالية من الطوابق. وبذلك يقل عدد مراميها.(توجد أبراج تتألف من ثلاثة طوابق ولكنها نادرة، كذلك الستائر ذات الطابقين نادرة أيضا) *(المصدر السابق، ص50-68)*. وعلى كل الأحوال فإننا إذا حسبنا عدد المرامي في برج من أبراج قلعة دمشق نجده يبلغ حوالي الأربعين مرمى، وهو عدد لا مثيل له في أبراج القلاع الأخرى المعاصرة التي ذكرناها، وبخاصة الأبراج المستديرة.
3- تتميز أبراج قلعة دمشق بتخطيط دقيق لا نراه في غيرها، فطوابقها الثلاثة تتصل بالممر الدفاعي بواسطة أبواب خاصة، كما تصل فيما بينها بأدراج داخل البرج، مما يسهل عملية الإنتقال بين البرج والممر الدفاعي والأبراج الأخرى من جهة، وبين طوابق البرج من جهة أخرى. إضافة لذلك فإن طوابق الأبراج مبنية بإتقان وتنظيم بحيث تشكل قاعات مريحة للجنود المدافعين عن القلعة.

4- تتميز أبراج قلعة دمشق بالضخامة. وقد وصفها كينغ بقوله: " إن استعمال مثل هـذه الأبراج الضخمة غير معروف لدي في أي مكان آخر وحتى في أوروبـا والـشرق الأدنى *(KING, 1951, P.62)* . ولكي نتبين هذه الحقيقة يجب أن نلقي نظرة على مقاييس بعض أبراج قلعة دمشق، حيث تبلغ مـساحة البـرج (رقـم 1) 20 ×24م. والبرج (رقم 12) 30 × 15م. وارتفاع البرج (رقم 6) يبلغ 24.50م.

5- هنالك نقطة ضعف تتعلق بفن التحصين لاحظها كل من سوفاجيه *(SAUVAGET, 1930, P.66)* و كينغ *(KING, 1951, P.62)*، ومصدر هذا الضعف كما يريان يتلخص في أمرين: الأول يتعلق بقوة البنيان، إذ تشكل المرامي فراغاً في كتلة الجدار على خط واحد مما يضعف من مقاومته لضربات المنجنيق. والأمر الثـاني يتعلـق بساحة الرمي، حيث تكون الساحة هي ذاتها بالنسبة لكل الطوابق، بينما لو توزعـت ستكون أشمل. كما يختلف مكانها بين طابق وآخر، أي أنها غير متساوية شاقولياً.

ومع الإعتراف بصحة هذه الملاحظة، فمن الممكن أن بنائي قلعة دمشق كانوا علـى مـا يبدو ملتزمين باتباع هذا الترتيب في توزيع المرامي لسببين الأول: الرغبة في التوفيق بـين عقود السقف وفتحات المرامي حيث تأتي المرامي دائما عند تقاطع العقود العرضانية مع العقد الطولي في كل قاعة من قاعات الأبراج. فعند محاولة تجنب نقطة الضعف المشار اليها فـإن ذلك سيؤدي إلى إنقاص عدد المرامي، وهذا أمر غير مرغوب فيه. والسبب الثاني في توزيع المرامي على هذا الشكل ربما هو من أجل التماثل في مخطط القاعات ومقاييسها، وخاصة أن التناظر رغبة أصيلة عند الفنان العربي. كما أن مهندسي قلعة دمشق عوضوا عن النقص في ساحة الرمي الناشئ عن توزيع المرامي بالشكل المذكور، بتوجيه اهتمامهم بتصميم الـستائر وجعل رواشنها ومراميها تتناوب فيما بينها فتأتي مغايرة لأماكن مرامي الطوابق. كما جعلوا بعض المرامي الجانبية في الستائر مائلة باتجاه واجهات الأبراج، وبذلك أمكن تغطية مزيد من الفراغ في ساحة الرمي.

البدنات:

تعتبر البدنات أيضاً عنصراً هاماً في كيان القلعة الدفاعي. نجدها في قلعة دمشق وقد بلغت مستوى لائقا من حيث الإتقان والقوة، فقد شيدت بمداميك من الحجارة الكبيرة البـارزة النحت والتي يبلغ ارتفاعها الوسطي 11.5م (البدنة 5 – 6)، وسـماكتها 3.5م. وقـد زودت بالمرامي في أسفلها وأعلاها. ففي بدنات قلعة دمشق والتي يبلغ الطـول الوسـطي للواحـدة 30.30م، نجد في الغالب أربعة أو خمسة مرامي في الطابق الأرضي، وهي مرامـي كبيـرة مزودة بأواوين واسعة، ومثلها في الطابق العلوي للبدنة الموجود فوق السطح. ويعلو البدنـة شرافات في كل منها مرمى صغير، متوسط عددها تسع شرفات، واكثر بدنات قلعـة دمـشق خالية من الرواشن، يوجد ثلاثة في البدنة المجاورة لباب القلعة الشرقي. كما يوجـد روشـن واحد كان قد جدد في العهد المملوكي في البدنة (7 – 8). كما كان هنالك روشن في البدنة (3 – 4) زال مؤخراً ويمكن مشاهدته في الصورة المأخوذة للقلعة فـي القـرن التاسـع عـشر *(KING, 1951, P.62)*.

والبدنات في قلعة دمشق محاطة من الداخل بممر دفاعي، مهمته تأمين الحماية عنـد الإنتقال بين أجزاء البدنة ومراميها. وإذا قارنا هذه الخصائص التي تمتاز بها بـدنات قلعـة دمشق مع القلاع الأخرى المعاصرة، سنجد بأن بدنات قلعة حلب ليس لها نفس الأهمية نظراً لقيام قلعة حلب فوق مرتفع واعتمادها على الحصانة الطبيعية أكثر من اعتمادها علـى قـوة

الأسوار من أبراج وبدنات *(شعث، 1986، ص12)*. أما البدنات في قلعة الحصن (في السور الخارجي) فتمتاز عن قلعة دمشق بكثرة الرواشن، بنوعيها المنفصلة والمتصلة *(الصغير، 1995، ص47)*.

5- الممرات الدفاعية:

تعتبر الممرات الدفاعية عنصر مكمل للبدنات والأبراج. ومهمته تأمين الوصول إلى المرامي المفتوحة في البدنات وإلى طوابق الأبراج. وقد تطور تصميم المرامي وكانت على أوضاع مختلفة خلال العصور، وفي التحصينات العديدة، ففي القرن الثاني عشر كانت الممرات ضمن جدار البدنة نفسها *(الصغير، 1995، ص49)*. مثال ذلك القلعة التي شيدها صلاح الدين في القاهرة، حيث يبلغ عرض الممر (0.88م) وارتفاعه (2.25م) وهو فوق مستوى الأرض *(CRESWELL, II, 1959, P16)*. وكذلك قلعة الحصن التي بناها الفرنج، فلها نفس الأبعاد *(DESCHAMPS, 1934, T.III, P.263)*.

ويمكن عرض المزايا الرئيسية للممرات الدفاعية في قلعة دمشق في النقاط التالية:

1- ممر مستقل يحيط بأسوار القلعة، أبراجها وبدناتها، وهو متصل لا تقطعه الأبراج.

2- الممر الدفاعي يتألف من طابقين: السفلي مسقوف وهو في مستوى أرض القلعة، والعلوي غير مسقوف في مستوى متوسط بين الطابق الثاني والثالث للأبراج بحيث ينزل منه إلى الطابق الثاني، ويتم الصعود إلى الطابق الثالث بواسطة درج حجري.

3- يؤمن الممر الدفاعي الإتصال بسهولة ويسر بين البدنات والأبراج وذلك على الشكل التالي:
الطابق الأول (الأرضي) والطابق الثاني في كل برج لهما باب مفتوح على الممر مباشرة. أما الطابق الثالث فله باب أو بابين في جداريه الجانبيين مزودين بأدراج تصلهما بالممر.

4- الإتصال بين الممر السفلي والممر العلوي يتم عن طريق أدراج داخل الممر. يوجد واحد منها في الزاوية الجنوبية الغربية، وآخر في الجهة الشرقية عند البدنة (1 - 2).

5- الممر واسع، ولكن عرضه ليس واحدا في كل أقسامه، ويتراوح بين 2.5 و 5م. كما يتراوح ارتفاعه بين 5 و9م.

هذه الصفات للممرات الدفاعية في قلعة دمشق تجعلها تمتاز عن مثيلاتها في القلاع الأخرى، التي لا نجد فيها مثل هذا التنظيم الدقيق. فالممرات في قلعة بصرى مجزأة ومنفصلة عن بعضها، ولكل بدنة ممر مستقل. وليس هناك اتصال دقيق كما هو في قلعة دمشق بين الممر وبين الأبراج. أما القلاع الصليبية، فأغلبها من الطراز القديم، ممر ضيق داخل جدار البدنة ومتقطع، ويرتفع الطابق السفلي عن مستوى أرض القلعة فيصعد اليه بواسطة درج داخل البدنة كما في السور الغربي لقلعة الحصن. ولا يوجد اتصال دقيق بين الممر والأبراج، بل تحجز بين هذه أجزاء الممر. وقد ينعدم هذا الممر في بعض أجزاء السور كما في قلعة الحصن، وتحديداً في سورها الخارجي الغربي أو تحل محله قاعات واسعة، كما في قلعة المرقب *(المصدر السابق، 265 - P264)*.

6- الستائر والأسطحة:

تعتبر أعالي الأسوار وأسطحة الأبراج أهم موقع استراتيجي في القلاع. وكانت تستخدم منذ القديم كقوة ضاربة. وقد أوضحنا أهمية الستائر التي تحيط بسطح الأبراج والتي تعلو البدنات من الناحية الإستراتيجية عند الحديث عن هندسة قلعة دمشق وعن ستائر بدناتها وابراجها، وذكرنا ما تحويه الستائر من مرامي ورواشن في طبقات الأبراج. هذا بالإضافة للستائر الإضافية التي كانت توضع على الأبراج عند الحصار.

وكانت سطوح الأبراج تستعمل كمسرح لعمليات المنجنيقات، وكانت الستائر الإضافية تؤمن الحماية الكافية لهذه المعدات. بينما تساعد الجهة الخلفية للسطح وهي بدون ستارة على تحريك المنجنيق وامتداد ذراعه في الفراغ المطل على داخل القلعة.

ويمكن أن نعتبر ستائر قلعة دمشق أكثرها تنظيماً وفاعلية وخاصة ستائر البرج (رقم 4) والبرج (رقم3) الكائنين في السور الجنوبي ،وقد سبق وقدمنا وصفاً كاملاً لهذه الستائر عند الحديث عن هندسة القلعة.

ومع خلو ستائر قلعة دمشق من الرواشن المتصلة التي نجد نماذج لها في القلاع الأخرى كقلعة بصرى وقلعة الحصن، فإنها تتميز بحسن تنظيمها وقوتها الضاربة المتمثلة في الرواشن المنفصلة، والمرامي الموزعة على طابقين من الستائر، وبذلك تتفوق على ستائر القلاع المعاصرة لها.

ونلاحظ بأن الستائر في كل أنحاء قلعة دمشق تتألف من طابقين[88]. كما لم يتم العثور على هذه الميزة في غيرها من القلاع الصليبية كقلعتي المرقب والحصن ما عدا قطعتين وجدتا في السور الخارجي لقلعة الحصن ذات طابقين اعتبرها ري من ترميمات الظاهر بيبرس *(REY, 1871 , P.45)* .

وقد تم العثور على قطعة من سور طرطوس الذي يرجع إلى عهد الحروب الصليبية مزودة بطبقتين من الستائر ولكنها ليست في مستوى ستائر قلعة دمشق من حيث التنظيم والهندسة.

وفي قلعة حلب لا يوجد مثل هذين الطابقين في أسوارها وابراجها بسبب تهدم أعاليها، ولكن يوجد برج يبدو مجدداً في أواخر العهد المملوكي، وهو البرج المتقدم في سفح القلعة الجنوبي ويحوي طابقين من الستائر[89]. وكذلك في جزيرة أرواد نجد اسوار حصنها الصغير الموجود على الشاطئ، وكذلك في قلعتها طابقان من الستائر *(DESHAMPS, Vol.1, 1934, P.250)*.

أما الستائر في قلعة بصرى فتتألف من طابقين، ولكن الطابق العلوي زال منها كليا *(المصدر السابق، P301)*.

---

[88] يقول "كينغ" بانه في حالات نادرة يوجد ثلاث طبقات من الستائر *(KING, 1951, P.74)* ولكنه لم يذكر أي نماذج على ذلك. كما لم يتم العثور على أي منها في القلاع العربية او الصليبية.

[89] لم يعثر اي ممن درسوا فن العمارة العسكرية على هذين الحصنين، ويبدو عند تفحص عناصرهما أنهما من بناء الصليبيين وقد جرت عليهما ترميمات بعد تحرير الجزيرة في العهد المملوكي الذي تم سنة 1302/702 *(ابن تغري بردى، ج8، 154)*.

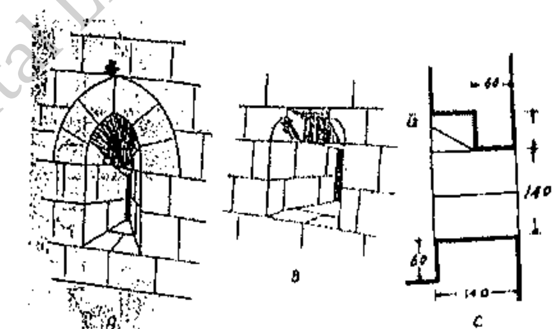
ومن الملاحظ في بعض ستائر قلعة الحصن الموجودة في الواجهة الجنوبية للحصن الداخلي وضعا خاصا، إذ تتألف الستائر من سلسلة شرفات مزودة بالمرامي. ولكن الفجوات الفاصلة بين الرواشن مسقوفة على غير العادة. وقد وضع ري دراسة لمخطط القلعة ذكر فيها أن هذا الوضع أصيل *(REY, 1871, P.47)*. وقد أيده في ذلك ديشامب *(DESHAMPS, Vol.1, 1934, P.250)* .

7- المرامي:

المرمى هو العنصر المخصص لرمي العدو بالسهام أو النشاب. ومصمم على شكل نافذة ضيقة أو شق في جدار السور أو البرج. ويبدو ان استخدام المرمى[90] في الحصون جاء متأخراً بالرغم من قدم سلاح الرمي *(POIDBARD, 1934, P.51)* .

تطورت أشكال المرامي وتصميماتها خلال العصور ووصلت إلى أرقى مستوى لها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حيث أصبحت أكثر ارتفاعا، يقف فيها الرماة بارتياح، وأصبح شكلها يشبه المحراب المتقن البناء بالحجر المنحوت، أو على شكل فتحة تتسع نحو الداخل، قائمة بين جدارين مائلين بشكل متعاكس بحيث يكون شكل مسقطها الأفقي مثلثاً متساوي الساقين رأسه عند شق المرمى الذي تتراوح فتحته بين 8 - 12سم *(المصدر السابق، P.52)*.

والمرمى مسقوف بطرق مختلفة، فالسقف أحيانا أفقي مؤلف من بلاطة تعتمد على بارزتين، جعلتا في الغالب مقعرتين لتتيح مكاناً أوسع يقف فيه الرامي.



لوحة رقم (3): رسم توضيحي لنوع من المرامي المستخدمة في قلعة دمشق (نقلاً عن سوفاجيه، 1930، P.83)

وأحيانا يكون السقف معقوداً على شكل قنطرة ،وفي كل الأحوال نجد ارتفاع المرمى يزيد عن ارتفاع شق الرمي، لكي يتسع لوقوف الرماة. أما عمق المرمى فيختلف من حصن لآخر، بحسب سماكة الجدران، فنجد أن عمقه في مرامي قلعة دمشق يتراوح بين 140 - 200سم. ويصل عمقه في بعض مرامي قلعة الحصن إلى 260سم *(المصدر السابق، P.52)*. ونشير هنا إلى أن هذا العمق لا يشمل الإيوان الذي يتقدم المرمى والذي سنوضحه لاحقاً.

---

[90] اول استخدام عرف للمرامي كان في العهد الروماني، ولكن بشكل محدود جدا، وذلك في بعض الحصون السورية مثل: خان الحلابات وخان التراب في بادية الشام. ثم استخدمت بعد ذلك في أكثر القلاع البيزنطية (اللوحة 69) *(POIDBARD, 1934, P.51)* .

ومحور المرمى أو محور الرمي يكون عادة عموديا على الجدار المفتوح فيه. ولكن يوجد في قلعة دمشق مرامي ذات محور مائل بمقدار 45 درجة. وهذه المرامي نجدها في مؤخرة الجدران الجانبية للأبراج وستائرها .والغاية من هذه المرامي المائلة هو إحداث رمي موجه نحو واجهة أبراج القلعة. وهذه ميزة تكاد تنفرد بها قلعة دمشق، وتدل على دراسة دقيقة لفن الرمي[91].

أما شق المرامي فبعضها أضيق من بعض وتتراوح فتحته كما ذكرنا بين 8 -12سم. وهنالك ميزة نجدها في بعض شقوق المرامي يطلق عليها كلمة (غاطس Plongeon): وهو عبارة عن منحدر في أسفل الشق نحو الخارج يساعد في توجيه الرمي نحو مسافة أقرب إلى جدر السور. وهذه الميزة غير موجودة في مرامي قلعة دمشق ***(المصدر السابق، P.53)***.

يرى "كينغ" بأن هذا النوع من المرامي غير موجود في الحصون الإسلامية، وقليل الإستعمال في الحصون الصليبية ***(KING, 1951, P.78)***. إلا أنه عند تفحص خصائص مرامي الحصون السورية يمكن مشاهدة هذه الظاهرة في مرامي عدد من القلاع، مثل قلعة جعبر حيث أن أكثر مراميها مزودة بغاطس شديد الإنحدار .وفي قلعة حلب يمكن مشاهدة الغاطس في مرامي الطابق الأوسط لبرج قاعة العرش، وهو خفيف الإنحدار. أما قلاع الفرنج فإن الغاطس مألوف في كثير من المرامي، يمكن مشاهدته في قلعة الحصن وقلعة المرقب وبرج صافيتا، وهو بشكل مثلث رأسه عند شق المرمى- ***(POIDBARD, 1934, P.53 .54)***

شيء آخر يتصل بتصميم المرامي، وهو تزويدها بإيوان يتقدم المرمى، بدأ يظهر في أكثر القلاع منذ أواخر القرن الثاني عشر ***(المصدر السابق، P60)***. وقد زودت به مرامي قلعة دمشق كلها باستثناء مرامي الستائر. والإيوان يشبه غرفة صغيرة، متوسط عرضها يساوي 3م، وعمقها 2م، وتتسع لعدد من الرماة يتناوبون الرمي فيما بينهم. ويرتفع الإيوان عن مستوى الأرض قليلاً، وينخفض كذلك عن مستوى المرمى بما يعادل ارتفاع درجة واحدة. ولا نجد هذا الإيوان في مرامي قلعة جعبر ومصياف المبنيتين في وقت أبكر من قلعة دمشق، بينما نجده في أكثر مرامي قلعة بصرى المعاصرة ***(المصدر السابق، P.60)***. وفي هذه القلعة نجد أحياناً إيواناً واحداً يضم اثنين من المرامي. كذلك نجد هذه الظاهرة موجودة في بعض مرامي قلعة صلاح الدين التي بناها مثل (قلعة الحصن)، فإن الأقسام المبنية في المرحلة الأولى السابقة لعام 1170م خالية مراميها من الأواوين. بينما نجد مرامي الأقسام المبنية بعد هذا التاريخ مزودة بالأواوين ***(الصغير، 1995، ص72)*** .

وفي الجدول التالي بعض الأرقام التي تعطي فكرة عن مقاييس الأجزاء المختلفة للمرمى في عدد من القلاع والأسوار ***(المصدر السابق، ص103)***:

ملاحظة: تمثل الأرقام التالية متوسط المقاييس الشائعة في المرامي الرئيسية للقلاع، ويوجد استثناء واختلاف في بعض نواحي القلاع، وخاصة في مرامي الشرفات والستائر التي هي دائما أصغر من غيرها.

---

[91] في سور القاهرة الفاطمي (برج باب الفتوح)، باب فيه مرمى واحد من هذا النوع.

جدول رقم (2): قياسات المرامي وأجزائها الرئيسية بالسنتمترات

اسم القلعة	ارتفاع الإيوان	عمق الإيوان	عرض الإيوان	طول شق المرمى	عرض شق المرمى
قلعة دمشق		195	300	168	9 ، 11
قلعة بصرى				190، 130	15
أسوار حلب				230- 268	9
قلعة مصياف				50	
قلعة جعبر				90 ، 120	25 – 13
قلعة الحصن	220 ، 235	180	225 ، 305	175 ، 205	8
قلعة المرقب				190	
برج صافيتا					12
أسوار القاهرة (صلاح الدين)	90 ، 105	260			
قلعة القاهرة (صلاح الدبن)	105 ، 90	260	170		
الرصافة	200			160	
قلعة حلب				175 ، 202	20

8- الرواشن والسقاطات:

تطلق كلمة "الروشن" في عدد من المصادر التاريخية على العنصر المعماري المستخدم في القلاع لحماية الأبواب والأسوار، وهو عبارة عن شرفة بارزة مسقوفة ومزودة بـ "سقاطات" وهي فتحات تصب منها الزيوت المغلية أو الحجارة أو غيرها على العدو المحاصر للقلعة لعرقلته أو رده عن دك الحصون. ويحتوي الروشن على عدد من السقاطات يتراوح بين 1 – 4 تتوزع بالتناوب مع الحوامل الحجرية البارزة التي يعتمد عليها الروشن. وهنالك عدة أشكال للرواشن من حيث التصميم *(المصدر السابق، ص81-90)*، ولكن الوظيفة واحدة، فمنها:

- النوع العادي الذي نجده في واجهات الأبراج وفي زواياها وهذا الأخير يتألف من واجهتين. وله سقاطات أكثر عدداً موزعة على الجبهتين.
- النوع الثاني روشن كبير يمتد على طول جدار البرج أو البدنة ومؤلف من سلسلة من السقاطات المتواصلة.

- النوع الثالث لهذا العنصر الدفاعي هو ما يمكن مشاهدته غالباً عند أبواب القلاع والمدن المسوّرة ويتكون من سقاطة كبيرة مفتوحة في أعلى الباب، تحدث من فراغ وراء قنطرة الباب الأمامية .

والنوع الأول من الرواشن هو الشائع في قلعة دمشق والقلاع الأخرى المعاصرة *(المصدر السابق، ص86)*. وهي في قلعة دمشق دائماً موجودة في الطابق السفلي للستائر، يتم الدخول إليها من السطح، وتتألف من ثلاث سقاطات غالباً. قياس فتحتها (40 × 40سم)، ما عدا روشن واحد يحتوي على أربعة سقاطات وهو الروشن الذي يتوسط واجهة البرج رقم(5)، أما رواشن الزوايا فهي تحتوي غالباً على 6 سقاطات، ثلاث في كل جهة.

أما الرواشن الكبيرة ذات السقاطات المتواصلة (النوع الثاني) غير موجود في قلعة دمشق أبداً، وقليل الإستعمال في القلاع والحصون العربية، ونجد لها نموذجاً في (برج الصالح أيوب) الواقع الزاوية الشمالية الغربية لسور مدينة دمشق وتاريخه (1248/646) ، وأيضاً في قلعة بصرى عند البدنة الواقعة في الجهة الشمالية، في القسم العلوي من ستائرها. ويوجد أيضاً في قلعة بصرى رواشن من النوع الأول بقي عدد قليل منها وتتألف غالباً من سقاطتين. وعرفت قلعة الحصن النوعين الأول والثاني من الرواشن، فالنوع الأول نجده في البدنات ويتألف من سقاطة واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً. أما الثاني ذي السقاطات المتواصلة فإنه يتوج أعالي الأبراج *(المصدر السابق، ص87-88)*.

إن جميع الرواشن من النوعين المتقدم ذكرهما مزودة بالمرامي المفتوحة في واجهاتها، وهي قصيرة عادة لا يتجاوز طولها في رواشن قلعة دمشق 67سم. ويرى كينغ بأن وظيفة هذه المرامي الإنارة والمراقبة وتوجيه عملية القذف من السقاطات، إلا أن مفعولها كمرامي محدود جداً، كما أن وضعها للرماة غير مريح ***(KING, 1951, P.73)*** . الواقع أن مثل هذا المرمى أو النافذة عنصر أساسي في الرواشن ولا يمكن الإستغناء عنه.

وقد ظهر الروشن الصغير من النوع الأول في العمارة العربية منذ عهد مبكر[92]، نجد نموذجاً له فوق باب قصر الحير الشرقي وهو من بداية القرن الثامن الميلادي **(لوحة رقم 4)**. ثم يظهر في تدمر في التحصينات التي أقيمت على سور معبد بل في تدمر في العهد السلجوقي[93] في القرن الثاني عشر. ثم نجد روشناً من القرن نفسه يظهر فوق باب مدينة دمشق الشرقي يرجع إلى أعمال نور الدين محمود بن زنكي. وهذه الرواشن الثلاثة كلها بسقاطتين فقط. ويبدو أن استخدام هذه الرواشن كان محدوداً قبل القرن الثاني عشر، ثم أصبح عنصراً دفاعياً هاماً يغطي أعالي الأبراج وأحياناً البدنات، كما رأينا في قلعة دمشق. وقد ثبت بأن الفرنج لم يكونوا يعرفون استخدام هذا النوع من الرواشن الحجرية قبل الحروب الصليبية. لكنهم سرعان ما اقتبسوا تصميمه عن العمارة السورية ***(الصغير، 1995، ص93 - 94)***.

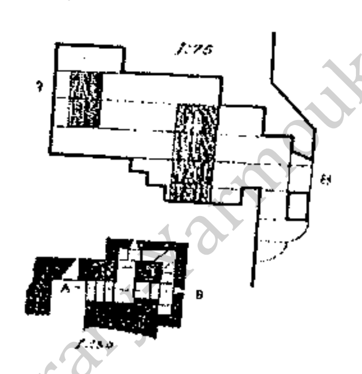
---

[92] يرى "كريزويل" أن سوريا عرفت هذا الروشن الحجري منذ عهد مبكر في العهد البيزنطي، وأن أقدمها عثر عليه في أبراج ترجع إلى عامي 492 و522م في قرى جرادة وسرجلة ورفادة في شمال سوريا. وكانت تستعمل في أغراض منزلية كمرحاض. أما التي استخدمت في الأغراض العسكرية فأقدمها يرجع إلى عام 551م وهو روشن برج مراقبة في قرية دارقيتا شمالي سوريا ***(CRESWELL, II,1959, P345)***.

[93] يرى "كريزويل" بأن تحويل المعبد إلى حصن حدث في عهد يوسف بن فيروز سنة 1132/527 ***(CRESWELL, II,1959, P60)***

ويعتبر الروشن الذي تبدو آثاره على أحد أبواب قلعة صلاح الدين (صهيون) أقدم ما بناه الفرنج من الرواشن، ويرجع تاريخه إلى عام 1108م. ولم تكن الحصون المشيدة في أوروبا في ذلك الوقت قد عرفت الرواشن الحجرية، وانما كانت تعتمد على نوع من الستائر الخشبية البارزة التي يطلق عليها اسم (هورديج Hourdage) **(المصدر السابق، ص95)** .

ويرى "سوفاجيه" أن هذا النوع من الرواشن الصغيرة هي أصل للرواشن ذات السقاطات المتواصلة (النوع الثاني) ***(SAUVAGET, 1930, P.69)***، وهذا يختلف عما ذكره "فان بريشم" من أن النوع الأول من الرواشن (الصغير) كان تطويراً للروشن الثاني ذي السقاطات المتواصلة ***(VAN BERCHM, 1914, P.148)*** .



لوحة رقم (4): روشن زاوية البرج رقم (3) (نقلاً عن سوفاجيه، 1930، P.69).

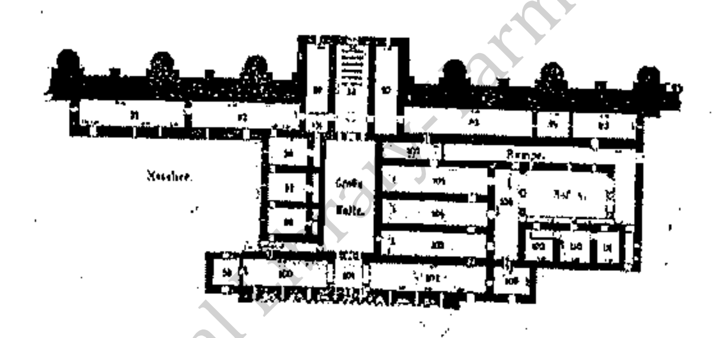
ويبدو أن راي "سوفاجيه" مقنع اكثر، نظراً لقدم النوع الأول وعدم ظهور النوع الثاني إلا متأخراً. ويبدو أن أول من استخدم من الأوروبيين النوع الثاني أي المتواصل هم الصليبيون. فكان تطويراً للستائر الخشبية "Hourdage" المألوفة في أوروبا. لكنه لم يستخدم في القلاع العربية إلا نادراً كما رأينا.

أما النوع الثالث لهذا العنصر الدفاعي وهو ما يسمى "Assomoire" أي السقاطات المفتوحة في قنطرة الباب. فإنه لا يشبه من حيث الشكل الرواشن، ولكنه يؤدي نفس الوظيفة. وقد رأينا هذا النوع مستخدماً في القلاع المشيدة في بداية القرن الثالث عشر المعاصرة لقلعة دمشق، سواء العربية منها أو الصليبية، باستثناء قلعة دمشق نفسها ***(الصغير، 1995، ص94)***. فنجده مثلاً في بوابات قلعة بصرى وقلعة نجم وقلعة حلب، وفي بوابات أسوار مدينة حلب (باب انطاكية)، وفي خان العروس[94]، كما نجده في بوابة قلعة صلاح الدين[95]، وكذلك في قلعة الحصن حيث تحوي سقاطات مفتوحة ضمن ثلاث قناطر كبيرة مقامة في جدار برج الزاوية الشمالية الغربية للحصن الداخلي***(المصدر السابق، ص96-128)***. وهذا نموذج فريد، وإن كان يماثل من حيث التصميم السقاطات المستخدمة في البوابات. وتمتاز السقاطات المذكورة بوجود ميل في أسفل جدار "برج Glacie" حيث تسقط عليه المقذوفات فتصل مسافة أبعد من أسفل البرج نحو المهاجمين. ولهذه السقاطات نوافذ للمراقبة في أعلى البرج.

[94] شيد خان العروس في عهد صلاح الدين.
[95] شيدها الصليبيون.

قال "ديشامب" حين شاهد هذا العنصر الدفاعي في إحدى بوابات قلعة صلاح[96] الدين، أنه من ابتكار الفرنج *(DESCHAMPS, T.XIII, 1932, P.375)*. إلا أننا نجد أن العالم البريطاني "كريزويل" يفند قول "ديشامب" بقوله: " إن مثل هذه السقاطات موجود في أبواب القاهرة الفاطمية (باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة) المشيدة عام 1087/480 *(CRESWELL, II,1959, P61)*".

ويمكننا أن نضيف إلى رد "كريزويل" بأن العرب استخدموا هذا النوع من السقاطات في العمارة العسكرية قبل هذا التاريخ بكثير، حيث نجدها مستعملة في حصن الأخيضر العباسي الذي يرجع إلى القرن التاسع الميلادي (عهد الرشيد على الأرجح). فنجد سلسلة من القناطر المحمولة على دعامات بارزة في السور تترك فراغاً بينها وبين جدار السور، وهي موزعة بشكل منتظم في أنحاء السور كما نجدها مستخدمة في بوابات هذا الحصن أيضاً، فنجد سلسلة من السقاطات تلي بعضها البعض في دهليز الباب.



لوحة رقم (5): قطعة من مخطط قصر الأخيضر العباسي، تشاهد عند السور بين الأبراج نظام السقاطات المقنطرة، وكذلك سقاطات الباب والدهليز (نقلاً عن كريزويل P.62).

9- الخنادق:

تعتبر الخنادق من أهم العناصر الدفاعية في أعمال التحصين. فقد عرف استعمالها منذ العصور القديمة[97] كمانع اصطناعي، لا سيما عندما لايتوفر للحصن موانع طبيعية *(KONYON, 1957, P.68)*.

وقد يكون الخندق جافاً، أو يملأ بالماء ليصبح أكثر مناعة وهذا هو الوضع الشائع. ففي كل الأحوال لا بد لإجتياز الخندق من توفر جسور ثابتة أو متحركة تقام أمام الأبواب. ويكون الخندق محيطاً بأسوار القلعة وأبراجها مباشرةً عندما تكون القلعة مشيدة في مستوى الأرض (مرجلة) كما هو الحال في قلعتي دمشق وبصرى، أو يحيط بسفح صخري أو مصفح بحجارة البناء المنحوتة عندما تكون القلعة فوق مرتفع طبيعي. وهذا الوضع نشاهده في خندق قلعة حلب وخندق قلعة الحصن الداخلي *(المصدر السابق، P69)*.

---

96 إن مقاييس هذه السقاطة كما اثبتها "ديشامب" هي كما يلي: 35سم سماكة القنطرة الأمامية، 65سم فتحة السقاطة أو الفراغ بين القنطرة والجدار الخلفي الراجع *(DESCHAMPS, T.XIII, 1932, P.375)* .

97 أقدم ما عرف من الخنادق حتى الآن هو خندق وسور أريحا في فلسطين الذي يرجع إلى العصر الحجري الحديث. وقد بلغ عرضه 9م وعمقه 3م، وكان محفوراً في الصخر *(KENYON, 1957, P.68)*

وتختلف الخنادق من حيث سعتها وعمقها. فنجد أن عرض خندق قلعة دمشق يبلغ 20م في أكثر أقسامه. وكذلك عرض خندق قلعة بصرى. أما عرضه في قلعة الحصن (الخندق الداخلي) فيتراوح بين 12.5 – 15م. وفي قلعة صلاح الدين صهيون فيقدر بـ 15 و 18م. وأكبر خندق عرف في الحصون السورية هو خندق قلعة حلب حيث يبلغ 26م في مستوى السطح *(المصدر السابق، P.69-70)*.

أما أعماق الخنادق، فمن الصعب قياسها لأن أكثرها لا زال مردوما في الوقت الحاضر، إلا أنه في عام 2001 أمكن كشف جزء من خندق قلعة دمشق، وذلك بعد إزالة الردم والأوساخ في الممر الفاصل بين القلعة وسوق الحميدية.

وبالاعتماد على المصادر التاريخية في التعرف على عمق خندق قلعة دمشق، نجد أن الفرق كبيرا بينها. فقد ذكر أبو البقاء أن عمقه كان في عهده (القرن الخامس عشر) مئة ذراع، أي ما يعادل 65م *(أبو البقاء، 1341، ص26)*. أما الرحالة الفرنسي "دارفيو" (القرن السابع عشر) فقد قدرها بـ 6م ***(D'ARVIEUX, 1735, P.139)***.

أما أعمق خندق عرف حتى الآن فهو خندق قلعة صلاح الدين والمحفور في الصخر في الجانب الشرقي من القلعة حيث بلغ 28م ***(الصغير، 1995، ص122)***.

10- خصائص دفاعية عامة، الحصانة وقوة البنيان:

جرت العادة عند تشييد الحصون والقلاع، أن يبحث البناة عن الموقع الطبيعي الحصين في المرتفعات، أو على ضفاف الأنهار. كذلك كان الأمر عند الأيوبيين في تشييد قلاعهم. ولكن قلعة دمشق حرمت من هذه الخاصة الطبيعية، فاضطر بناؤوها إلى تشييدها (مرجلة) أي في مستوى أرض المدينة. واستفادوا من وجود مياه نهر بردى وفروعه الجارية شمالي المدينة وغربها، فاتخذوا موقع القلعة في الزاوية الشمالية الغربية، وعوضوا النقص في الحصانة الطبيعية بالنواحي الفنية والمعمارية، كالإهتمام بسماكة الجدران وضخامة الحجارة وطريقة نحتها، وارتفاع الأسوار والأبراج، وبتقريب الأبراج من بعضها، والإكثار من الرواشن والمرامي فيها. كما استخدموا المداخل الحصينة ذات المنعطفات العديدة، وأبواب السر. وأحاطوا القلعة بخندق عميق تملؤه المياه فتشكل مانعا اصطناعيا يزيد في حصانة القلعة ***(KING, 1951, P.91)***.

وتمتاز كذلك القلاع الصليبية بجدرانها القوية والسميكة، فقد بلغ سمكها في قلعة صلاح الدين 4.40م ، وذلك في البرج الرئيسي الحامي للقلعة ***(المصدر السابق، P94)*** .

كما تمتاز غالبية القلاع الصليبية والعربية بتقنية خاصة تزيد في مقاومة الجدران، وذلك بإحداث سفح مائل في أسفل الجدران يزيد من سماكة الجدران إلى ثلاثة أمثالها، وتعطي تلك السفوح للجدران مقاومة ضد ضربات المنجنيق وأعمال الحفر فيها والزلازل ***(REY, 1871, P.15)*** . ونجد مثل هذه الجدران في قلعة بصرى وقلعة نجم وقلعة حلب وشيزر وفي أكثر القلاع الصليبية .

وهناك تقنية أخرى تزيد في مقاومة الجدران وتقوم على أساس استخدام جذوع الأعمدة في عرض الجدران بشكل أفقي، وجدت مستخدمة في عدد من التحصينات باستثناء قلعة دمشق. وأحسن مثال عليها نجده في قلعة بصرى، في أبراجها الأيوبية، حيث وضعت

جذوع الأعمدة بارزة قليلاً عن سطح الجدار، وموزعة بشكل منتظم. ويقول " أبيل ABEL " عندما يتحدث عن قلعة بصرى بأن أصل هذه التقنية ينسب إلى الصليبيين حيث ظهرت في تحصينات صيدا وجبيل وطرابلس، وأن الأيوبيين أخذوها عنهم وطبقوها في بصرى في الأبراج التي شيدت في عامي 1249/647 و 1251/649 ***(ABEL, 1956, P.53)***.

ويرجح "ريحاوي" أن يكون الصليبيون قد اقتبسوا هذه التقنية عن التحصينات التي وجدوها في سورية. لأن العرب استخدموها في سور معبد "بل" في تدمر الذي حوّله السلاجقة إلى حصن في بداية القرن الثاني عشر، وفي أحد أبراج قلعة دمشق السلجوقية (البرج المجاور للباب الشمالي) ***(ريحاوي، م19، 1969، ص18)***.

ومما يتصل بقوة البناء أيضاً طريقة نحت الحجارة وتركيبها. فقد كانت الطريقة التقليدية في بناء الجدران أن تجعل مركبة من وجهين من الحجر (كلينين)، بينهما حشوة (بلوكاج) من المونة والحجر الغشيم أو المكسر. وهذه الطريقة نجدها في قلعة دمشق وغيرها من القلاع المعاصرة لها ***(الصغير، 1995، ص102)***.

اما مقاييس الحجارة، فقد بلغ الإرتفاع المتوسط للمداميك في قلعة دمشق حوالي 62سم. وفي بعض أبراج قلعة بصرى 85سم. وهذه الضخامة في قياس الحجارة هي من تقاليد العمارة السورية القديمة ***(المصدر السابق، ص112)***.

ولكن حجارة قلعة دمشق تميّزت بمظهر خاص يمكننا مشاهدته في سائر واجهاتها. فهي ذات نتوء يبرز مقدار يتراوح بين 10 – 30سم. كما نلاحظ بأن الجزء البارز مقطوع بصورة عفوية بحيث يصبح للحجر عدة وجوه غير متساوية. أما قاعدته فمحاطة بإطار مصقول عرضه 5سم.

ويرى "سوفاجيه" ان لهذا النوع من الحجارة البارزة عدة فوائد منها ما يتعلق بالمظهر العام، حيث يعطي للقلعة مزيداً من مظهر القوة والجبروت. ومنها ما يتعلق بالمقاومة. ويضيف بأن مثل هذه الحجارة تعطي للجدران مقاومة ضد مقذوفات المنجنيق أكثر بكثير من مقاومة الحجارة الملساء ***(SAUVAGET, 1930, P.65)***.

أما "ديشامب" فيرى أن الكرات الحجرية المقذوفة تفقد كثيراً من قدرتها عندما تصادف وجه الجدار ذي الحجارة البارزة. ويضيف بأن مثل هذه الحجارة البارزة لم تعرف في فرنسا قبل القرن الثالث عشر، وأن الصليبيين عند وصولهم إلى سورية شاهدوا هذه التقنية مستعملة في تحصينات ترجع إلى عهود قديمة كأسوار "دورا أوروبوس" المبنية في القرن الرابع قبل الميلاد ***(DESCHAMPS, 1934, P.228)***.

ويمكن القول بأن استخدام الحجارة البارزة النحت هو تقليد عريق في سورية ، نشاهده في مباني مدينة "أوغاريت" الكنعانية التي ترجع إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد . ونلاحظ هنا بأن البروز غير كبير، ولعل الغرض منه اختصار عملية النحت، أما في القرون الوسطى فقد زاد بروز الحجارة وخاصة في الحصون الأيوبية كقلعة دمشق، وقلعة بصرى، وهو يقارب العشرين سنتمتراً ***(ريحاوي، م19، 1969، ص20)***.

وقد ذكر "كريزويل" بأن بروز حجارة قلعة صلاح الدين في القاهرة يبلغ 0.33م ***(CRESWELL, II, 1959, P9)***.

الفصل الثالث

أعمال الهدم والترميم والبناء في قلعة دمشق

المبحث الأول:
أعمال الهدم والترميم والبناء للقلعة في العهد المملوكي:

تبين من خلال الفصل الأول من هذه الدراسة، ما أصاب قلعة دمشق في آخر العهد الأيوبي على يد التتار، فقد هدموا بالمجانيق جانباً من القلعة وخاصة جبهتها الغربية والشمالية، ثم قاموا بعد سقوطها بأيديهم، بإحراق أقسام منها وهدم أعالي أبراجها، كما تحدثت المصادر التاريخية *(حلمي وزيادة، 1962، ص204)*.

ثم بدأت أعمال الترميم منذ بداية العهد المملوكي[98]، واستمرت طوال هذا العهد. وكانت تبنى من حين لآخر منشآت لأغراض الإقامة: كالدواوين والقاعات والقصور *(سويلة، 1974، ص129)*. سيأتي الحديث عنها بالتفصيل.

كما تعرضت القلعة خلال العهد المملوكي إلى العديد من أعمال الهدم إما على يد التتار خلال حملتي قازان سنة 1299/699 وتيمورلنك سنة 1401/803 *(ابن تغري بردى، ج12، 1952، ص240-246)*، وإما بسبب الثورات والفتن الداخلية، أو بسبب الزلازل *(ابن كثير، 1932، ج14، ص243)*.

وكان سلاطين المماليك يعيرونها اهتمامهم البالغ فيرممون ما يتهدم منها، ويزودونها بما تحتاج إليه من منشآت عسكرية ومدنية أرختها الكتابات التذكارية المنقوشة على القلعة، وتحدثت عنها كذلك المصادر التاريخية، وسيتم الحديث عن هذه الأعمال في هذا الفصل بعد تقسيمها إلى مراحلها التاريخية التالية:

1- أعمال الأمير سنجر الحلبي (1259/658).
2- أعمال الظاهر بيبرس (بين عامي 1259/658 و 1277/676).
3- أعمال المنصور قلاوون (1279/678 – 1290/689).
4- أعمال الملك الأشرف خليل (1290/689 – 1293/693).
5- أعمال الناصر محمد بن قلاوون (1293/693 – 1343/744).
6- أعمال المنصور محمد بن المظفر حاجي (1360/762 – 1376/778).
7- أعمال الأمير نوروز الحافظي (1405/808 – 1414/817).
8- أعمال الملك الظاهر خشقدم (1460/865 – 1467/872).
9- أعمال الناصر محمد بن قايتباي (1495/901 – 1498/904).
10- أعمال السلطان قانصوه الغوري (1500/906 – 1516/922).
11- أعمال غير مؤرخة.

1- أعمال سنجر الحلبي:

كان سنجر الحلبي أول نائب مملوكي على دمشق، عينه السلطان قطز بعد طرد التتار. ولما قتل قطز رفض سنجر الإعتراف بسلطنة الظاهر بيبرس، وأعلن نفسه سلطاناً على

---

[98] ورد في ترجمة السلطان قطز بأنه دخل دمشق سنة 658هـ إثر معركة عين جالوت، وامر بعمارة قلعة دمشق، وولى عليها الأمير عز الدين أيبك الزراد. وامر ان يصرف على عمارتها جميع ما يحتاج اليه (ابن الصقاعي، 1974، ص129).

الشام، ولقب بالملك المجاهد، وبادر إلى ترميم القلعة وتحصينها *(ابن تغري بردى، 1952، ج7، ص102 – 107)*.

وفي الواقع لا يوجد أي نص منقوش على مباني القلعة يؤرخ أعمال سنجر الحلبي، ربما كان السبب في ذلك قصر المدة التي تولاها، ولأن ما بداه من اعمال قد تم في عهد الظاهر بيبرس. وتعطي المصادر التاريخية صورة جميلة عن الإحتفال بالبدء في الترميم، حيث يقول ابن تغري بردى: " أمر سنجر الحلبي بتجديد عمارة قلعة دمشق، وزفت بالمغاني والطبول والبوقات، وفرح أهل دمشق بذلك. وعمل الناس بالبناء حتى النساء. وكان يوم الشروع في تجديدها يوماً مشهودا *(المصدر السابق، ص104)* ".

2- **أعمال الظاهر بيبرس:**

تمت أهم أعمال الترميم في عهد الظاهر بيبرس. وقد سجلت مجموعة من النصوص المنقوشة في أماكن القلعة هذه الأعمال. وكانت هنالك أعمال اخرى ومنشآت وصفتها المصادر التاريخية أيضاً.

ينقل سامي الدهان عن ابن شداد وهو مؤرخ السلطان بيبرس وواحد من موظفيه الملازمين له:" فلما ملك السلطان الظاهر قلعة دمشق جددها وشيدها، ورمم ما كان التتار المخذولون هدموه منها وبنى على برج الزاوية المطل على الميدان مستشرفاً عالياً متقن البناء. وبنى قاعة إلى جوار البحرة لولده الملك السعيد. وبنى على باب القلعة من جهة المدينة حماماً. ولم يزل البناء بها إلى وضعنا هذا التاريخ وهو سنة 675 *(الدهان، 1956، ص39)*".

ويتحدث ابن تغري عن أعمال الظاهر فيقول: " وكانت التتار قد هدموا شراريف قلعة دمشق ورؤوس ابراجها، فجدد الظاهر ذلك كله، وبنى فوق برج الزاوية المطل على الميادين وسوق الخيل طارمة كبيرة، وجدد منظرة قائمة على البرج المجاور لباب النصر، وبيّض البحرة وجدد دهان سقوفها *(ابن تغري بردى، ج7،1952، ص105)*".

من الضروري تقديم بعض التحليل لمضمون النصين المتقدمين الهامين، فبالنسبة لما يتعلق بترميم الأسوار والأبراج فقد أرختهما الكتابات المنقوشة التي سيتم توضيحها لاحقاً. ولكن الذي يهم هنا، تلك الأعمال الإنشائية العديدة التي وجدت داخل القلعة، وتم الكشف عن معظمها حديثاً، وهي: الطارمة، القاعة، البحرة، والمنظرة.

- **الطارمة:** لا يوجد لها اي أثر اليوم، ويتضح من النصين المتقدمين أن مكانهما على برج الزاوية الشمالية الغربية، المربع الشكل **(برج رقم 12)**، فهو البرج الوحيد المطل على الميدان الأخضر وسوق الخيل. وقد ذكر من خلال الفصل الأول من هذه الدراسة، بأن المعظم عيسى بن العادل قد بنى طارمة على برج باب الحديد **(الفصل الأول، ص28)**. كما تحدث "سوفاجيه" عن أوصاف هذه الطارمة، فذكر بأنها بناء مستدير، فوق برج الباب الشمالي المسمى "باب الحديد" ***(Sauvaget, 1930, P.80)***. وعلى ضوء الإستعمالات التي مرت معنا للطارمة في الفصل الأول من هذه الدراسة، فيمكن اعتبارها بمثابة قاعة العرش، حيث كان السلطان عندما يدخل القلعة يصعد إليها رأساً، وكان يشرف منها على الميادين ويستعرض الجيوش.

- **القاعة:** أشير اليها في نص ابن شداد، وذكر بأنها مشيّدة إلى جانب **البحرة**، حيث تم الكشف عنها حديثا أثناء تنقيبات البعثة الوطنية عام (1992) بإشراف المرحوم د. نسيب صليبي. وقد ذكر ابن شداد بأن الملك الأشرف الأيوبي هو الذي أنشأ البحرة سنة 1228/626، *(الدهان، 1956، ص39)*.

- أما **المنظرة** التي شيدت على البرج المجاور لباب النصر، فقد انفرد ابن تغري بردى بخبر بنائها *(ابن تغري بردى، 1952، ص130)*، فهي بناء، كما يبدو شبيه بالطارمة ويطل على خارج الأسوار. ولم يبق لها أثر اليوم أيضا. وما زال أهل دمشق يطلقون اسم المنظرة على البرج المرتفع الذي يقام وسط الكروم لجلوس الناطور أو الحارس. ولا شك أن البرج الذي شيدت عليه هو برج الزاوية الجنوبية الغربية **(البرج رقم 1)** فهو البرج الوحيد المجاور لباب النصر[99]. ويؤكد لنا ذلك، خبر ترميم هذا البرج الذي يرويه ابن كثير حيث يقول: " جدد الملك الظاهر البرج القبلي*(ابن كثير، ج12، 1932، ص114)*". ونستنتج من ذلك أن الملك الظاهر رمم هذا البرج وأقام فوقه بناء يشبه المنظرة أوالطارمة. وهو الآن مهدوم.

- وبالنسبة **للحمام**: فهو حمّام مملوكي، ذكره ابن شداد ونسب بنائه للملك الظاهر عند حديثه عن المنشآت الخاصة بالقلعة. وذكر بأنه قد بني على باب القلعة *(ابن شداد، 1956، ص102)*. إلا أن عبارة "على باب القلعة" من الملاحظ بأنها غامضة ولم تحدد مكانه بشكل دقيق. وقد تم الكشف عنه أثناء تنقيبات البعثة الوطنية سنة (1995)، في الجهة الغربية من القلعة بجوار برج الزاوية الشمالية الغربية. سيتم وصف هذا الحمّام لاحقاً.

أما بالنسبة لما أثبتته الكتابات المنقوشة في أنحاء من القلعة من أعمال الملك الظاهر، وهي ثلاث كتابات:

الكتابة الأولى (الكتابة رقم 8)[100] :

منقوشة على البرج **(رقم 4)** في مكان يتوسط واجهته الجنوبية، وهذا نصها كاملاً، وتتألف من:

"بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما امر بتجديده
وعمارته (.....) مولانا السلطان الملك
الظاهر العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر الغازي
المؤيد المظفر المنصور ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام
والمسلمين سيف الملوك والسلاطين صاحب القبلتين خادم الحرمين
الشريفين قسيم امير المؤمنين بيبرس الصالحي النجمي خلد
الله سلطانه وادام ايامه واعلا شأنه
ولا زال سعد جده منصورا واعانه
جوده واحسانه العالي منشورا بمحمد وآله واصحابه

بتولي العبد الفقير
الى رحمة ربه الامير عز الدين ايبك

---

[99] باب النصر: هو أحد أبواب المدينة من جهة الغرب.
[100] Sobernheim, 1922, op. cit, N°6

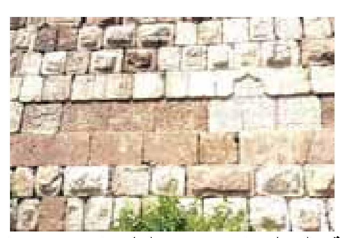
الصالحي المعروف بالزراد في
سنة تسع وخمسين وستمائة".

والبرج المشار اليه هو من أفضل أبراج القلعة حالاً وأكملها. ومن الصعب التمييز بين الأجزاء المرممة والأجزاء الأصلية (الأيوبية من عهد العادل أبي بكر). ويمكن تفسير ذلك بأحد الأمرين: الأول: أن التجديد كان محدوداً ويقتصر على الستائر العليا. والثاني: هو ان عملية الترميم كانت متقنة بحيث حرص المرممون على مشابهة الأصل القديم واستخدام نفس الحجارة المهدمة أو ما يماثلها في طريقة النحت.

والشيء الجديد المميز في هذا البرج هو الكتابة المتقدم ذكرها التي نقشت في عهد الملك الظاهر، وكتابة أخرى لاحقة من عهد السلطان قلاوون، سيأتي الحديث عنها لاحقاً. إلا أننا نلاحظ بين حجارة البرج بضعة أحجار غير أصيلة وتعديلات على مرامي الطابق الوسط، ولكن ذلك لا يرجع إلى عهد الظاهر وقلاوون وإنما إلى عهد أحدث.

الكتابة الثانية:

وهي **الكتابة رقم (4)**، وتشير إلى ترميم القلعة بشكل عام، وتذكر تسليمها للتتار واسترجاعها منهم وهي مؤرخة في عام 1260/659 . وهذه الكتابة منقوشة في الواجهة الشرقية للقلعة على البدنة (7 – 8). وتتألف من لوحة عليا تحتوي على سطرين، وتحتها شريط طويل مؤلف من سطرين أيضاً بخط نسخي، **(أنظر نص الكتابة رقم(4)، ص26)**.



صورة رقم (39): الكتابة رقم (4) على واجهة البدنة (7–8)

الكتابة الثالثة:

تشير إلى تجديد البرج (رقم 7) بتاريخ سنة 1274/673 . نقشت على واجهته الشرقية أسفل الرواشن، وهي عبارة عن سطر واحد بطول الواجهة(20م) **(أنظر نص الكتابة رقم (10)، ص88)**.



صورة رقم (40): الكتابة رقم (10) على الواجهة الشرقية للبرج رقم (7)

وهنالك أعمال أخرى *(SAUVAGET, 1930, P.227)* من عهد الظاهر زالت آثارها بسبب ما أصاب القلعة من تهديم فيما بعد، دلت عليها قطع مبعثرة من كتابات منقوشة على حجارة اعيد استخدامها في الترميمات اللاحقة دون نظام. نذكر منها كتابتين: الأولى **(الكتابة رقم 12)** [101]: بقي منها حجران فقط، الأول موجود في الواجهة الغربية للبرج **(رقم 8)** وتنص هذه الكتابة على ما يلي:

"... (الـ) سلطان الملك الظا(هر) ....
... عز الدين ايبك الـ (ـزراد) ...".

أما الكتابة الثانية **(الكتابة رقم 13)**[102] فمنقوشة على الجدار الغربي للبرج رقم (11) وتنص على ما يلي:

" حصون الـ ...
(بيـ) ـبرس النجمي الصالحي ...
بمباشرة الجنـ (ـاب) ..."

ذكر "سوفاجيه" أيضاً كتابة أخرى من عهد الظاهر، قال إنها موجودة على البدنة **(2 – 3)** وانها مشوهة بسبب حريق أصابها، وهي منقوشة ضمن دائرة ذات ستة اسطر، وفي أعلاها دائرة صغيرة الشكل *(المصدر السابق، P.228, Fig.24)*. إلا أنه في الواقع لا يوجد لهذه الكتابة أي أثر. ولا يمكننا القول بأنها فقدت لأن المكان لم يتغير، ولعل "سوفاجيه" قصد البدنة **(3 – 4)**، حيث وضع في مخططه هنا إشارة إلى وجود كتابة من عهد الظاهر، وعند تفحص هذا المكان الأخير، نلاحظ آثاراً للوحة مربعة مشوهة كلياً.

نلاحظ من دراسة الكتابات التي تخلد أعمال الظاهر بيبرس المنقوشة على جدران القلعة ما يلي:

أ. كتبت كلها بخط الثلث وبأحرف كبيرة بارزة فوق حجر مصقول، قد يكون من مداميك القلعة القديمة البارزة النحت، جرى نحتها وتسويتها.
ب. إضافة إلى القاب السلطان التي تغطي القسم الأكبر من النص، تحوي الكتابة خبر عمارة القلعة وتجديدها بشكل عام، أو تجديد البرج الحامل للكتابة.
ج. تمت الأعمال بإشراف نائب القلعة، وكان النائب في عام 1260/659 هو الأمير عز الدين أيبك الظاهري المعروف بالزراد. ذكرت اسمه الكتابتان **(رقم 8: أنظر نصها ص137، و رقم 9: أنظر نصها ص96)**.

وكان يدعى النائب في عام 1274/673 الأمير شجاع الدين اسماعيل ابن عمر الطوري *(ريحاوي، 1973، ص94)*. أما أعمال عام 1277/676 فتذكرها **(الكتابة رقم 11)**[103] ولكنها لا تذكر اسم متولي القلعة ونائبها، وتنص هذه الكتابة على ما يلي:

---

101 Sauvaget, 1932, P.227.

102 المصدر السابق، P. 227
و Repertiore, 1954, op. cit, T.XII, N°4746, P.231

103 Repertiore, 1953, op. cit, T.XII, N°4477, P.226

"بسم الله الرحمن الرحيم امر بتجديد هذا البرج المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر المظفر الغازي المنصور ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين فاتح الامصار ومبيد الفرنج والتتار وارث الملك سلطان العرب والترك خلد الله سلطانه في سنة ست وسبعين وستمائة ".

1- أعمال السلطان قلاوون: (678 – 689هـ) (1279 – 1290م):

استمرت أعمال الترميم في القلعة بعد الظاهر بيبرس، فأنجزت في عهد قلاوون أعمال أخرى أرختها كتابات منقوشة في أماكن متعددة من القلعة، ومن الغريب أن هذه الأعمال لم تذكرها المصادر التاريخية، خلافاً لأعمال غيره من السلاطين. لذلك سيكون الإعتماد في دراسة أعماله على هذه الكتابات التي نشر بعضها "سوبرنهايم" وبعضها الآخر "سوفاجيه". كما تم العثور على كتابة لم تنشر. وسيتم الحديث فيما يلي عن أعمال قلاوون على ضوء هذه النصوص المختلفة:

1- أول هذه الأعمال تمت سنة 1281/680 أرختها كتابة نقشت على الروشن الأوسط في الواجهة الجنوبية للبرج رقم (4) **(شكل رقم 3 ب)**، وتتألف من ثلاثة أسطر تشير إلى تجديد البرج المذكور **(كتابة رقم 14، أنظر نصها ص81)**.
وإذا تفحصنا هذا البرج فإننا لا نجد آثار التجديد بادية عليه. حتى أن الروشن حامل الكتابة لا يختلف في شكله وهندسته عن الرواشن الأخرى الأيوبية إلا في حجارته الملساء التي ربما نحتت عند نقش الكتابة عليها. فلعل ترميماً بسيطاً أجري على الأقسام العليا، الستائر أو الشرافات فقط.

2- عملية بناء ثانية تمت في عهد السلطان قلاوون وشملت إنشاء الممر الدفاعي المسقوف الذي يحيط بالأسوار من الداخل وقد اصطلح على تسميته في ذلك الوقت "الأقباء المستديرة" كما ورد في **(الكتابة رقم 15)** التي وجدت منقوشة على عضادة مربعة تقع خلف السور الغربي قريباً من البرج (رقم 12). والكتابة المذكورة مؤرخة في عام 1285/684، وتتألف من ثمانية أسطر **(أنظر نص الكتابة رقم 15 ص100)**.

3- هنالك كتابة أخرى **(الكتابة رقم 16)** تشير إلى ترميم الممر الدفاعي أيضاً (الأقباء المستديرة) الممتد بين باب النصر وباب الفرج بتاريخ سنة 1290/689 . وهذه الكتابة مفقودة وكانت مؤلفة من سبعة أسطر منقوشة كما يقول سوبرنهايم على ساكف باب البرج رقم (9). وقد شاهدها ونقل نصها سنة 1900، ولما عاد سنة 1914 لم يجدها ***(SOBERNHEIM, 1922, P.17)***
وقد دعم قوله بصورة فوتوغرافية ***(المصدر السابق، P.25)***. ويعني ذلك أن الأقباء المستديرة تمتد بين بابين من أبواب المدينة: الأول عند الزاوية الجنوبية الغربية للقلعة، والآخر عند الزاوية الشمالية الشرقية. ويبدو أن "سوبرنهايم" قد ظن أن المقصود بباب النصر باب القلعة الشرقي. ولكن باب القلعة هذا لم يكن يسمى وقتئذ

بهذا الإسم حيث ظهرت هذه التسمية أول ما ظهرت سنة 1391/794 أي بعد عصر قلاوون، ولم يستمر هذا الإسم طويلاً. وذلك استناداً إلى نص منقوش على هذا الباب **(الكتابة رقم 12، أنظر نصها في هذا الفصل ص139).**

بقي الإشارة إلى هذه الأقسام المقصودة في النص. هناك قطاعان من القلعة يمتدان بين باب النصر وباب الفرج، ولكن يختلفان بحسب اتجاه السير: الأول يشمل الجبهتين الجنوبية والشرقية، والثاني يشمل الجبهتين الغربية والشمالية.
ولكن موقع هذه الكتابة على أحد أبراج الجبهة الشمالية (البرج رقم 9) وفي مكان قريب من أقباء الممر الدفاعي الممتد خلف الأبراج، خلافاً لما جرت عليه العادة في نقش الكتابات على الواجهات الرئيسية الخارجية، يدعو الى الترجيح بأن تكون المنطقة المقصودة في النص هي الممتدة على طول الجبهتين الشمالية والغربية، ويؤيد ذلك **(الكتابة رقم 15)** والمتقدم ذكرها والتي تنص أيضاً على بناء الأقباء. ومكانها في الجبهة الغربية، ويدعم ذلك أيضاً (كما نصت الكتابة نفسها) أن الأقباء الغربية شيدت سنة684 **(أنظر نص الكتابة رقم 15 ص101).** بينما نقشت **(الكتابة رقم 16)**[104] سنة 689، وهذا يعني اكتمال بناء الممرين الدفاعيين الغربي والشمالي، وتنص على ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم امر بعمارة هذه الاقباء المباركة المستديرة من باب النصر الى باب
الفرج على الابراج والبدنات في ايام مولانا السلطان العالم العادل الغازي المجاهد.
في سبيل الله تعالى الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي وكان المجتهد في
عمارة ذلك واحداثه والمباشر له العبد الفقير الى الله تعالى
علم الدين سنجر المعروف بأرجواش المنصوري راجيا عند الله
من الثواب وحسن المآب رحمه الله ورحم من ترحم عليه ان هان عليه
وكان الفراغ من ذلك في:
المحرم سنة تسع وثمانين وستمائة".

لقد ناقش "سوفاجيه" التفسير المزدوج لعبارة (من باب النصر إلى باب الفرج) واقترح اتجاهاً معاكساً، أي أن الأقباء المقصودة حسب قوله هي الممتدة على الجبهتين الجنوبية والشرقية.

ودعم سوفاجيه رأيه بتلك الكتابة التي ربما بناء الأقباء من عهد قلاوون، بالرغم من أنها لا تذكر كلمة الأقباء. والناحية الثانية التشابه الذي لاحظه بين أقباء الممر الدفاعي الجنوبي والممر الشرقي ***(SAUVAGET, 1930, P.230)*** . ولكن يبقى هذا الرأي ضعيفاً أمام وجود نصين أحدهما في الجهة الغربية **(الكتابة رقم 15)**، والآخر في الجهة الشمالية **(الكتابة رقم 16).**

---

[104] Repertiore, 1955, op. cit, T.XII.N°4796, P.85
و Sobernheim, 1922, op. cit, N°11

4- ويوجد كتابة رابعة تؤرخ اعمال السلطان قلاوون منقوشة على سقف الممر الدفاعي الشرقي المجاور للقاعة رقم (3). نشر "سوفاجيه" بعض جملها (**الكتابة رقم 18**)[105] ، ولكنه لم يؤكد التاريخ، وإنما قدّر بالنظر لظهور إسم الأشرف خليل بن قلاوون في النص، أن يكون التاريخ بين 11 شعبان 687 (10 أيلول 1288) وهو التاريخ الذي أعلن فيه الأشرف ولياً للعهد، وبين تاريخ نهاية حكم قلاوون وهو 6 ذي القعدة من عام 689 (10 تشرين الثاني 1290). واعتقد "سوفاجيه" بأن هذه الكتابة تؤرخ ترميم الأقباء بسبب المكان الذي تحتله *(المصدر السابق، P.231)*، دون أن يكون في نصها ما يشير إلى ذلك. وتنص الكتابة رقم (18)[106] على ما يلي:

" بسم (الله الرحمن الرحيم) .... المكان .... المبارك .... في ايام مولانا السلطان
الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي خلد الله سلطانه ببقاء ولده ولي عهد السلطان
(الملك الاشرف) صلاح الدنيا والدين خليل اعز الله انصاره
....
.... وانزل اللهم الـ .... صواء ....
الـ (ـعبد) الفقير الى رحمة ربه علـ (ـم الدين سنجر) ....".

5- الكتابة الخامسة التي تؤرخ اعمال السلطان قلاوون هي (**الكتابة رقم 17**)[107] موجودة في الطابق العلوي للممر الدفاعي الجنوبي بالقرب من البرج رقم (1). وهي منقوشة فوق قنطرة سقف هذا الممر، وتتألف من سطرين. فقدت أجزاء منها وتعذر بذلك معرفة الأعمال وتاريخها. وتنص هذه الكتابة على ما يلي:

(....) المرابط المؤيد المظفر الغازي المنصور خلد الله بقاءه (....)
(....) علاء الدين بتولي العبد الفقير الى ربه علم الدين سنجر الجمقدار المعروف بارجواش

وينسب "سوفاجيه" إلى السلطان قلاوون أعمالاً أجريت في القصر (**البناء رقم 17 من المخطط العام**)، بتاريخ شوال 690 (أيلول 1291) استناداً إلى نص تاريخي يشير إلى بناء القبة الزرقاء والطارمة والدور السلطانية *(المصدر السابق، P.232)*.

والصحيح أن قلاوون توفي قبل هذا التاريخ، وأن الأعمال التي أشار إليها جرت في عهد إبنه الأشرف، كما سيأتي معنا. كما أنه ينسب أيضاً بناء قناطر واجهة القصر (المبنى رقم 17) إلى قلاوون على سبيل الترجيح، وكذلك بقايا (**الكتابة رقم 4، أنظر نصها ص26**) الموجودة في القاعة (أ) من هذا القصر. ويقول بأن حروف هذه الكتابة (وقد زالت اليوم) كانت بارتفاع مقداره (60سم)، وهي ذات لون أزرق على طبقة كلسية مزخرفة برسوم نباتية سوداء وحمراء وذهبية*(المصدر السابق، 233 - P.232)*.

---

105 Sauvaget, 1932, P.230

106 Repertiore, 1956, op. cit, T.XIII, N°4927, P.86
و Sobernheim, 1922, op. cit, N°13, P.7

107 Repertiore, 1955, op. cit, T.XIII, N°4928, P.87
و Sobernheim, 1922, op. cit, N°13, P22

2- أعمال السلطان الأشرف خليل بن قلاوون: (1290/689 - 1293/693):

إن أعمال الأشرف على عكس ما رأينا في أعمال السلطان قلاوون، ذكرتها المصادر التاريخية دون الكتابات التذكارية، فلا يوجد أي نص من النصوص المنقوشة في القلعة تؤرخ أعمال الأشرف خليل. ولعل السبب يرجع إلى زوال المنشآت التي شيدت في عهده. وهي منشآت هامة كما وصفتها المصادر التاريخية.

فقد روى ابن كثير في أخبار سنة 1291/690 ما يلي: " وفي هذا العام في شوال شرع في عمارة قلعة دمشق وبناء الدور السلطانية والطارمة والقبة الزرقاء، حسب ما رسم به السلطان الأشرف خليل لنائبه الشجاعي ***(ابن كثير، ج13، 1932، ص323)***".

وأضاف بعد ذلك في أخبار سنة 691 ما يلي: " كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء، وجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع ***(المصدر السابق، ص327)***".

وقد أضاف المقريزي على ذلك المعلومات التالية: " وبالغ في تحسينها فكانت جملة ما عمل في سقوفها أربعة آلاف مثقال ذهب ***(المقريزي، ج1، 1934، ص774)***".

كما يروي الذهبي الخبر بشيء من التفصيل، فيقول: " ولي نيابة دمشق علم الدين سنجر الشجاعي فعمر دار السلطنة بقلعة دمشق والطارمة وبالغ في تحسين ذلك وزخرفته وأكمل الجميع في سبعة أشهر، فكان هو بنفسه يقف على العمارة ويستحث الصناع، فكان ناس يحفرون في الأساس والنجارون قد قدموا السقوف المزخرفة وشرعوا فيها". ويقول أيضاً في كتابه "العبر" في سنة 691: " وفي جمادي الأولى قدم السلطان الملك الأشرف وقد فرغ الشجاعي من بناء الطارمة والرواق وقاعة الذهب والقبة الزرقاء بقلعة دمشق، وفرغ ذلك في سبعة أشهر"[108].

مع ان هذه الأخبار مهمة جداً في تاريخ العمارة والإنشاء في قلعة دمشق، إلا أنها تقدم وصفاً كافياً عنها، كما أنها لا تحدد مكانها من القلعة بالضبط. إلا أننا سنحاول البحث عن مزيد من الحقائق عن هذه المنشآت بتتبع أخبارها في العهود اللاحقة.

فمن حيث المكان الذي أقيمت عليه هذه المنشآت، فيوجد من الأدلة ما يدعو للإعتقاد أنها كانت تحتل الجانب الغربي من القلعة، وذلك للأسباب التالية:

1- قرب هذه المنطقة من باب السر المخصص لدخول السلطان.

2- وجود الطارمة في هذا الجانب، فقد ذكر أن الطارمة التي شيدها الظاهر بيبرس كانت على برج الزاوية الشمالية الغربية. وأن بقية المنشآت يجب أن تكون إلى جانبها أو بالقرب منها، استناداً إلى قول ابن كثير المتقدم ذكره: " الطارمة وما عندها من الدور السلطانية والقبة الزرقاء ***(ابن كثير، 1932، ج13، ص324)***".

3- إن القاعة (أ) من القصر (المبنى رقم 17) والتي وجد آثار ملونة وزخارف فيها ونسبها "سوفاجيه" إلى قلاوون، على الأرجح أنها تنسب إلى الأشرف خليل، تقع أيضاً في الجهة الجنوبية من هذا القطاع الغربي.

---

[108] تم نقل روايتي الذهبي عن (ابن طولون ، 1931، ص5 – 6)، الرواية الأولى يرجعها إلى "كتابه مختصر تاريخ الإسلام"، والثانية لكتاب "العبر".

4- تحدث سوفاجيه عن آثار قصر وحمام من العهد المملوكي، عثر عليها عام 1924 في الجهة الغربية. قال بأنها على الأرجح أن تكون لها علاقة بمنشآت الأشرف خليل. ووصف تلك المنشآت بأنها تتألف من عضائد مربعة ضلعها (2.45م). وتبعد عن بعضها مسافة (15م)، ومن قطعة بلاط ملون من نوع الفسيفساء الرخامية (المشقف)، ومن بركة وبقايا حمام *(SAUVAGET, 1930, P.220)*.

5- تحدث الرحالة الفرنسي "دارفيو" خلال زيارته لقلعة دمشق سنة 1660 عن بعض المباني داخل القلعة، من بينها قاعة المجلس الكبرى التي قال بأنها تقع في صدر باحة القلعة، فعلى اعتبار أنه دخل إلى القلعة من الباب الشرقي فإن هذه القاعة يجب أن تقع في الجهة الغربية، وهو المكان الذي افترضناه لمباني الأشرف. وقد وصف هذه القاعة فقال أنها مدهونة بالذهب والأزرق مع بعض الآيات القرآنية، وتسمى القاعة بالديوان *(D'ARVIEUX,1945, P.449)*. وقد تكون بهذا الوصف قاعة الذهب التي شيدها الأشرف خليل، وقد تكون ما عرف بديوان الظاهر، ذات القبة التي هدمها زلزال عام 1759. جاء في خبر هذا الزلزال ما يلي: " وتهدمت قبة في أعلى قلعة دمشق تسمى بديوان الظاهر[109]".

هذه الأخبار تشكل لدينا افتراضات بأن القبة الزرقاء هي قبة الطارمة، وقد سميت فيما بعد بديوان الظاهر، ذلك لأنها تقع في أعلى القلعة والطارمة كذلك، ونسبت إلى الظاهر لأنه هو الذي شيدها بالبداية. ولا يعقل أن تكون قد زالت من الوجود في عهد الأشرف خليل الذي جاء إلى الحكم بعد الظاهر بثلاثة عشر عاماً. والمرجح أن أعمال الأشرف كانت أعمالاً تكميلية في الطارمة هدفت لإدخال تحسينات عليها، بالإضافة إلى المباني السلطانية الأخرى التابعة لها.

وهنالك في مخطوطة ابن قاضي شهبة تفسير لتسمية القبة بالقبة الزرقاء، يخالف رأي "سوفاجيه". فقد جاء في خبر ترميم هذه القبة في عهد السلطان سيف الدين برقوق أنها كانت مكسوة بألواح القاشاني ذات اللون الأزرق *(ابن قاضي شهبة، 1975، ص236)*. والكسوة هنا يجب أن تكون خارجية لأن القاشاني استبدل بالرصاص عند تجديد القبة، وذلك لأن صفائح الرصاص لا تستخدم إلا للتصفيح الخارجي. كما كان الحال بالنسبة لسقوف وقباب الجامع الأموي قديماً *(بهنسي، 1983، ص42)*.

5- أعمال السلطان الناصر محمد بن قلاوون: (1293/693 - 1294/694) (1298/698 - 1341/741):

حكم الناصر ثلاث مرات كان مجموعها حوالي 54 عاماً، وهي أطول مدة تولاها سلطان مملوكي *(ابن تغري بردي، ج8، 1992، ص41-70)*. لم يتحدث أحد من المؤرخين عن أعمال الناصر في القلعة. إلا أن هناك كتابة عند باب القلعة الشرقي تؤرخ الأعمال التي قام بها، منقوشة على الواجهة الخارجية للبدنة الواقعة بين البرجين (6 و7) وتتألف من أربعة أسطر موزعة كما يلي: سطران بين الروشنين السفليين[110]، وسطر ثالث على الروشن الأيمن، ورابع على الروشن الأيسر (**الكتابة رقم 19، أنظر نصها ص89**).

[109] نص لمؤلف مجهول في وصف الزلزال، نشره محمد أحمد دهمان في مجلة المشرق لعام 1948، ص37.

[110] تحتوي هذه البدنة دون غيرها من البدنات على ثلاثة رواشن (شرفات دفاعية لصب الزيوت على الأعداء). أحدهما أعلى البدنة واثنان تحته، وذلك لحماية مدخل القلعة.

إن آثار الترميم في هذه الفترة من العهد المملوكي بادية بوضوح على هذه البدنة، فالأجزاء الأيوبية الأصيلة نشاهدها حتى مستوى الروشنين السفليين حاملي الكتابة المذكورة. وأما ما تبقى من البدنة وحتى أعلاها فإنه يختلف عن القسم السفلي الأيوبي من حيث نحت الحجارة ونوع الرواشن وهندستها[111]. ونلاحظ بإن تجديد هذا القسم من البدنة قد أدى إلى زيادة ارتفاعها فأصبحت أكثر ارتفاعاً من باقي بدنات القلعة، فهي تكاد تساوي ارتفاع الأبراج المجاورة لها.

والمرجح أن عملية التجديد هذه كانت نتيجة أضرار أصابت القلعة من قبل التتار في غزوة قازان التي حدثت سنة 1299/699 *(ابن الصقاعي، 1974، ص91)*. ونرى من خلال القراءة عن تاريخ القلعة في الفترة المملوكية أن التتار في هذه المرة لم يتمكنوا من احتلال القلعة، وإنما حاولوا ضربها من الجنوب والشرق، ونصبوا المجانيق في صحن الجامع الأموي لضرب القلعة منه *(ابن كثير، ج14، 1932، ص6)*.

وأخيراً من الملاحظ بأن نص **(الكتابة رقم 19)** يشير إلى تجديد البدنات، لا بدنة واحدة، فما هي البدنات الأخرى التي تم تجديدها؟

قد تكون صيغة الجمع مقصود بها المبالغة، وقد يكون المقصود منها البدنة (6 – 7) والبدنة الإضافية المقامة أمامها، وهي محدثة، يبدو من طراز عمارتها وطريقة نحت حجارتها وشكل روشنها بأنها من أواخر العهد المملوكي، وكذلك فأن "سوفاجيه" ***(SAUVAGET, 1930, P.235)*** و "كينغ" ***(KING, Vol. XCIV, 1951, P.78)*** يرجعونها أيضاً إلى عهد الناصر.

وهذه البدنة الإضافية أقيمت امام البدنة الأصيلة، عند نهاية بروز البرجين (7 و 8)، وهي عبارة عن جدار أقل ارتفاعاً من البدنة الأولى، تحتوي على باب مستطيل يعلوه روشن. وفي أعلى الجدار توجد ثلاث مرامي للنبال.

وقد تكون الكتابة رقم (3) الغير واضحة أو المشوهة والمنقوشة على البدنة (7 – 8) هي من عصر الناصر أيضاً، لأنه يمكننا أن نلاحظ فيها كلمة (عز الدين)، أي الأمير عز الدين أيبك الوارد اسمه في الكتابة السابقة **(أنظر نص الكتابة رقم 3، ص26)**.

6- أعمال السلطان الظاهر سيف الدين برقوق: (1382/784 – 1398/801):

تحدث ابن قاضي شهبة في كتابه ذيل تاريخ دمشق في حوادث عام 1385/787 عن أعمال ترميم واسعة قام بها نائب القلعة الأمير شهاب الدين بن الحمصي فقال: " وكان قد أصلح الطارمة وأبراج القلعة وبيّضها ظاهراً وباطناً. فإنه منذ ولي نيابتها في سنة خمس وثمانين وإلى هذا التاريخ مجتهد في الإصلاح والتجديد والترميم، وفرغت القبة في الشهر الآتي، وكانت زرقاء قيشاني، فلما نقضها كبّرها وجعل مكانه رصاصاً ***(ابن قاضي شهبة، 1975، ص236)*** ".

لقد ورد من خلال الحديث عن أعمال السلطان الأشرف خليل بن قلاوون خبر بناء القبة الزرقاء والتي تعتبر في عداد الإنشاءات التي تمت سنة 1291/691 بأمر من السلطان الأشرف خليل *(ابن كثير، ج13، 1932، ص323)*. كما يجب الإشارة إلى أهمية النص المتقدم لأنه يساعد على تفسير سبب تسمية هذه القبة بالزرقاء. ويجب الإشارة أيضاً إلى أهميته المعمارية لأنه يدل على استخدام ألواح القاشاني في كسوة المباني منذ عهد مبكر. فمن

---

[111] وصف البدنة (6 – 7) تم ذكره في الفصل السابق عند الحديث عن هندسة القلعة وعمارتها.

المعروف أن القاشاني الشائع الإستعمال في المباني العثمانية، كان نادر الإستعمال في العهد المملوكي[112].

7- أعمال السلطان المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي: (1360/742 – 1382/764):

روى ابن طولون نقلاً عن الأسدي (ابن قاضي شهبة) في حوادث سنة 1421/824 خبر الإنتهاء من بناء مئذنة في جامع القلعة كانت قد ابتدء ببنائها سنة 762 في عهد السلطان المنصور صلاح الدين. يقول ابن طولون: " قال الأسدي في تاريخه سنة أربع وعشرين وثمانمائة في جمادى الآخرة فرغت المئذنة بجامع القلعة، وكان قد ألزم بها القاضي شمس الدين الأزرعي بسبب أنه مدرس القلعة، فذكر بأن هذه المئذنة مُحدثة، أحدثها "الأمير الفارقاني"[113] نائب القلعة أيام الملك المنصور بن الملك المحفوظ[114] في سنة اثنين وستين وسبعمائة. فلم يسمع منه وأوذي واهين فلما كان في هذا الوقت كان قد بقي في رأسها شيء يسير وبياضها، فطلبه نائب القلعة وأهانه وربما قيل أنه ضربه فلا قوة إلا بالله ***(ابن طولون، 1931، ص7)*** ".

8- أعمال نوروز الحافظي: (1405/808 – 1414/817):

يلاحظ بأن ولاية الأمير نوروز على دمشق كانت بعد كارثة تيمورلنك بسنوات قليلة، مما استوجب قيامه بأعمال ترميم هامة في القلعة. كما من الملاحظ بأن نصوص الكتابات التاريخية المنقوشة في عهده على القلعة لا تذكر اسم السلطان، وهذا يفسره عصيانه على السلطنة أكثر أيام حكمه[115] كما ذكر في الفصل الأول، لذلك فإن أعمال الترميم هنا تنسب إلى نائب السلطنة وليس إلى السلطان المعاصر له، وذلك بحسب النصوص التي تؤرخ أعمال الترميم.

وقد تحدث ابن حجر العسقلاني عن أعمال نوروز فقال في أخبار سنة 1407/810: " كملت عمارة قلعة دمشق وكان ابتداؤها في العام الماضي، وصرف على عمارتها مال كثير جداً [116]".

وأشار أيضاً ابن طولون إلى أعمال نوروز، فقال: " إن قلعة دمشق لما كملت عمارتها على يد نوروز حضر عنده شخص عجمي فقطع له آلة بطريق الهندسة بحيث يطلع الماء من النهر في دلوين يديرهما شخصان من نحاس فيجري الماء إلى الطارمة بالقلعة بغير علاج بهيمة ولا حامل ... الخ ***(ابن طولون، 1931، ص22)***".

ولم تدوم تلك الطارمة طويلاً فقد تهدمت في أواخر أيام نوروز عند محاصرته في القلعة من قبل السلطان المؤيد شيخ ***(ابن تغري بردى، ج14، 1952، ص20)***.

ونلاحظ بأن الكتابات التي تؤرخ أعمال الترميم تنحصر كلها في الجبهة الشمالية من القلعة، مما يعطينا فكرة على أن هذه الجبهة هي التي تضررت من قصف التتار أكثر من

---

[112] يوجد في دمشق بناء واحد من العهد المملوكي كسيت جدرانه بألواح القاشاني وهو (الجامع النوروزي) الذي يرجع تاريخ بنائه إلى عام 1421/825.

[113] يعني "زين الدين الفارقاني". أنظر لائحة نواب القلعة (الملحق رقم 1) .

[114] وردت هكذا: والمقصود بها المظفر حاجي.

[115] عين نوروز الحافظي بعد انتهاء ثورته على السلطان الناصر فرج ومقتل السلطان المذكور سنة 1412/815 كنائب للسلطنة واسع الصلاحية في بلاد الشام من غزة إلى الفرات، وتسلم قلعة دمشق أيضاً ***(ابن تغري بردى، ج13، 1952، ص200)***. وعصى في عام 816 على السلطان الجديد المؤيد شيخ، فقدم السلطان لمحاربته، واعتصم نوروز الحافظي بقلعة دمشق، فنزل السلطان بالميدان الأخضر ، ويقول في ذلك ابن تغري بردى: " واستمر الحصار خمسة وعشرين يوماً مع استمرار القتال ليلاً ونهاراً والرمي مستدام من القلعة بالمجانيق ومكاحل النفط ... ثم عقد الصلح ونزل نوروز الحافظي من القلعة فقبض عليه وسجن وقطع رأسه ***(المصدر السابق، ج14، ص19-21)***".

[116] نقلاً عن (كرد علي، 1969، ج2، ص190) .

غيرها. فالكتابة المنقوشة على باب القلعة الشمالي تتألف من سطر طوله 4م (**الكتابة رقم 22، أنظر نصها فـــي ص104**). ويتوسط السطر (رنك[117]) الأمير نوروز، ويتألف من ثلاثة حقول ضمن دائرة: الحقل الأعلى فيها يحتوي على معينين، والأوسط كأس كبير، وفي الحقل السفلي كأس صغير .



صورة رقم (41): الكتابة رقم (22) فوق المدخل الشمالي للقلعة

ويتضمن النص عبارة: " عمر هذه القلعة المنصورة " وهذا مخالف للواقع لأن نوروز رمم القلعة ولم يعمرها.

9- أعمال السلطان الظاهر خشقدم: (1460/865 – 1467/872):

هنالك كتابة تنسب إلى هذا السلطان إعادة بناء البرج رقـــم (2) الواقـــع فـــي الجهـــة الجنوبية من القلعة. وذلك في عام 1461/866.

ونص الكتابة عبارة عن سطر واحد (**الكتابة رقم 26، أنظر نصها في ص74**) منقوش على لوحة مستطيلة (800 × 60سم) يتوسطها عنصر زخرفي يتألف من مشربية في الأعلـــى وأخرى في الأسفل ذات نقوش تتألف من أوراق نباتية، وتقع اللوحة بين اثنين مـــن مرامـــي الطابق الأوسط على الواجهة الجنوبية للبرج.

وهذا البرج لا يزال بحالة جيدة رغم تهدم ستائره. وتبدو آثار التجديد الـــذي أشـــارت اليه الكتابة في أقسامه العلوية حيث تختلف حجارتها عن حجارة العهد الأيوبي البارزة النحت.

على الأرجح أن يكون هذا البرج قد تضرر أيام عدوان تيمورلنك ســـنة 1400/803 لأنه لم يتم العثور في أي من المصادر على خبر تهدمه في زمن لاحق لهذا العام.

وتوجد في أسفل اللوحة المتقدم ذكرها كتابة أخرى (**كتابة رقم 26**) منقوشة على لوحة مستديرة وتتألف من ستة أسطر، بقي منها نصفها، وقد أعيد بناؤها بشكل مقلوب أثناء عمليـــة ترميم لاحقة، وهي في الجانب الشرقي من هذه الواجهة. مما لا شك فيه أن هذه الكتابـــة لهـــا علاقة بعمارة البرج، لكن فقدان نصفها يجعلنا نجهل اسم السلطان وتاريخ البناء. ونلاحظ بأن "سوبرنهايم" أعطاها في دراسته لكتابات القلعة رقماً يلي رقم الكتابة السابقة المنسوبة للسلطان خشقدم، وهذا يعني أنه اعتبر تاريخها لاحقاً لعام 866. ولا نعلم على أي أساس فعل هذا.

وعلى الأرجح أن تكون هذه الكتابة أقدم من ذلك بدليل اسلوب الخط، وبدليل استعمالها مقلوبة في عملية ترميم لاحقة قد تكون حدثت في أيام خشقدم أي سنة 866. خاصة وأن النص يشير إلى عمارة البرج لا ترميمه أو تجديده.

[117] الرنك: كلمة فارسية يقصد بها الشعار، ومعناها في الأصل اللون ***(MAYER, 1933, P.97)*** .

وأخيراً فإن ابن طولون يشير إلى ترميم البرج (رقم 1) وهو برج الزاوية الجنوبية الغربية في عهد السلطان خشقدم أيضاً، وكان يعرف في ذلك الوقت بـ(برج القصب)، فقد سقط سنة 865 عند الرمي على نائب السلطنة "جانم" وهو شقيق الأشرف، ثم بني مرة أخرى ***(ابن طولون، 1931، ص6)***. وحادثة الرمي هذه تم ذكرها لدى الحديث عن دور القلعة الحربي، عندما ضربت من خلالها دار السعادة من القلعة ***(ابن طولون، 1964، ص59)***.

ولم يعثر أحد من الباحثين على أي كتابة تؤرخ عملية الترميم هذه على هذا البرج، بسبب ما كانت عليه حالته السيئة.

10- أعمال السلطان الناصر أبي السعادات محمد بن قايتباي: (1495/901 – 1498/904):

قام هذا السلطان بتجديد عمارة برج الزاوية الجنوبية الشرقية (البرج رقم 5) بعد سقوطه، وذلك بدليل الكتابة المنقوشة عليه (**الكتابة رقم 28، أنظر نصها في ص85**). وهي مؤلفة من سطر واحد طوله 5م تقريباً، منقوش على مدماك من الحجر المصقول يتوسط الواجهة الجنوبية. وبوسطه (رنك) على شكل دائرة يتجاوز قطرها عرض السطر، بحيث يؤلف الجزء الأوسط للرنك جزءاً من السطر نفسه. وفي الجزء الأسفل يوجد عبارة (عز نصره). اما في الجزء الأعلى فتوجد عبارة غير مقروءة.

هذا ولم تستطع الباحثة العثور في الأحداث التاريخية على خبر سقوط البرج. ولكن أعمال التجديد تبدو واضحة في واجهة البرج التي تحمل الكتابة، حيث استخدمت في أعمال التجديد حجارة متنوعة النحت، بعضها قديم بارز النحت، وبعضها مصقول.

كما أن أعمال الترميم والتجديد ظاهرة في واجهة البرج الأخرى (الشرقية) وفي واجهاته الداخلية، وتؤرخها كتابة من عهد لاحق كما سنرى.

11- أعمال السلطان قانصوه الغوري: (1500/906 – 1516/922):

عثر في القلعة على ثلاث كتابات تؤرخ أعمال الغوري من خلال ثلاثة أبراج. نقشت الأولى على الواجهة الشمالية (للبرج رقم 11) الواقع غربي باب القلعة الشمالي. وتشير إلى تجديد هذا البرج في عام 1508/914 ويتوزع النص على ثلاث لوحات (**الكتابة رقم 29، أنظر نصها في ص107**). وهي من الأعلى إلى الأسفل مرتبة كالآتي:

اللوحة الأولى: مستطيلة محاطة بإطار زخرفي على شكل ضفيرة تتضمن البسملة وآية قرآنية.



صورة رقم (42): الكتابة رقم (29) الموجوده على الواجهة الشمالية للبرج رقم (11)

اللوحة الثانية: شريط من سطر واحد ضمن إطار مزخرف بالمشربيات المطعمة بالمونة الملونة، يتوسطها رنك الغوري كجزء من الكتابة، وهو مؤلف من ثلاثة أسطر صغيرة ضمن دائرة مرتبة من الأعلى إلى الأسفل كما يلي:

1- قانصوه 2- الملك الأشرف 3- عز نصره.

اللوحة الثالثة: سطر مكتوب ضمن إطار من الزخارف على شكل ضفيرة أيضاً تحتوي اسم المعمار "أحمد بن العطار" الموجود اسمه في كل أعمال الغوري. وهذا البرج كما يبدو من هندسته وحجمه الصغير ونوع حجارته، مبني كلياً في العهد المملوكي، فهو لا يشبه في شيء أي أحداً من الأبراج الأيوبية، ولكن عبارة "تجديده بعد انهدامه" الواردة في النص المنقوش عليه تعني أنه كان موجوداً قبل ذلك. فضلاً عن أن علامات التجديد بادية على الحجارة المعاد استعمالها فيه، وبعضها من النوع البارز النحت. كذلك فإن الرنك الموجود في أسفل الكتابة، هو تماماً كالرنك الموجود في الكتابة الموجودة فوق الباب الشمالي للقلعة والتي تقدم ذكرها في أعمال نوروز الحافظي.

وتناولت أعمال الغوري أيضاً تجديد **البرج (رقم 8)** بحسب ما تنص **(الكتابة رقم 30)**[118] المنقوشة على واجهته الشرقية. ونص هذه الكتابة يوجد بين الروشنين الأوسطين، ويتألف من أربعة أسطر هي:

"بسم الله الرحمن الرحيم امر بتجديد هذا البرج المبارك لهدمه مولانا السلطان الملك الاشرف قانصوة الغوري خادم الحرمين الشريفين مهزم الجيشين عز نصره بتاريخ سنة خمس عشرة وتسعمائة
عمل الواثق بربه العزيز احمد بن العطار".

وإذا تفحصنا هذا البرج يمكننا تمييز الأقسام المجددة بسهولة، وهي تنحصر في الزاوية الشمالية العليا لهذه الواجهة التي تحمل الكتابة، وتشتمل على الروشن وثلاث مداميك تحته. وإن الروشن المجدد (تم وصفه في الفصل الثاني) يختلف اختلافاً واضحاً عن الرواشن الأصيلة. ونلاحظ التجديد أيضاً في الواجهة الشمالية ، وخاصة في الجانب الشرقي منها. وقد روى محمد مصطفى عن ابن طولون خبراً عن حال هذا البرج قبل ترميمه، فقال: " جمع طومان باي نائب القلعة المعمارية وحضر القضاة الأربعة فرأوه قد قرب سقوطه ***(مصطفى، ج1، 1962، ص318)*** ".

وينسب "سوفاجيه" للغوري أيضاً بعض الأعمال الزخرفية عند باب القلعة الشرقي، منها آثار كتابة بلون أحمر على أرضية صفراء مكتوبة بخط نسخي ذي أحرف كبيرة على جدار القاعة التي تلي الباب، كما اعتمد "سوفاجيه" في نسبتها للغوري على وجود (رنك) نسبه للغوري (قرص أحمر محاط بدائرة سوداء مقطعة إلى فصوص). ومنها الزخارف النباتية الملونة المرسومة على مقرنصات الباب نفسه ***(SAUVAGET, 1930, P.239)***.

12- أعمال غير مؤرخة:

وأخيراً فهنالك نصان يؤرخ كل منهما عملية من عمليات الترميم والتجديد التي تمت في العهد المملوكي، لا يمكن تحديد تاريخهما بسبب ما أصابهما من التشويه والنقص، وهما:
- **النص الأول (كتابة رقم 33، أنظر نصها في ص71):** وُجد منقوشاً على البدنة (1 - 2)، ويبدو مما بقي من حروفه وكلماته أنه كان مؤلفاً من خمسة أسطر تبدأ بالبسملة، مكتوب بخط نسخي، والذي يمكن قراءته من كلماته اسم "عز الدين"، فإن كان هو عز الدين الزراد[119]

[118] Sobernheim, 1922, op. cit, N°24.

[119] كان نائباً لقلعة دمشق بدءاً من عام 659 وذكر اسمه في الكتابتين 8 و 9.

فمعنى ذلك أن تاريخ النص يرجع إلى عهد الظاهر بيبرس. وإن كان عز الدين أيبك الجمالي فالنص من عهد الناصر محمد بن قلاوون، لأن الجمالي هذا كان نائبا للقلعة بين عامي 712 و718، وذكر اسمه في (**الكتابة رقم 19، أنظر نصها في ص89**).

وعلى الأرجح أن يكون النص من عهد هذا الأخير، لأنه تقرأ مع شيء من عدم الوضوح كلمة "المنصور"، لأن إسم الناصر يأتي في (**الكتابة رقم 19**) التي تؤرخ قيامه بترميم بدنات القلعة سنة 713 كالتالي: " الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون".

- **النص الثاني**: هنالك ثلاث قطع من حجارته معاد استعمالها كحجارة بناء مبعثرة ومقلوبة في الجدار الغربي من **البرج رقم (2)**، وتحتوي عبارة "مولانا المقر الأشرف".

من الجائز بأن هذا النص كان يؤرخ لعملية ترميم سابقة لعام 866، وهي السنة التي رمم فيها هذا البرج في عهد السلطان خشقدم، كما هو في (**الكتابة رقم 34**)[120] والتي تنص على ما يلي:

"... مولانا المقر الاشـ(ـرف) ... (اعز الله) انصاره وكان ...".

ولا شك أن هذه الحجارة كانت في ذلك الوقت متساقطة من البرج وأعيد استخدامها بنفس الفترة. كما أن عبارة "المقر الأشرف" تجعل تاريخ النص يرجع إلى ما بعد عام 781 وهو التاريخ الذي فيه أول استخدام لتلك العبارة والمذكور في المرسوم المنقوش على باب القلعة الشرقي (**الكتابة رقم 20، أنظر نصها ص91**).

المبحث الثاني:

أعمال الهدم والبناء في العهد العثماني:

لا يوجد في أبنية القلعة أي نص يؤرخ الأعمال التي جرت في العهد العثماني، لذا سيتم الإعتماد على المصادر التاريخية لنستخلص منها أخبار الهدم والبناء. علماً بأن الباحثة لم تجد أعمالاً ذات شأن تدل على اهتمام العثمانيين بقلعة دمشق. وكل ما استطاعت العثور عليه من أخبار كانت ذات علاقة بترميم أماكن تهدمت، إما من جراء زلزال أو نتيجة أعمال حربية. وإذا تفقدنا القلعة وتجولنا في أنحائها، نجد آثاراً ضئيلة لتلك الأعمال التي يكشف لنا عنها الأسلوب غير المتقن للبناء والأحجار صغيرة الحجم. وفيما يلي أهم تلك الأعمال:

- نقل ابن طولون خبراً غامضاً مفاده أن السلطان سليم الأول عزم بعد دخول دمشق أن يهدم ما حول القلعة، فضمن ما حول القلعة بماية وخمسين ألف شريفي. وقال الخنكار (السلطان): "انا جيت أعمر لا أخرب *(ابن طولون، 1964، ص288)*".

ونفهم من هذا الخبر بأن المحاولة لم تتم. ولا شك أن غرض المشروع هو عزل القلعة عن المدينة وزيادة حصانتها، فقد رأينا خلال غزوات التتار كيف كان المحاصرون يستخدمون المباني القريبة من أجل ضربها، وكذلك عمد بعض نواب القلعة إلى هدم بعض المباني المحيطة بها.

[120] Sobernheim, 1922, op. cit, N°25

- روى البديري الحلاق في حوادث سنة 1754/1166 نصاً حول انهدام برج بـاب القلعـة، فقال: " وقع برج باب القلعة وأخذ البدن كله من بابها، وهكذا إلى آخر البرج من جهة القبلـة، ولم يقتل سوى رجل من القلعة *(البديري الحلاق، 1959، ص172)*".

ونلاحظ غموضاً في النص لأنه لا يوضح أي باب من أبواب القلعة هـو المقـصود. وربما كان بابها الشرقي المتصل بالمدينة، ذلك لأن هذا الباب هو أشهر أبوابهـا، وأكثرهـا استعمالاً، وقد اعتاد المؤرخون أن يطلقوا عليه اسم "باب القلعة" دون تمييز لـه عـن بقيـة الأبواب. ومع ذلك فلا يمكننا أن نحدد على وجه التأكيد الأقسام المهدومة، فبرج الباب الشرقي هو البرج رقم (7). أما البدنة المتصلة به من جهة القبلة فيمكن أن تكون الجـدار الخـارجي الواصل بين البرجين (6 و 7). وفعلاً يمكن ملاحظة آثار الترميم على هذا الجدار واضـحة، فقد جدد القسم العلوي بشكل يختلف كل الإختلاف عن الفن المعماري للقسم السفلي الذي سبق وذكرنا أنه يرجع إلى العهد المملوكي المتأخر. أما البرج رقم (7) فلا تبدو عليه آثار الترميم، ولكن الستائر والرواشن فيه زالت ولم يبقى منها سوى الحوامل البارزة فقط.

- وخلال الزلزال الذي حدث في دمشق سنة 1759/1173 وتهدم بسببه كثير مـن المـآذن والقباب والمباني العامة، تأثرت منه مباني القلعة وتهدم بعضها. فقد ورد في وصف الزلـزال ما يلي: " خربت فيه أعلا قلعة دمشق تسمى بديوان الظاهر، ووقع منها البرج القبلي والسور إلى الخندق، ثم عمرت القلعة بأموال صرفت من كيس الدولة العثمانية[121] ".

وقبة ديوان الظاهر الوارد ذكرها في النص السابق قد تكون هي الطارمة التي بناهـا الظاهر فوق برج الزاوية الشمالية الغربية (البرج رقم 12). سبق ووضحت عند الحديث عن أعمال الظاهر بيبرس في ترميم القلعة. والطابق العلوي منه متهدم حالياً. وتبدو آثار التـرميم التي يمكن أن نعتبرها من العهد العثماني في جداريه الشمالي والشرقي. ولكن عبارة " البرج القبلي والسور اللذين وقعا إلى الخندق" غامضة في النص ولم تستطع الباحثة فهم مـا قـصده الكاتب منها. وعلى الأرجح ان يكون البرج المقصود هو برج الزاوية الجنوبية الغربية (برج رقم 1) والذي تم إعادة بنائه حديثاً. أما السور المقصود فهو على الأرجح السور الغربي نظراً لقربه من الطارمة (ديوان الظاهر) من جهة، ومن البرج رقم (1) من جهة أخرى.

حصلت في عام 1731/1136 إصلاحات واعمال تجديد في جامع أبي الدرداء الكائن في داخل البدنة الشمالية في البرج رقم (10)، الذي كان يعرف في العهد العثماني بمقام أبـي الدرداء. وفعلاً فإننا نجد ضريحاً لأبي الدرداء بني في الجناح الشمالي للبـرج علـى شـكل مصطبة من الحجر والرخام. زينت جوانبها بألواح رخامية نقشت عليها أبيات من الشعر يعود تاريخها إلى عام 1749/136 أي هي من عهد الوالي "عثمان باشا الأرابيلي". ويوجـد فـي مدخل الجامع من الجهة الجنوبية لوحتان عثمانيتان من الرخام أثبتتا في الجدارين المتقـابلين، نقشت عليهما أبيات من الشعر. وهما مؤرختان في عام 1133/ 1720، فهما إذن من الوالي "رجب باشا"، وتشير إحداهما إلى إقامة سبيل، بدليل وجود الآية القرآنية المنقوشة عليها وهي: "بسملة. وسقاهم ربهم شرابا طهورا".

---

[121] *(نص مجهول نشره دهمان في مجلة المشرق لعام 1948، ص33).*

- عندما حوصرت القلعة من قبل الجيش المصري بقيادة "أبو الذهب" سنة 1771، ضربت بالمدافع، إلا أنها لم تصب بأضرار كما ذكر في المصادر العربية. لكن "كينغ" يرى بأنها تضررت من جراء القصف ورممت بسرعة. كما يعتقد أن عملية الترميم التي تمت في العام التالي (1772)، وقال أن عملية الترميم تلك تبدو واضحة من الحجارة المستعملة بدون عناية. وأشار في مخططه (المصور رقم 4) إلى الأماكن المرممة وهي تتناول البرجين (9 و 12) والبدنة (1 - 12) والجدار الشمالي للبرج رقم (8) أيضاً ***(KING, Vol. XCIV, 1951, P.83, 57)***.

- لقد رأينا اثناء ثورة دمشق على الوالي سليمان باشا التي حدثت عام 1831/1247، كيف أن القلعة ضربت بالمدافع، ونسف برج الزاوية الجنوبية الغربية بالألغام، وهدم جانب عظيم من البرج كما يقول الشطي ***(الشطي، 1946، ص88)***. ثم رمم البرج المشار إليه كما يقول صاحب المذكرات التاريخية في روايته التالية: " فابتدوا يعمروا فيه أربعين يوماً حتى رجع أحسن مما كان ***(مؤلف مجهول، بدون تاريخ، ص34)***".

ويروي نعمان قساطلي هذا الحادث فيقول: " وتقدم الأهالي فأخرجوا جانباً من سور القلعة الجنوبي مما يلي الغرب. ***(قساطلي، 1879، ص88)***". ويفهم من قوله هذا بأن أعمال الهدم لم تكن مقتصرة على برج الزاوية الجنوبية الغربية (برج رقم 1)، بل شملت أجزاء السور المجاور، أي البدنة (1 - 2).

وبعد هذا الحادث تنقطع أخبار القلعة، ويبدو أنه لم يطرأ عليها أي تغيير حتى أواخر القرن التاسع عشر.

وقد قلت في أواخر العهد العثماني أهمية القلعة كحصن منيع، وأصبحت مجرد ثكنة عسكرية. ويبدو أنها لم تكن وحدها المقر العسكري الوحيد، فقد أنشأت السلطات العثمانية ثكنات حديثة في أماكن مختلفة من المدينة. كما يعدد قساطلي الحصون والثكنات التي شيدت في أواخر العهد العثماني فيقول: " وفي سنة 1863 أنشأت الحكومة قلعتين صغيرتين، واحدة في حارة النصارى في محلة طالع القبة[122]، والثانية في الميدان الفوقاني قرب الجزمائية، وفي سنة 1873 أنشأت محلاً آخر في المرجة عن شمال طريق المركبات المؤدي إلى بيروت. ووضعت فيه الذخائر القابلة للإحتراق، وهذه المحلات وإن لم تكن صغيرة إلا أنها يمكن أن تحسب من الحصون. وفي دمشق أكثر من عشرة منازل للعساكر الشاهانية يسمونها (قشلا) وكلها بالقرب من سراي العسكرية، وتسع نحو عشرين ألف جندي بمهماتهم، ولم يبق بالقلعة إلا مخازن المهمات العسكرية الشاهانية ***(المصدر السابق، ص113)*** ".

إن المنشأة المقامة في المرجة هي الثكنة الحميدية التي تحولت في وقت لاحق إلى جامعة دمشق، أما قشلا الموجودة بالقرب من سراي العسكرية أي (السرايا القديمة) فهي أقدم عهداً ولم يعد لها وجود ***(ريحاوي، م 23، 1973، ص 18)***.

المرحلة الأولى لترميم قلعة دمشق 1984-2006:

استلمت المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية قلعة دمشق من قوى الأمن الداخلي السورية عام 1984، حيث كانت تلك القوى مستثمرة جميع أقسام القلعة، فكان القسم الشرقي

[122] هدمت هذه الثكنة وتحول مكانها إلى ملجأ.

منها يشغله سجن، والقسم الجنوبي يشغله كتيبة حفظ الأمن والنظام، أما ساحة القلعة فكانت عبارة مجموعة من المباني المحدثة مثل: مبنى للشرطة، ساحات للإجتماعات. وبقية أقسام القلعة كانت عبارة عن مكاتب لضباط الشرطة " قيادة السجن ".

وقد تركزت الجهود بعد استلام القلعة على سد الفراغات المفتوحة مباشرة لمحيط القلعة الخارجي. وقد تم تنفيذ المرحلة الأولى من أعمال الترميم على أربعة مراحل:

الأولى: امتدت في الفترة (1984 – 1990)، تضمنت إعادة بناء البرج الجنوبي الغربي، وإعادة بناء بعض البدنات الشمالية في الواجهات الشمالية للقلعة.

الثانية: تمت في الفترة (1990 – 1995) تم فيها إزالة كل ما هو مستحدث من : مواد اسمنتية، بلوك، أيبيمات معدنية[123]، مصاطب السجن ودورات المياه التابعة له، وغيرها من مواد حديثة، سواء كانت موضوعة بفترة الإنتداب الفرنسي، أو بفترة وجود قوى الأمن الداخلي. فكانت تلك المواد دخيلة من حيث النوع والمادة على مواد بناء القلعة الأصلية.

الثالثة: وقد شملت عمليات التنقيب بالقلعة، وتزامنت مع المرحلة الثانية، وقد انحصر التنقيب بشكل أساسي في الجهة الجنوبية الشرقية من ساحة القلعة، وداخل قاعة العرش، ونتج عن تلك التنقيبات العديد من الفراغات الأيوبية، وبعض الفراغات المملوكية الهامة. كما وجد تنقيب بالجهة الشمالية وتحديداً في (باحة السجن)، حيث نتج عنه مصاطب جلسات، بحرات أيوبية، غرف كانت تستخدم لتخزين المونة، وجدران ذات ارتباطات مع جدران حالية بالقلعة.

الرابعة: امتدت في الفترة بين (1995 – 2006). وشملت تقديم وتنفيذ طينة تقليدية للطينة الأثرية لأسقف بعض الفراغات الموجودة ضمن القلعة مثل الجهة الجنوبية. كما شملت أعمال تكحيل الجدارن الحجرية، وعزل أسطح بعض البدنات والأبراج.

وفيما يلي أهم منجزات المرحلة الترميمية الأولى لقلعة دمشق (1984 – 2006): ***(مقابلة شخصية، إدارة القلعة):***

نتيجة الإستخدام المغاير لقلعة دمشق عن تلك الوظيفة التي انشأت لأجلها، ونتيجة ما أصابها من أضرار عبر العصور المتعاقبة عليها، قامت مديرية الآثار السورية بإنجاز بعض التداخلات الترميمية الإسعافية في محاولة لإعادة هذا الصرح من خلال رسم استراتيجية عامة مبرمجة لإعادة تأهيل القلعة، مع الأخذ بعين الإعتبار اعتماد الأسس والمعايير الدولية الناظمة لأعمال الترميم، بدأ بأعمال الأرشفة والدراسات التحليلية والميدانية، وصولاً إلى انجاز مشاريع الترميم التي كان أبرزها:

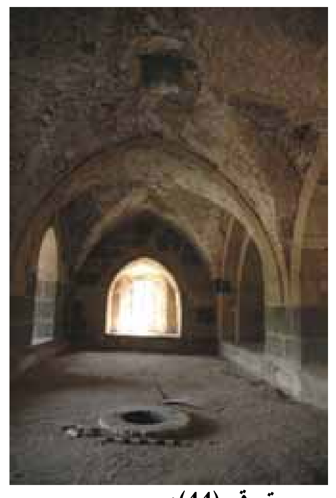
1- إعادة بناء القبوات المتصالبة للبدنة الجنوبية المملوكية وبعض أبراج القلعة، وذلك في بداية الثمانينات من القرن العشرين:

في فترة الإنتداب الفرنسي (1920 – 1946) كانت القبوات تحوي أيبيمات معدنية واسمنت مسلح، كما كانت معظم القبوات منهارة بحيث لم يكن يبقى منها سوى الكتف. فتم

---

[123] جسور حديد.

إعادة بناء تلك القبوات بشكل مطابق للقبوات القديمة، وقد تم ذلك بإستخدام مونة[124] مشابهة للمونة الأصلية وضعت بين الحجارة.



صورة رقم (44):
منظر عام للقبوات المتصالبة في الطابق الأول للبرج رقم (4)



صورة رقم (43):
قبوة متصالبة مرممة داخل البدنة الجنوبية المملوكية

2- إعادة بناء برج الزاوية الجنوبية الغربية برج رقم (1)، وبعض أجزاء من البدنات المفقودة في الجهتين الغربية والشمالية:

تبين من خلال الفصل الثاني من هذه الدراسة، بأن هذا البرج كان قد أحرق وتساقط اكثر جدرانه. وبالإعتماد على الأساسات المتبقية من هذا البرج، وبالمقارنة مع الأبراج الأخرى، فقد تمكنت مديرية الآثار السورية من بناء هذا البرج، وذلك باستخدام حجارة تم نحتها وتشذيبها بشكل مشابه للحجارة القديمة، واستخدام مونة مطابقة من حيث المواصفات لما هو في الأبراج الأخرى للقلعة. وقد تمت عملية البناء بالإستعانة بمختصين فنيين وعمال مهرة، قاموا بمحاولة إعادة هذا البرج إلى شكله الأصلي إعتماداً على البرج رقم (12).

3- أعمال إزالة الإشغالات الحديثة عن الواجهات الخارجية للقلعة وأبراجها، (سوق الخجا 1984، مباني السجن الإضافية 1989 - 2003):

لقد كان سوق الخجا عبارة عن محلات تجارية لبيع المنتجات الجلدية وغيرها، وقد كان ذلك السوق يشغل الواجهة الغربية للقلعة، وبهدف إظهار القلعة وإزالة كل عائق يعمل على تغطية معالم القلعة سواء من الخارج أو من الداخل، فقد قامت مديرية الآثار بإزالته.

وكان يشغل القلعة بجميع أقسامها وأسطحها مباني حديث بنيت في فترات استخدام القلعة كسجن، كمكاتب الضباط، وغرف السجناء، وكل ما له علاقة بالسجن من دورات مياه، ومدات اسمنتية وغيرها، تم هدمها وإزالتها جميعاً. كما أزيل كذلك المشغل التابع للسجن والذي كان يحتل الجهة الجنوبية من القلعة.

[124] مكونات المونة: 2,5 حجم رمل متوسط النعومة + 1 حجم كلس مطفأ + 5, حجم ماء + 02, حجم مطحون حجر كلسي+ 1 حجم جص.

4- أعمال ترميم البدنة السلجوقية الجنوبية (1996):

أجريت أعمال ترميمية للبدنة السلجوقية الجنوبية والمحددة في (الصورة رقم 45) باللون البرتقالي، فتم إعادة بناء القوس القرميدي والكتف، وأعيد بناء الحجارة المتساقطة في تلك البدنة. كما أعيد ترميم مدخلها وجدرانها من الداخل والخارج.

وقد قامت مديرية الآثار بتسوية مناسيب الأرضيات داخل هذه البدنة. كما تم تنفيذ أرضيات تقليدية استخدمت فيها حجارة ومونة تقليدية بالإعتماد على وجود أقسام مبلطة أصلية بنفس الأرضية.



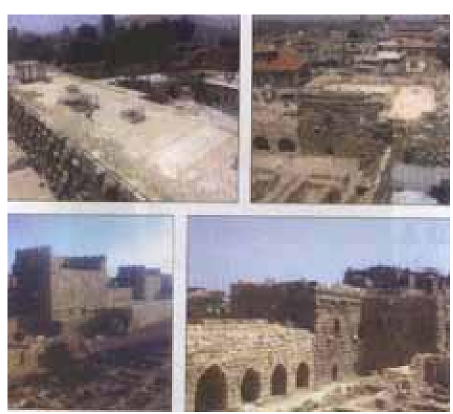
صورة رقم (46)
جانب من جدار البدنة السلجوقية



صورة رقم (45)
مدخل البدنة السلجوقية المرمم

5 - أعمال كشف وعزل أسطح المباني (1998 - 2006):

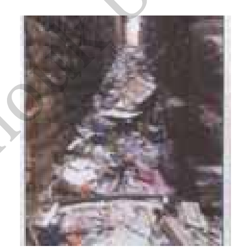
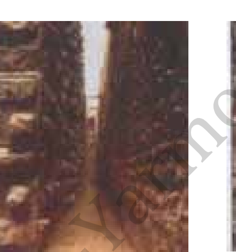
وقد نفذت هذه الأعمال على سطح المبنى الجنوبي الغربي، وسطح البدنات الشمالية الداخلية، والغربية والجنوبية والأبراج (2 - 5 - 6 - 7 - 9 - 12). فأزيلت المدات والأبنية المحدثة عن أسطح تلك المباني، للكشف عن مناسيب أسطح تلك الأبنية الأصلية، وخلال ذلك العمل، تم تنفيذ عمليات عزل للأسطح، ونفذت أيضاً أرضيات تقليدية للأرضيات الأصلية القديمة، استخدمت فيها مونة تقليدية بمواصفات خاصة.



صورة رقم (47): أجزاء من مباني القلعة تم كشف أسطحها وعزلها.

2- أعمال كشف الممر الفاصل بين القلعة ومحلات سوق الحميدية (2001):

من خلال هذا البرنامج تم كشف خندق القلعة، وهو الممر الفاصل بين القلعة ومحلات سوق الحميدية، إلا أنه لم يتمكن من كشف كامل عمق الخندق بسبب تواجد محلات سوق الحميدية التي بنيت في العهد العثماني (في أواخر القرن الثامن عشر)، حيث ظهرت أساساتها على منسوب أعلى من منسوب أرضية الخندق. أما الجزء المتبقي من الخندق فقد تم تنظيفه من الأتربة والأوساخ المتراكمة، وبذلك أظهرت معالم الخندق.

صورة رقم (48): الممر الفاصل قبل وبعد تنظيفه.

7- أعمال تأهيل محاور الحركة الداخلية (الزيارة داخل قلعة دمشق) ضمن البدنات والأبراج (2003 - 2006):

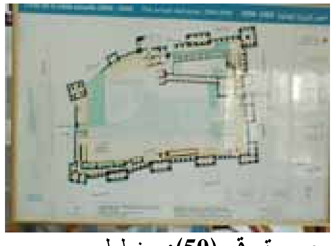
لقد شملت هذه الأعمال الجهات الغربية والجنوبية والشرقية من القلعة. فتم العمل بداية ضمن البوابتين الغربية والشرقية وعلى كامل المسار بينهم، حيث جرت عمليات تأهيل وترميم وتظهير لمحوري الزيارة التي وضعتهما إدارة القلعة، وهما:

محور مجاني: وفيه يتم دخول الزوار من البوابة الشرقية إلى البرج رقم (7)، مروراً بالساحة حتى البوابة الغربية.

محور مدفوع: يستخدم الجهتين الغربية والجنوبية، بالإضافة إلى الفراغ المجاني.



صورة رقم (49): مخطط مقترح لإعادة تأهيل قلعة دمشق لعام 2008



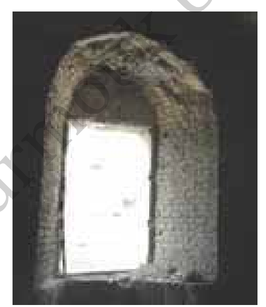
صورة رقم (50): مخطط محور الزيارة الحالية 2006-2008

9- أعمال ترميم تدعيمية وأخرى تاهيلية لخدمة الوظائف الجديدة المسندة للفراغات المعمارية (2001 - 2006):

وقد نفذت هذه الأعمال ضمن أبراج وبدنات الجهة الغربية والجنوبية والشرقية. فكشف العديد من الإغلاقات الحديثة لبعض الأبواب الأساسية ضمن القلعة في الأبراج، وتم إعادة تأهيل جميع الأدراج التي كانت مردومة بالفترات العثمانية، حيث عمد العثمانيون سابقاً في فترة تحويل القلعة إلى سجن إلى إلغاء الأدارج الداخلية في أبنية القلعة، وعمل أدراج

خارجية منفصلة لكل طابق على حدى. لذا قامت مديرية الآثـار بفـتح الأدراج الداخليـة وإعادة تأهيلها.

10- أعمال ترميم مرامي البرج رقم (2)، وفتحات المبنى الجنوبي الغربي (2005):
فقد كانت جميع مرامي البرج رقم (2) في طوابقه الثلاث وكذلك جميع فتحـات المبنـى الجنوبي الغربي ملغاة ومحوّلة إلى نوافذ في فترة استخدام القلعة كسجن، لذا شـملت أعمـال الترميم هنا فك تلك النوافذ وإعادة ترميم المرامي بنفس شكلها القديم.



صورة رقم (51):
أحد مرامي برج رقم (2)
(قبل عملية الترميم)

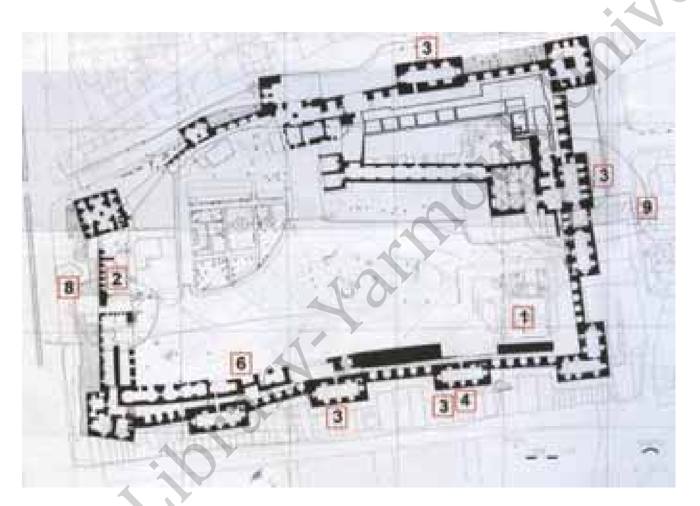


صورة رقم (52):
وضع المرمى المذكور
(بعد عملية الترميم)

11- أعمال إعادة تأهيل وإظهار الساحة الداخلية للقلعة (2001 - 2006):
في هذه المنطقة من القلعة، اشتملت الأعمال الترميمة على إزالة حديقة محدثـة، مـع الحفاظ على الأشجار، كما أزيل جميع ما هو محدث من المباني داخلها من مكاتب ضباط، ودورات مياه، وغيرها. كما نفذت أرضيات حجريـة تقليديـة، وكـذلك أدراج لتـسوية المناسيب.

أهم المكتشفات الأثرية في قلعة دمشق بين عامي (1992 – 2006): *(مقابلة شخصية، إدارة القلعة)*:

كان من ضمن خطة المديرية العامة والمتاحف السورية منذ تسلمها مسؤولية إعادة إحياء موقع قلعة دمشق، القيام ببعض الحفريات الأثرية ضمن القلعة، مما أدى إلى اكتشافات هامة تساعد في التعرف على العديد من المعطيات التاريخية والمعمارية والأثرية الهامة التي ما زالت قيد الدراسة ولم تنشر بعد، وكان أهمها:



مخطط رقم (37): مواقع المكتشفات الأثرية في قلعة دمشق.
(المكتب الهندسي/ قلعة دمشق)

1- القاعة الأيوبية المناظرة لقاعة العرش:

تقع هذه القاعة داخل قلعة دمشق أمام برج رقم (11) باتجاه الشرق. وقد بدأت البعثة الوطنية التنقيبات فيه سنة (1992) بإشراف الإستاذ نسيب صليبي، حيث كشفت عن وجود بقايا وأساسات معمارية لمنشأة كبيرة على شكل مربع، تعود للفترة الأيوبية الأولى، وتقع ضمن حدود القلعة السلجوقية، سميت بـ (القاعة الأيوبية) أو (القصر). ويتوسط هذه المنشأة أربع دعامات وبحرة في المركز مربعة بزوايا داخلية عل شكل ربع دائرة.

كما كشفت التنقيبات عن وجود غرفة تحت أرضية في الجهة الجنوبية من تلك القاعة، لم يتبق منها سوى جدرانها، يتم النزول إليها بواسطة درج في حالة جيدة وباب ارتفاعه 0.90 م وعرضه 0.70 م. ويعتقد بأنها كانت تستخدم كبيت للمونة، حيث عثر بداخلها على جرار تخزين وبئر ماء.



صورة رقم (53):القاعة الايوبية المناظره لقاعة العرش.

2- الحمّام المملوكي:

اكتشفت البعثة الوطنية هذا الجزء الهام من القلعة أثناء تنقيبات عام (1995)، حيث تم العثور عليه في الجهة الغربية من القلعة بجوار برج الزاوية الشمالية الغربية. ويمكننا مشاهدة بقايا أنابيب الآجر ومرجل تسخين ماء في وسط الحمّام، يوجد في أسفله فتحة **(فـرن)** كانـت تستخدم لوضع الحطب وإيقاد النار.

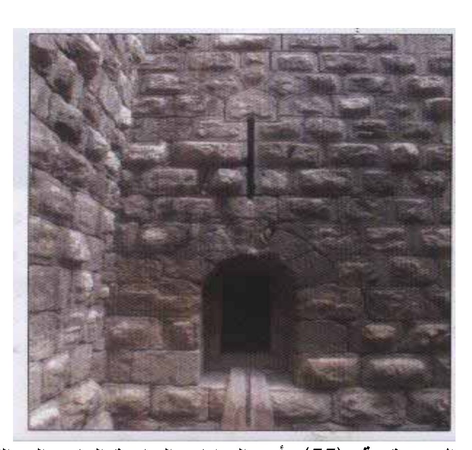
الحمّام حالياً معظمه مهدوم، ولكن يمكن مشاهدة غرفه إلا أنها بدون سقف. كما يمكننا مشاهدة بعض أجزاء بلاط أرضية الحمّام.



صورة رقم (54): الحمام المملوكي.

3- البوابات الجانبية العائدة إلى القلعة الأيوبية (1202 - 1217):

كشفت تنقيبات البعثة الوطنية في الفترة (1997 - 2002) عن أبواب سـرية تقـود لخندق القلعة، توجد في البرجين 3 و 4 ، حيث يتم النزول إليهما بواسطة أدراج حجرية.



الصورة رقم (55): أحد البوابات الجانبية العائدة إلى القلعة الأيوبية (1202- 1217).

4- **الخوذ المملوكية:**

عثرت البعثة الوطنية لعام (2001) أثناء تنقيبها في البرج رقم (4) على عدد كبير من الخوذ المملوكية، احتوت على زخارف مملوكية. ولا تزال هذه الخوذ قيد الترميم والدراسة.



صورة رقم (56): الخوذ المملوكية المكتشفة في البرج (4).
(كتيّب صادر عن المديرية العامة للآثار والمتاحف- 2006)

5- **البقايا المدفنية:**

كشفت عنها البعثة الإسعافية السورية – الفرنسية لعام (2002)، حيث عثر على بقايا عظمية دلت الدراسة على أنها تعود لمنتصف الألف الثالث ق.م.



صورة رقم (57): البقايا المدفنية العظمية.
(كتيّب صادر عن المديرية العامة للآثار والمتاحف- 2006)

6- **المكتشفات العسكرية:**

عثرت عليها البعثة الوطنية بالتعاون العلمي مع البعثة السورية – الفرنسية (2002)، وذلك ضمن المبنى الجنوبي الغربي. وترجع غالباً للفترة المملوكية، بدليل قطعة قماش دائرية احتوت على (رنك) مملوكي. كما تم العثور أيضاً عى رؤوس رماح خشبية، وأدوات لتخزين مادة البارود ترجع لنهاية الفترة المملوكية، وحقائب جلدية للمحاربين الجنود.



الصورة رقم (58): المكتشفات العسكرية.
(كتيّب صادر عن المديرية العامة للآثار والمتاحف- 2006)

7- بقايا عناصر معمارية:

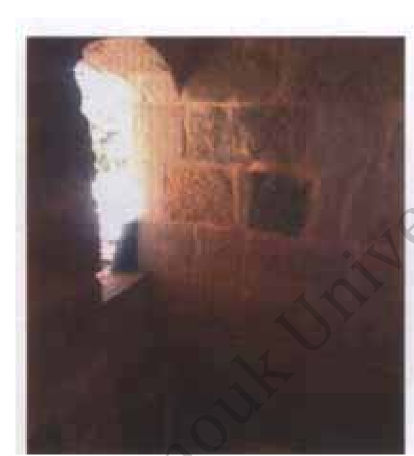
عثر على هذه البقايا من قبل البعثة الوطنية (2003)، مثل البدنة الأيوبية من الداخل، كما تم الكشف عن سور القلعة السلجوقية الأقدم في الجهة الشرقية من القلعة، وذلك من خلال حفرية هدفت للكشف عن تحصينات قديمة للقلعة. كما تم الكشف عن إنشاء من اللبن لا تـزال هنالك إشكالية في معرفة هويته، وفترة بنائه تحديداً.



الصورة رقم (59): بقايا عناصر معمارية

8- باب السر الغربي:

قامت البعثة الوطنية (2005) بإجراء حفرية عند الباب الغربي للقلعة، كـشفت عـن وجود باب سر غربي مقام فوق الخندق، تم تأريخه للقرن الثالث عشر الميلادي.
وبحسب الروايات التاريخية، فقد كان لهذا الباب جسر خشبي متحرك يتم وضعه عند الحاجة.



الصورة رقم (60): باب السر الغربي
(كتيّب صادر عن المديرية العامة للآثار والمتاحف- 2006)

9- جسر الخندق للبوابة الشرقية:

كشفت البعثة الوطنية لعام (2006) عن جسر الخندق للبوابةالشرقية، في آخر مراحله العائدة إلى القرن السادس عشر الميلادي. وهو منفذ من مادة الحجر.



الصورة رقم (61): جسر الخندق للبوابة الشرقية.
(كتيّب صادر عن المديرية العامة للآثار والمتاحف- 2006)

الخاتمة

تبين مما سبق من خلال هذه الدراسة عن قلعة دمشق، والتي تناولت الجوانب التاريخية والمعمارية والعسكرية، ما كان لقلعة دمشق من شأن في تاريخ مدينة دمشق خاصة، ومنطقة الشرق العربي عامة. والدور الذي قامت به تلك القلعة في فترة تعتبر من أخطر فترات التاريخ، حين واجهت المنطقة عدواناً من الغرب وآخر من الشرق (الصليبيون والمغول).

كما تم تسليط الأضواء على أهميتها من الناحية المعمارية، وعلى آثارها الهامة التي ضاعت فترةً طويلة أثناء استخدام القلعة بغير وظيفتها، ولم يفطن إلى وجودها سوى القليل من الناس وذوي الإختصاص بسبب وقوعها في مستوى أرض مدينة دمشق، خلافاً لما هي عليه سائر القلاع التي نراها ظاهرةً مكشوفة فوق هضبة أو مرتفع، يؤمها الناس من كل صوب.

وقد تضمنت هذه الدراسة وصفاً لآثار تلك القلعة، كما احتوت على مجموعة من الصور والمخططات الخاصة بها التي تساعد في تكوين فكرة واضحة عن أهميتها، وتثبت بأن قلعة دمشق ما تزال موجودة حقيقة، بأسوارها وأبراجها شبه الكاملة، وفي مستوى نادر من الأصالة والصيانة.

كما تبين بأن مدينة دمشق عرفت في تاريخها قلعتين، الأولى: أطلق عليها اسم "القلعة السلجوقية"، نظراً لأن السلاجقة هم الذين شيدوها في عام 1175/468، وأرفق ذلك بالأدلة المتعددة بأن تلك القلعة كانت أول حصن عرفته دمشق، وبذلك تم نفي نظرية وجود حصن روماني في مكانها، اعتقد بوجوده أكثر العلماء والأثاريين. ولقد عاشت القلعة السلجوقية قرابة مئة وثلاثين عاماً كانت مليئة بالأحداث، فهي الفترة التي شملت عهد أتابكة السلاجقة بكامله، وعهد نور الدين وصلاح الدين وجزءاً من حكم أخيه الملك العادل، وكان هؤلاء جميعاً يتخذونها دار إمارة وقصراً حصيناً يقيمون فيه مع أسرهم وأتباعهم من القادة.

والملك العادل هو الذي قام بهدم القلعة السلجوقية عام 1202/599، لا لشيء سوى الرغبة في إشادة قلعة حديثة أكثر قوة وتطوراً وملاءمة لروح العصر.

وقد سميت هذه القلعة الثانية بـ "القلعة الأيوبية"، وهي التي نشاهدها اليوم. وقد استمر بناؤها منذ تولي العادل السلطنة في عام 1202/599 حتى أواخر أيامه (توفي العادل سنة 1218/615).

كما بذلت الجهود العظيمة عند بناء القلعة الجديدة كي تتوفر فيها كل متطلبات التطور في فنون العمارة وأساليب التحصين، ولتكون أقدر من كل قلعة أخرى شيدت قبلها.

واستعرضت الباحثة التجارب التي مرت بهذه القلعة بعد بنائها، وحالات الحصار العديدة التي مرت بها في أيام الأيوبيين والمماليك، كما حاولت كشف ذلك من خلال أنواع الأسلحة التي كانت تستخدم في ذلك الوقت ضد القلاع، أو التي يستخدمها أهل القلاع ضد أعدائهم ومحاصريهم.

وأنهت البحث في النواحي المعمارية بدراسة مقارنة، بينت فيها خصائص كل عنصر من العناصر الأساسية في قلعة دمشق، وقارنتها بالعناصر المماثلة في القلاع الأخرى كي تبرز مكانة القلعة في تاريخ العمارة العسكرية، ويظهر بوضوح المستوى الذي بلغته في سلم تطور فن العمارة.

ثم تتبعت ما طرأ على بناء القلعة من اعمال الهدم والترميم، وما كان يضاف إليها من منشآت في كل زمن. فقد استمرت أعمال التحصين، وإشادة المنشآت العسكرية والمدينة في القلعة الأيوبية، كما نلاحظ طوال العهدين الأيوبي والمملوكي. وكان كلما تهدم فيها شيء أو لحق به ضرر ما، سارع إلى ترميمه أو تجديده السلاطين والولاة. ورأينا كيف اختلفت أحوال القلعة في العهد العثماني، فتراجعت أهميتها الحربية، وتحولت تدريجياً إلى ثكنة عسكرية وسكن مدني لضباط الجيش العثماني، إضافة للمرافق الخدمية والسجن. واستمرت تستخدم كسجن للأحرار والثوار خلال فترة الإنتداب الفرنسي، وبقيت على حالها تستخدم كسجن بعد استقلال سوريا، إلى أن انتقلت تبعيتها بعد ذلك للمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية، حيث بوشر بأعمال ترميمها وإعادة تأهيلها كصرح حضاري أثري يستقطب الناس من كل أنحاء العالم.

المصادر والمراجع المعتمدة

أ- المصادر العربية

ابن العماد الحنبلي، المتوفي سنة 1089هـ:
1931- 1932 **شذرات الذهب**، 8 أجزاء، مكتبة القدسي، القاهرة.

ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة)، المتوفي سنة 909هـ:
1908 **ذيل تاريخ دمشق**، بيروت.

ابن تغري بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف):
1929 – 1972 المتوفي سنة 874هـ: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، 16 جزءا، دار الكتب المصرية.

ابن كثير (عماد الدين اسماعيل):
1932 المتوفي سنة 555هـ: **البداية والنهاية**، 14 جزءا، مطبعة السعادة بمصر.

أبو البقاء:
1341 (عبدالله البدري المصري الدمشقي)، ولد سنة 847هـ: **نزهة الأنام في محاسن الشام**، القاهرة.

الحسني (جعفر)، محقق:
1948 ، 1951 **الدارس في تاريخ المدارس**، للنعيمي (عبد القادر)، المتوفي سنة 927هـ، ، جزءان، طبعة المجمع العربي العلمي، دمشق.

الدهان (سامي)، محقق:
1956 **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، **لإبن شداد (عز الدين)**، المتوفي سنة 684هـ: الجزء الثاني، طبعة المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق.

العسقلاني (ابن حجر)، المتوفي سنة 717هـ:
1350/1348هـ **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، دار المعارف، الهند.

العطار (عزة)، محقق:
1947 أبو شامة (شهاب الدين المقدسي)، المتوفي سنة 665هـ:
1- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، الطبعة الثانية، القاهرة.
2- **ذيل الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع)**، دار الكتب، القاهرة.

القلقشندي (أبو العباس أحمد)، المتوفي سنة 1061هـ ،
1913 – 1919 **صبح الأعشى**، 14 جزءا، المطبعة الأميرية، القاهرة.

المحبي (محمد):
1284 المتوفي سنة 1441/845 : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجزاء، المطبعة الوهبية، القاهرة.

المنجد (صلاح الدين)، محقق:
1951 ، 1954 " تاريخ مدينة دمشق"، لإبن عساكر (الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن)، المتوفي سنة571هـ، مخطوطة في ثمانين مجلداً، استخدم منها: المجلد الأول والثاني، طبعة المجمع العلمي العربي، دمشق.

1957 قطعة تخص مدينة دمشق، للعمري (ابن فضل الله)، " مجلة معهد المخطوطات للجامعة العربية"، المجلد الثالث، الجزء الأول، مايو 1957، الصفحات 113 – 1.

1959 ، 1963 البوريني (الحسن بن محمد)، المتوفي سنة 279هـ:
تراجم الأعيان من أبناء الزمان، الجزءان الأول والثاني، طبعة المجمع العلمي العربي، دمشق.

باشا (أحمد زكي)، محقق:
1924 مسالك الأبصار، للعمري (ابن فضل الله)، المتوفي سنة 717هـ، مخطوطة نشر منها الجزء الأول، طبعة دار الكتب، القاهرة، 1924.

جبور (جبرائيل)، محقق:
1949- 1959 كتاب الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، للغزي (نجم الدين)، المتوفي سنة 1061هـ، ثلاثة أجزاء، بيروت.

حتي (فيليب)، محقق:
1930 كتاب الإعتبار، لإبن منقذ (أسامة)، المتوفي سنة 584هـ، طبعة برينستون.

درويش (عدنان) محقق:
1975 مخطوط في الظاهرية، لإبن قاضي شهبة (تقي الدين أبو بكر الأسدي)، المتوفي سنة 851هـ، ، دمشق.

دهمان (محمد أحمد)، محقق:
1931 الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية، لإبن طولون (شمس الدين محمد)، مكتبة القدسي، دمشق.

1963 تاريخ مدينة دمشق، لإبن عساكر (الحافظ أبي القاسم بن علي)، المتوفي سنة 571هـ، المجلد العاشر، طبعة المجمع العلمي العربي، دمشق.

1964 أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، لإبن طولون (شمس الدين محمد)، المتوفي سنة 953هـ، مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق.

زيادة (مصطفى)، محقق:

1934 - 1958 كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي (تقي الدين محمد بن أحمد)، المتوفي سنة 1441/845 جزءان في ستة أقسام، لجنة التأليف والترجمة والنشر ودار الكتب بالقاهرة.

سويلة، (جاكلين)، محقق:

1974 تالي كتاب وفيات الأعيان، للصقاعي (فضل الله بن أبي الفخر)، المتوفي سنة 727هـ، مطبوعات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق.

طلس (أسعد)، محقق:

1943 ثمار المقاصد في تاريخ المساجد، لإبن عبد الهادي (يوسف)، المتوفي سنة 909هـ، بيروت.

عزت عبد الكريم (احمد)، محقق:

1959 حوادث دمشق اليومية، للفترة الواقعة بين عامي 1741/1145 و 1762/1175، للبديري (الحلاق)، من القرن الثامن عشر، القاهرة.

مصطفى (محمد)، محقق:

1951 بدائع الزهور في وقائع الدهور، لإبن إياس (محمد بن أحمد المصري)، القرن السادس عشر الميلادي، ثلاثة أجزاء، طبعة بولاق 1894/1311، دار المعارف بمصر.

1962 ، 1964 مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، لإبن طولون، جزءان، القاهرة.

نصار (حسين)، محقق:

1955 الرحلة، لإبن جبير، القرن السادس الهجري، دار الطباعة بمصر.

ب- المراجع العربية

الشطي (جميل):
1946 روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر، دار اليقظة، دمشق.

الصغير (أجفان):
1995 "القلاع في فترة الحروب الصليبية ودورها الإقتصادي والإجتماعي والإداري عند المسلمين في بلاد الشام"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، كلية الآداب.

المخلصي (قسطنطين) محقق:
بدون تاريخ مذكرات تاريخية، لمؤلف مجهول (أحد كتاب الحكومة في سرايا دمشق، معاصر لفتر ابراهيم باشا)، حريصا، لبنان.

المنجد (صلاح الدين) محقق:
ولاة دمشق في العهد العثماني، يضم مذكرتين تاريخيتين:
بدون تاريخ الأولى: تأليف ابن جمعة المقار من القرن الثاني عشر الهجري، سماها "الباشات والقضاة". يبدأ من أول العهد العثماني وينتهي في سنة 1159هـ، من ص 1 – 70.
بدون تاريخ الثانية: تأليف رسلان بن القاري من القرن الثالث عشر، سماها "الوزراء الذين حكموا دمشق" حتى سنة 1232هـ، من ص 72 – 90.

1947 حمّامات دمشق، نصوص قديمة من ابن عساكر وابن عبد الهادي، بيروت.

1949 ولاة دمشق في العهد السلجوقي، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر، مطبعة الترقي، دمشق.

بهنسي (عفيف):
1983 الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه، الطبعة الأولى – دار الفكر، دمشق.

حميد (عبد العزيز) و العبيدي (صلاح) و قاسم (أحمد):
1982 الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، جامعة بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

دهمان (محمد أحمد):
1948 نصوص في وصف زلزال سنة 1173هـ، "مجلة المشرق"، المجلد 42، جزء 2، نيسان– حزيران.

رافق (عبد الكريم):
1968 بلاد الشام ومصر، من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (1516 – 1798)، الطبعة الثانية، دمشق.

ريحاوي (عبد القادر):
1959 قبور العظماء في دمشق، مقال منشور في "مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق"، المجلد 34، الجزء الرابع، الصفحات 656-662.
1996 مدينة دمشق: تراثها ومعالمها التاريخية، دمشق.

1972 حضارة الجزيرة والفرات في العهد العربي الإسلامي، بحث منشور في مجلة "الحوليات الأثرية السورية":
القسم الأول: المجلد 22، الصفحات 31 – 70.
القسم الثاني: المجلد 23 لعام 1973، الصفحات 85-112.

قصور الحكام في دمشق، بحث منشور في "مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية":
1972 – القسم الأول: مجلد 22، الصفحات 31-70.
1973 – القسم الثاني: مجلد 23، الصفحات 85-112.

1979 قلعة دمشق: تاريخها وفنونها المعمارية، مطبوعات هيئة تدريب القوات المسلحة في الجيش العربي السوري، دمشق.

زكار (سهيل):
1973 مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق.

شعث (شوقي):
1986 قلعة حلب/ دليل أثري تاريخي، منشورات وزارة الثقافة – المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق.

صباغ (ليلى):
1973 "الجاليات الأجنبية في بلاد الشام"، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق، كلية الآداب.

عمران (هزار) و دبورة (جورج):
1998 قلعة دمشق، وزارة الثقافة- المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق.

قساطلي (نعمان)، ولد سنة 1854:
1879 الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت.

كرد علي (محمد):
1969 خطط الشام، ج2 و ج3، دار الكتب العلمية، بيروت.

معلوف (لويس)، محقق:

1912 **تاريخ حوادث الشام ولبنان، للدمشقي (ميخائيل)**، مــن القــرن التاســع عــشر الميلادي، من سنة 1197 الى سنة 1257 (1782-1841)، الطبعة الكاثوليكية، بيروت.

المراجع الأجنبية

ABEL (A):
1959 **Citadelle de Bosra,** Annales Archéologiques Syriennes (A.A.S.) t. VI, Damas.

CRESWELL (K. A. C):
1959 **The Muslim Architecture Of Eygpt,** Tome II, Ayyubids and Early Bahrite Mamluks, Oxford.

A Short account of Early Muslim Architecture, Pelican, London.

1931-1964 **Répertoire Chronologique d' Epigraphie Arabe,** 16 Vols, Insttitut Francais d' Archéologie Orientale, Le Caire.

D'ARVIEUX:
1735 **Mémoires du Chevalier d' Arvieux,** Paris.
1745 **Description Of The East,** Pocoke's Travel, 2 volumes, London.

DESCHAMPS (PAUL):
1934 **Le Crac des Chevaliers,** Vol. 1, Texte 327 p., Vol. II Planches, Paris.
1932 **Les entrées des chateaux des Croisés en Syria,** T. XIII.

DE LOREY (E):
1926 **Rapport rédigé , Archive de 1'Institut Français de Damas.**

HANICH (HANSPETER):
1991 **Citadel of Damascus Investigation of Possible use,** Syrian Office for printing, Damascus.

KENYON (KATHLEEN):
1957 Digging up Jericho, London.

KING (D.J Catheart):
1951 **The Defences of the Citadel of Damascus,** Archaeologia, Vol. XCIV, Copy printed by Charies Batey for the Society of Antiquaries of London, Oxford.

LORTET:
1884 **La Syrie d'aujourd'hui,** Paris.

MAYER (L.A):
1933 **Saracenic Heraldry,** Oxford.

POIDBARD (A):
1934 **La Trace de Rome dans le desert de Syrie limes de Trajan à la Conquête Arabe,** 2 Vols. Texte et Atlas, Paris.

REY (G.):
1871 **Etude sur les monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie et dans l'île de Chypre,** Paris.

RUNCIMAN (Steven):
1925 **A History of the Crusades,** Vol. II, The Kingdom of Jerusalem, Cambridge.

SAUVAGET (Jean):
1930 **La Citadelle de Damas,** SYRIA, XI, **Monuments Historiques de Damas,** in - 8°, Beyronth.

SOBERNHEIM (M.):
1922 **Die Inschriften der Zitadelle von Damaskus,** Der Islam, t. XII.

VAN BERCHEM (MAX):
1922 **Inscriptions Arabes de Syrie,** Dans Mémoires de l'Institut Egyptien, Fasc. III.